فيكتور هيجو

العام الثالث والتسعون

رواية

تقديم ومراجعة
ماجد عبد الرحمن

الكتاب: العام الثالث والتسعون (رواية)

الكاتب: فيكتور هيجو

تقديم ومراجعة: ماجد عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هيجو فيكتور

العام الثالث والتسعون (رواية)/ فيكتور هيجو, تقديم ومراجعة: ماجد عبد الرحمن – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٥٦٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٤٥٧٢ / ٢٠٢٢

العام الثالث والتسعون

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

كتب فيكتور هوجو روايته (العام الثالث والتسعون) بين عامي ١٨٧٢، ١٨٧٣.. وقيل أن الفكرة كانت تراوده قبل ذلك بعشر سنوات، فقد لمعت في ذهنه الشخصيات والأحداث في ربيع ١٨٦٢، لذلك قيل أن هوجو كان يستكمل نظرته إلى الثورة قبل أن يكتب عنها رواية، وقال الناقد الفرنسي " ريمون إيشولييه" إن فيكتور هوجو كان يحمل رواية ٩٣ في دمه، وقد قال هوجو عن الحرب "لقد خاضها والدي، وبوسعي أن أكتب عنها". فقد كان والده جنديا ضمن صفوف الجمهوريين، وخلال فترة تجنيده التقي بالسيدة "صوفيا تريبوشيه" وتحابا وتزوجا وأنجبت له أبنائه ومنهم الروائي الشهير. ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرواية الشهيرة، وهي آخر ما كتب هوجو، أن نعرج سريعا على سيرة حياته.

فلا يمكن الحديث عن فيكتور هوجو أو عن أحد أعماله خصوصا الروائية، دون أن نحاول فهم جوهر شخصيته، باعتبارها المرآة التي تعكس كل سماته النفسية والفكرية، والتي تكونت عبر تأثيرات البيئة وتجارب الحياة والعادات والتقاليد والخبرات اليومية، ومن خلال المواقف السلوكية عند الإقدام بأي فعل أو تفكير في موضوع (ما)؛ ذاتيا كان أو موضوعيا؛ ومن خلال ذلك يتم التعبير عن تلك المواقف والتأثيرات في العمل الإبداعي فنيا كان أو أدبيا، فأي عمل إبداعي لا يمكن تحليله أو تفسيره إلا وفق هذه الرؤية.. وهذه المؤثرات التي هي من تحفز الكاتب وتدعوه إلى الكتابة،

والأعمال الإبداعية التي قدمها "هوجو"ما كانت تأخذ مكانتها في الأدب

العالمي إلا وهي مفعمة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة والمعبرة عن واقع الذي عاشه الأديب؛ فقدمها في نصوصه بكل وفاء لتوقع في النفس نفس قوة التي انطلق منها مشاعر المبدع. فشخصية "هوجو"استطاعت بعطائها الإبداعي إن تتخطى حدود (فرنسا) كروائي.. وشاعر.. ورسام.. وسياسي.. ومفكر.. واكب أحداث عصره بكل تجلياتها كشخصية مدافعة عن حقوق الشعوب ونضالها من أجل الحرية والعمل على رفع مستوى الوعي والتعليم وتثقيف الجماهير ورفع مستواهم المعاش، ولهذا كان نضاله نضالا سياسيا وفكريا احتل مكانة مرموقة ليس في تاريخ بلاده (فرنسا) فحسب بل في تاريخ العالم.

سيرة الروائي

ولد فيكتور هوجو فى ٢٦ فبراير ١٨٠٢، في بيزنسون بإقليم دوبس بشرق فرنسا، وهو الابن الثالث للجنرال "جوزيف هوجو"، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون، أما الأم فهي "صوفيا تريبوشيه" التي كانت ابنة لضابط في البحرية، ولم تكن حياتهما الزوجية مستقرة، فقد واجها بعض المشكلات التي لم يستطيعا التغلب عليها فانفصلا رسميا، وكان فيكتور في السادسة عشرة من عمره، وكانت الأم قد سبق لها أن تركت إقليم دوبس وعادت إلى بيت أسرتها في باريس مصطحبة طفلها فيكتور وكان يومها في الثانية أخذته والدته للعيش معها في باريس، في حين كان والده يشارك في حروب الجيش الفرنسي، وقد أحب فيكتور باريس وكان يصفها دائما بقوله: "المكان الذي ولدت فيه روحي".

درس هوجو الحقوق، وقبلها درس الأدب اللاتيني، وفي عام ١٨٢٢ نشر أول ديوان شعري بعنوان "أناشيد وقصائد متنوعة" والذي لقي ترحيبًا ومكافأة من الملك لويس الثامن عشر، وفي العام نفسه تزوج من صديقة طفولته أديل

فوشيه؛ واستمر بعدها في كتابات متنوعة بين النثر، والشعر، والدراما، والمقالات السياسية، واشتهر ضمن من أطلقوا على أنفسهم "الكتّاب الرومانسيين"؛ وفي مارس عام ١٨٣١ نشر روايته "أحدب نوتردام"، التي أكد فيها موقفه المناهض لعقوبة الإعدام، وقد لاقت الرواية نجاحًا كبيرا على مستوى العالم، ومنحت هوجو مكانة مهمة في تاريخ الأدب الفرنسي، وتعد هي و"البؤساء" أشهر روايات الأدب الفرنسي، أما دواوينه فمنها: تأملات، أسطورة العصور، ومن مسرحياته ورواياته: مجنون كرومويل، من أوراق شجر الخريف، الملك يتسلى، الأصوات الداخلية، الأشعة والظلال، عمال البحر، أغانى الشعب والخشب، الرجل الذى يضحك والعام الرهيب، كذلك كان هوجو رساما متميزا لازالت لوحاته تعرض في المتاحف إلى اليوم.

وفي ديسمبر عام ١٨٥١، وبعد أن استولى لويس نابليون على السلطة في فرنسا ونصّب نفسه إمبراطورًا، شارك هوجو في حركة مناهضة له، ولكنها فشلت، فترك فرنسا مع عائلته وعاش في المنفى حتى عام ١٨٧٠؛ وأثناء إقامته في المنفى نشر أعمالًا أدبية كثيرة كان أشهرها "البؤساء"، والتي تتناول جوانب إنسانية بحتة تحدث فيها عن الحب، والحرب، والطفولة المفقودة، ليعود بعدها إلى فرنسا باعتباره أهم أدبائها.

وقد انتخب هوجو نائبًا عن العاصمة الفرنسية باريس في شهر فبراير من عام ١٨٧١، لكنه استقال في مارس بعد وفاة ابنه شارل، وأسس "جمعية الأدباء والفنانين العالمية" وأصبح رئيسًا فخريًا لها في عام ١٨٧٨، وفي الثاني والعشرين من مايو عام ١٨٨٥ توفي "هوجو" إثر مرض أصاب رئتيه، ودفن تحت قوس النصر، وتمّ تكريمُ ذكراه بوسائل عديدة، لعل من أبرزها وضع صورته على الفرنك الفرنسي.

هذه الرواية

رواية (العام الثالث والتسعون) هي آخر روايات "هوجو" وقد نشرها عام ١٨٩٣، أي بعد أن تم التسعون من العمر، وكان قد بدأ في كتابتها بعدما أتم السبعين، فهي خلاصة لخبراته في السياسة والأدب والحياة، وكان قد نشرها عام ١٨٧٤، بعنوان (ملائكة بين اللهب) وكان يتحدث فيها عن الأطفال خلال الثورة الفرنسية بين اللون (الأزرق) الذي كان يمثل الجمهوريين واللون (الأبيض) الذي كان يمثل الملكيين، يقود هذه الحرب عم ملكي نبيل وابن أخيه الجمهوري ذو أخلاق نبيلة، لكن تطورت الفكرة في ذهنه بعدما راجع موقفه من الثورة "الفاندية" وهي تعتبر بمثابة الثورة المضادة للثورة الفرنسية، وكانت أمه تميل للفانديين وشكلت رأيه، بينما أبيه كان يعقوبيا معارضا للفانديين، فلما راجع هوجو موقفه ومال لرأي أبيه واستقر عليه.. أعاد كتابة الرواية ومنحها أحداثا وشخصيات ورؤى أخرى، وإن بقي قوامها نفس الفكرة التي عالجها في "ملائكة بين اللهب"، وهكذا خرجت (العام الثالث والتسعون) وهي رواية تاريخية بطابع فكري عميق؛ تحدث فيها عن إشكاليات الثورة كموضوع واسع الجدال وكيفيه انتقل من مؤيد للحكم الملكي المتعصب إلى المنتقد الشديد لمفاسد النظام الملكي الفرنسي الفردي، كما إن "هوجو"سلط الضوء على قسوة النبلاء والفئات الميسورة في المجتمع الفرنسي قبل عام ١٧٣٩ والاتجاهات الحديثة نحو الديمقراطية والتحرير.

وهكذا استطاع هوجو أن يسخر مواهبه الإبداعية من الشعر والرسم والرواية والمسرح ليعبر فيها آرائه بسلاسة لتجد أعماله صداها عند المتلقي بما جسده في حرية التعبير عن قيم الحرية والأخلاق من أجل إنارة الطريق للحرية والسلام والأخلاق الفاضلة. وهو في كل إبداعه، يحاور الإنسان عبر بيئته

ونشأته واحتكاكه بالمجتمع والسلطة؛ هي التي أعطت لإنتاجه هذا الزخم لذلك استطاع تجسيد أفكاره كمفكر وليس كأديب؛ تحدث بصدق عن قضايا المجتمع من الحرية والعدالة والقيم الإنسانية، لذلك تدور كتاباته حول هذه المضامين الإنسانية الواقعية فيعطيها أبعادا فلسفية ترصد تصرفات الإنسان وأفكاره والعوامل المؤثرة على سلوكه وما تجعله يتصرف خارج المألوف، فيتحدث عن هذه الأبعاد بدقه لكي لا يبتعد الإنسان عن إنسانيته؛ لذلك حاول هوجو إعطاء تصوراته الأخلاقية لكي يحافظ على ملامح الإنسانية في كتاباته.

ونعود لرواية (العام الثالث والتسعون)، وفيها يستند هوجو إلى أحداث تاريخية مهمة وقعت في العام ١٧٩٣ ومع ذلك، فقد وضعت تحت انطباع مؤلف ما حدث في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الحرب الفرنسية البروسية وكاريونة باريس.. وهكذا، فبعد إبرام معاهدة سلام مع بروسيا، بدأت الاضطرابات، التي أسفرت عن ثورة وأدت إلى إقامة حكم ذاتي. استمر سبعة وسبعون يومًا.، ففكرة الرواية نشأت في ذهن الكاتب قبل عشر سنوات من هذه الأحداث. ربما كان ذلك بسبب الوضع الصعب الذي عاشته البلاد، تشكلت فكرة الرواية، التي لم تكن في المراحل الأولى لها واضحة المعالم، بعد الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها فرنسا خلال الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢.

وتجري الأحداث في نهاية مايو ١٧٩٣ حيث كانت كتيبة باريس، التي تجري عملية استطلاع في غابة سودري، جاهزة لأي مفاجآت. بعد كل شيء، اكتسبت هذه الأماكن مجدًا مأساويًا. المؤلف دعا غابة سودري أسوأ مكان في العالم، لأن هنا بالضبط قبل ستة أشهر من الأحداث الموصوفة في الرواية، وقعت أول فظائع الحرب الأهلية. وفيما يتعلق بالأحداث السياسية في باريسد

، فقتغير كل شيء. وهذا ما تصوره الرواية، وفيها يبين موقف هوجو تجاه الحركة الثورية. حيث يتعاطف مع الفئة المهزومة، لكنه في الوقت نفسه كان ينتقد أساليب كفاحهم. وشكل هذا الموقف المتناقض للحركة الثورية الموقف من الأحداث التي انعكست في الرواية ومع ذلك، فهي تحتفي بتضحياتهم.

ماجد عبد الرحمن

الجزء الأول

في البحر

القسم الأول

في غابة سودراي

في عام ١٧٩٣ كان الصراع على أشده جيوش الجمهورية والملكية في فرنسا وكان سيل المتطوعين من أنصار الجمهورية يتدفق تباعا من باريس إلى مقاطعتي (بريتاني) و (فنديه) حيث رابطت القوات الملكية. وصدرت أوامر (مجلس الأمة) في باريس إلى المتطوعين أن يقتلوا أعداءهم وأن يبيدوهم عن آخرهم بلا أدنى رحمة. على أنه ما كاد ينتهي شهر مايو من هذا العام حتى خسر الجمهوريون من متطوعي باريس وحدها ثمانية آلاف مقاتل.. وفي أواخر مايو المذكور طوحت الحرب بفرقة من الجند إلى غابة "سودراي " في مقاطعة (بريتاني) وأصبح عدد جنود هذه الفرقة لا يتجاوز الثلاثمائة بعد أن ألتهمت المعارك المريرة معظمهم..

كانت غابة سودراي كثيفة ذات أشجار فارغة وأغصان متشابكة لا تكاد تنفذ منها أشعة الشمس. ولم تكن بها طرق معبدة ولا مسالك معروفة. وقد اشتهرت بالمعارك الطاحنة التي نشبت في أرجائها بين أبناء الوطن الواحد، ولذلك كان جنود الفرقة المشار إليها يتقدمون في ظلامها في تمام الحذر واليقظة، وهم يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يقعوا في كمين أعده لهم أعداؤهم.. تقدم جنود الاستطلاع بقيادة جاويش وساروا في المقدمة يستكشفون الطريق. ورافقتهم امرأة معروفة باسم (الزميلة) وفيما كان الجنود يتقدمون، وقفوا فجأة منتفضين فقد سمعوا صوتا خافتا صادرا من بين الأشجار، ورأوا بعض الأغصان تتحرك حركة يسيرة لا تكاد ترى. وما هي إلا دقيقة حتى أحاطوا بتلك البقعة، وصوبوا بنادقهم إليها، ووضعوا

أصابعهم على الزناد منتظرين إشارة من الجاويش بإطلاق النار..على أن هذا الاستعداد لم يمنع (الزميلة) من دس رأسها في فرجة بين الأغصان، وقبل أن يصدر الجاويش أمره صاحت المرأة: –قف، ثم التفتت إلى الجنود قائلة:– لا تطلقوا النار.

تغلغلت المرأة بين الأغصان يتبعها الجنود، فوصلت بعد قليل إلى بقعة بين الأشجار تشبه الكهف، ورأى الجميع امرأة جالسة على الأرض المكسوة بالعشب ترضع طفلا، وقد رقد فوق ركبتيها طفلان آخران.

هتفت (الزميلة): ماذا تفعلين هنا؟.

رفعت المرأة رأسها، فاستطردت (الزميلة) بخشونة:

– هل جننت حتى تأتي إلى هنا؟ لو مضت لحظة أخرى لكنت الآن ممزقة الجسد.

راحت المرأة تتطلع في حيرة وجزع واضطراب إلى البنادق المصوبة والحراب المشهرة التي تحيط بها من كل جانب وكأنها في كابوس مريع ثم استيقظ الطفلان وبكيا، قال الأول أنه جائع والثاني أنه خائف أما الرضيع فكان منهمكا في امتصاص ثديها.. وهتف الجاويش حينما رآها عاجزة عن النطق لفرط ارتياعها:

– لا تخافي، نحن جنود الفرقة الحمراء، من أنت؟

كانت المرأة صغيرة السن نحيلة الجسم شاحبة اللون، يكسوها رداء من الصوف ينتهي بغطاء فضفاض على رأسها، وكانت عارية الصدر حافية القدمين، ينزف الدم منهما.. قال الجاويش حينما رأى حالتها وسكوتها: – هي متسولة..

وقالت (الزميلة) في شئ من الرقة: –ما اسمك؟

غمغمت المرأة آخر الأمر وأجابت متلعثمة: –ميشيل فليشار..

ربتت (الزميلة) على رأس الطفل الرضيع بيدها الكبيرة وقالت:

–كم عمر هذا الطفل؟

– سنة ونصف

قالت (الزميلة): هو كبير.. يجب ألا يرضع بعد الآن. يجب فطامه سنعطيه حساء..

دب الاطمئنان في نفس المرأة، وذهب الخوف عن نفس الطفلين وجعلا ينظران إلى الجنود بفضول..

فقالت الأم: هما جائعان.. لم يعد عندي لبن.

فهتف الجاويش: سنعطيكم طعاما.. لكن ليس هذا كل شئ – ما هو رأيك السياسي؟

نظرت إليه المرأة دون أن تجيب، فقال لها:

– هل سمعت سؤالي؟

أجابت المرأة في تلعثم: أدخلت الدير في صغري. لكني متزوجة ولست راهبة.. وقد علمتني الراهبات كيف أتكلم الفرنسية.. ثم أشعلت النار في القرية.. فهربنا بكل سرعة حتى لم أجد وقتا للبس حذائي.

– إني أسألك عن رأيك السياسي؟

– لا أفهم معنى هذا الكلام.

استطرد الجاويش: يوجد جاسوسات بين النساء.. ونحن نحكم عليهن بالموت. تكلمي !.ما هو الحزب الذي تنتمين إليه؟

كانت المرأة تنظر إليه وكأنها لا تفهم ما يقول. ولما كرر سؤاله أجابت:

– لا أعرف..

–كيف ذلك؟ ألا تعرفين وطنك؟

– آه.. وطني. نعم.. اعرفه.

– حسنا.. أين هو؟

فأجابت المرأة: مزرعة (سيسوانيار)، في جهة (بازي).

ظهرت على وجه الجاويش دلائل الحيرة.. وفكر قليلا ثم قال:

– لكن ليس هذا هو الوطن المعروف.

فأجابت المرأة: هو وطني.

ثم استطردت بعد تفكير: فهمت يا سيدي.. أنتم من فرنسا.. أما أنا فمن (بريتاني) وهما جهتان مختلفتان. فهتف الجاويش: لكنهما في وطن واحد.

فأجابت المرأة: أنا من (سيسوانيار).

فقال الجاويش: ليكن. وهل تنتمي عائلتك إلى تلك الجهة؟

– نعم..

– وما هي مهنتها؟.

– مات أهلي كلهم. ليس لي أهل في الدنيا.

– لكن لك أقارب.. أو كان لك أقارب. من أنت؟ تكلمي..

ظهرت على وجه المرأة دلائل الحيرة والاضطراب وهي تصغي إلى استجواب الجاويش.. ورأت (الزميلة) ضرورة التدخل..فأخذت تربت بيدها على رءوس الأطفال الثلاثة وقالت:– ما اسم الرضيع؟ هي بنت.

فأجابت الأم: اسمها جورجيت..

والولد الأكبر؟.

- رينيه جان..

- والأصغر؟..

- آلين.

فقالت الزميلة: هم جميعا ظرفاء. يكاد الإنسان يحسبهم من ذوي الجاه.

تابع الجاويش استجوابه باصرار، فقال:

- تكلمي يا مدام !. هل لك بيت؟

-كان لي بيت

- أين؟

- في (بازي).

- ولم لا تقيمين في بيتك؟.

- لأنهم أحرقوه.

- من هم؟

- لا أعرف.. كانت معركة..

- ومن أين جئت؟

- من بيتي

- وإلى أين تذهبين؟

- لا أعرف..

– تكلمي في الموضوع.. من أنت؟

– لا أعرف

– ألا تعرفين من أنت؟

– نحن هاربون..

– إلى أي جزب تنتمين؟ لا أعرف..

– هل أنت من الزرق (الجمهوريين)؟ هل أنت من البيض (الملكيين)؟ مع من أنت؟

– أنا مع أطفالي..

ساد السكون قليلا.. ثم استأنف الجاويش أسئلته:

– تكلمي عن أبويك قولي معلوماتك عنهما، أنا أدعى الجاويش رادوب من شارع (كنيسة ميدي) في باريس وقد ولد أبي وأمي في تلك الجهة من السهل أن أتكلم عن أبوي تكلمي عن أبويك؟ من هما؟..

– اسمهما فليشار.. هذا كل شئ..

– لكن لكل إنسان مهنة.. ما هي المهنة التي كان يحترفها أبواك؟

– كانا من العمال وكان أبي عاجزا عن العمل، مقعدا بسبب الضرب الذي ناله بأمر سيده سيدنا جميعا (حاكم الإقطاع) لأن أبي سرق أرنبا من الغابة وهي جريمة عقابها الموت لكن السيد أشفق على أبي، وأمر بضربه مائة جلدة وبات أبي مقعدا، وكان جدي يعتنق مذهب (الهوجينوت).. فأمر القس بإرساله إلى المشنقة.. كنت طفلة في ذلك العهد، وكان والد زوجي يهرب الملح فأمروا بشنقه.

– وماذا كان يعمل زوجك؟

–كان يقاتل أخيرا..

– لمن؟

– لأجل الملك..

– وبعد ذلك؟

– لأجل السيد..

– وبعد

– لأجل القس..

جلست الزميلة إلى جانب المرأة وجذبت الطفل الأكبر إلى حجرها فاستسلم لها، وقالت:

– اسمعي أيتها المرأة الطيبة.. إن أطفالك لطفاء.. كل الأطفال كذلك في الحقيقة.. بإمكاني أن أخمن عمر كل منهما.. عمر الأكبر أربع سنوات.. والثاني ثلاث.. والآن.. لا تخافي.. من الواجب أن تنضمي إلى الفرقة.. مثلي.. إن اسمي أوزارد.. ووظيفتي هنا تقديم الشراب للجنود أثناء القتال.. إن قدميك تشبهان قدمي.. سأعطيك زوجا من أحذيتي.. تعالي معنا.. إن الجنود أناس طيبون.. ستكونين (زميلة) الفرقة الثانية.. سأعلمك كيف تقومين بعملك.. وهو سهل جدا.. ستحملين إناء الشراب في يد وناقوسا في اليد الثانية وتشقين صفوف الجنود بين صوت المدافع ودوي الرصاص، وتنادين: "من يريد أن يشرب يا أولادي؟" هذا هو كل عملك.. تعالي معنا.. وإذا قتلت تحلين محلي.. لا تخافي.

لم تجب المرأة.. فاستأنف الجاويش أسئلته:

– وزوجك ماذا يعمل؟ وماذا جرى له؟

– قتلوه..

– أين؟

– في الغابة..

– متى؟

– منذ ثلاثة أيام..

– ومن قتله؟

– لا أعرف..

– هل قتله أحد الزرق، هل قتله أحد البيض؟

– قتلته رصاصة.

– منذ ثلاثة أيام؟

ـ نعم..

– في أي جهة؟

– قرب (ارنيه) سقط زوجي قتيلا.. هذا كل ما أعرفه

– وماذا كنت تفعلين بعد قتل زوجك؟

–كنت أهرب مع أطفالي.

– إلى أين تذهبين بهم؟

– إني أسير دائما إلى الأمام.

– وأين تنامون؟

– على الأرض.

– وماذا تأكلون؟

– لا شئ

– لا شئ؟

– أعني بعض الكراز الجاف الباقي من السنة الماضية.. وبعض البذور المتساقطة..

قال الطفل الأكبر: أنا جائع.

تناول الجاويش قطعة من الخبز من جيبه وناولها إلى الأم. فشطرتها نصفين وأعطت كل طفل قطعة.. فجعلا يأكلان بشراهة.

غمغم الجاويش: لم تحتفظ لنفسها بشئ..

فقال أحد الجنود: لأنها ليست جائعة..

فقال الجاويش: بل لأنها أم..

هتف أحد الطفلين: أريد أن أشرب.

وردد الثاني كلامه.. فقال الجاويش:

–ألا يوجد غدير في هذه الغابة الجهنمية؟

تناولت (الزميلة) كوبا نحاسيا معلقا إلى وسطها وصبت فيه بضع قطرات من إناء الشراب الذي تحمله فوق كتفها، وأدنته من فم الطفلين واحدا بعد الآخر.

شرب الأول وعبس.. أما الثاني فبصق الشراب.. فقالت الزميلة:

– هو شراب طيب برغم ذلك.

واستأنف الجاويش أسئلته:– وأنت الآن تحاولين الهرب؟

– لا يوجد أمامي غير ذلك.

– تهربين في الحقول؟ في أية جهة تصادفك؟.

– إني أجري بكل قوتي.. ثم أسير.. ثم أسقط على الأرض.

فقالت الزميلة: مسكينة !

واستطردت المرأة: الناس يتقاتلون.. هم يتبادلون الرصاص في كل مكان حولي.. لا أعرف ماذا يريدون؟ هم قتلوا زوجي.. وهذا كل ما فهمته.

لطم الجاويش الأرض بقاعدة بندقيته، وهتف:

– يا لها من حرب وحشية !

وقالت المرأة: في الليلة الماضية نمنا في (تجويف)

– أنتم الأربعة؟

ــ نعم..

فقال الجاويش: –إذن نمتم واقفين.

ثم التفت إلى الجنود واستطرد: أيها الرفاق.. إن ما يسميه هؤلاء الفلاحون (بالتجويف) هو جذع شجرة قديم مجوف يندس الإنسان في داخله.. للحياة أحكامها، ولا يمكن أن يكون كل الناس من أهل باريس.. ولا شك أن الصغار بكوا وهم في داخل الشجرة. وكم يكون عجب الإنسان حينما يمر بجانبها ولا يرى شيئا، ثم يسمع الشجرة تهتف:

– بابا.. ماما !

قالت المرأة وهي تتنهد: من حسن الحظ أننا في الصيف.

ثم نظرت إلى الأرض في صمت، وقد نمت عيناها عن أبلغ آيات التعاسة

والشقاء، والتف الجنود حولها، وكانوا يهيمون على وجوههم حيارى مشدوهين في محيط حافل بالمعارك والملاحم، جائعين، ظامئين، ليس لهم طعام إلا الحشائش والبذور ولا سقف يأويهم سوى أديم السماء.

دنا الجاويش من المرأة وانحنى فوق الطفلة الرضيعة وجعل يتفرس فيها. فتخلت الطفلة عن ثدي أمها وحولت رأسها بوداعة إلى الوجه الضخم المطل عليها بشعره الكثيف الشائك، وتطلعت إليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين، ثم انفرجت شفتاها الصغيرتان عن ابتسامة ملائكية، اعتدل الجاويش فرأى الجميع دمعة كبيرة الحجم تنحدر فوق وجنته وتستقر على شاربه ورفع الجاويش صوته قائلا:

– أيها الرفاق ستكون الفرقة أبا هل أنتم موافقون؟ سنتبنى هؤلاء الأطفال الثلاثة.

فصاح الجنود: تحيا الجمهورية !

فقال الجاويش وهو يضع يديه على الأم وعلى أطفالها:

– اتفقنا إذن. هؤلاء هم أبناء الفرقة الحمراء، أبناء الثورة.

وثبت (الزميلة) فرحا ثم انهمرت دموعها، وعانقت الأم بحرارة وانفعال، وردد الجنود هتافاتهم للجمهورية، بينما قال الجاويش للأم:

– تعالي معنا أيتها المواطنة.

القسم الثاني

السفينة الحربية (كليمور)

الفصل الأول

في أصيل أول أيام شهر يونيو سنة ١٧٩٣ قبيل الغروب بساعة، أقلعت سفينة من جزيرة جرسى في بحر المانش واختفت في طيات الضباب، كانت السفينة (كليمور) ذات مظهر خادع فهي سفينة تجارية في الظاهر لكنها حربية في الواقع، فقد كانت تحمل فوق سطحها السفلى بطارية من المدافع الثقيلة مكونة من ثلاثين مدفعا مع أن القاعدة في السفن الحربية وضع المدافع فوق السطح العلوي، وفي هذا ما يدل على سرية المهمة المعهودة إلى السفينة (كليمور).

كانت هذه السفينة تابعة للأسطول الإنجليزي، غير أن ضباطها وبحارتها كانوا جميعا من الفرنسيين الهاربين من وجه الثورة الفرنسية، ومن الملكيين المخلصين. وهي قطعة من أسطول جرسي الإنجليزي، المعقود لواؤه للأمير الفرنسي دوفرن، وبأمر هذا الأمير انفصلت (كليمور) عن الاسطول وذهبت في مهمتها السرية، وقبطانها هو الكونت دي برتوليه، وهو من أكفأ الضباط في البحرية الفرنسية الملكية القديمة وضابطها الثاني هو الشيفالييه فيوفيل، وهو من أبسل الضباط، وقائد الدفة هو فيليب جاكوي، وهو من أبرع رجال الملاحة.

حملت السفينة قبل إقلاعها رجلا طويل القامة متقدم السن أشيب الشعر، قوي البنية، تلوح على وجهه دلائل القسوة والصرامة، وتنم هيئته عن العزم الراسخ والبأس الشديد. وكان يرتدي تحت عباءته سترة من جلد الماعز موشاة بالحرير من أحد وجهيها بينما بقي وجهها الآخر خشنا يعلوه الشعر. وكان ينتعل حذاء طويلا.. ومجمل هندامه، يدل على أنه من فلاحي شمال فرنسا..ولما صعد إلى سطح السفينة رافقه اللورد بالكاراس حاكم الجزيرة والأمير دوفرن، وجيلامبر مندوب

الأمراء الفرنسيين وقال له اللورد وهو يصافحه: " أتمنى لك التوفيق أيها القائد ".. وقال له الأمير: " إلى اللقاء يا ابن العم ".. وحياه جيلامبر باحترام..

كان رجال السفينة يطلقون على هذا الراكب اسم (الفلاح).. ومع أنهم كانوا يجهلون كل شئ عنه، إلا أنهم كانوا موقنين بأنه بعيد كل البعد عن هذه الصفة التي أطلقت عليه..وبعد ساعة من إقلاع السفينة ذهب جيلامبر إلى بيته وبعث بالرسالة التالية إلى أحد الأمراء الفرنسيين في قصر الدوق يوركشير:

" سيدي تم الرحيل.. النجاح محقق. في ظرف ثمانية أيام سيكون ساحل فرنسا الشمالي الغربي من جرانفيل إلى سان مالو نارا مشتعلة "

وقبل ذلك بأربعة أيام، تلقى ممثل الجمهورية الفرنسية في جرانفيل الرسالة التالية، محررة بنفس الخط الذي كتبت به الرسالة السابقة:

" أيها المواطن – في غروب اليوم الأول من شهر يونيو ستقلع السفينة الحربية (كليمور) ومعها مدفعية مخبأة، بقصد انزال رجل على الساحل الفرنسي، هذه هي أوصافه.. طويل القامة، أبيض الشعر كبير السن، يرتدي ملابس الفلاحين، له أيدي النبلاء.. سأبعث إليك غدا بتفصيلات أوفى.. وسينزل هذا الرجل إلى البر في صباح اليوم التالي.. أخطر الطرادات.. استولوا على السفينة.. إعدموا الرجل بالمقصلة "

الفصل الثاني

غربت الشمس وساد الظلام وأخذت السفينة (كليمور) تشق طريقها بين الأمواج تحت سماء تغطيها السحب، قاصدة إلى شاطئ سان مالو، ومع أن الطريق الذي اختاره قائد الدفة فيليب جاكوي كان طويلا إلا أنه غير مطروق من الطرادات الفرنسية، وكان جاكوي يأمل أن يصل إلى الساحل الفرنسي عند الفجر إذا استمر اعتدال الرياح، وسار كل شئ على ما يرام، وقطعت السفينة مرحلة طيبة، وحوالي الساعة التاسعة اضطرب الطقس، وتعالت الرياح والأمواج، غير أنها كانت محتملة، لا خطر منها..

كان (الفلاح) يسير ذهابا وإيابا فوق سطح السفينة بخطوات ثابتة متزنة رغم اهتزاز السفينة العنيف. ولم يكن يكلم أحدا، غير أنه كان يلقي إلى القبطان بين حين وآخر بضع كلمات سريعة موجزة، فيصغي إليه القبطان باحترام كأنما هو قائد السفينة الفعلي.. وحوالي الساعة العاشرة جاء الكونت دي برتوليه القبطان والشيفالييه فيوفيل الضابط وشيعا (الفلاح) إلى غرفته الخاصة، وهي في الواقع غرفة القبطان.

وقال (الفلاح):

– تعلمون أيها السادة أهمية التكتم. لا أريد كلمة واحدة حتى ساعة الإنفجار.

أنتما وحدكما بين الموجودين هنا تعرفان اسمي.

فأجاب برتوليه: سنحمله معنا إلى القبر.

فاستطرد (الفلاح): أما أنا فلن أبوح بهذا الإسم حتى لو واجهت الموت.

ثم أغلق باب الغرفة، وعاد القبطان والضابط إلى سطح السفينة وأخذا يسيران جيئة وذهابا ويتبادلان الحديث. فقال برتوليه في صوت خافت:

– سنرى إذا كان ضيفنا قائدا حقا.

فأجاب فيوفيل: هو معدود في الوقت الحالي في مصاف الأمراء.. وإذا كانت رتبته الحقيقية هي رتبة الماركيز، فهو أمير في مقاطعة (بريتاني)..

فقال برتوليه: لقد وقع الاختيار على أمير من الأقاليم لعدم وجود أمير من الأسرة المالكة.

فقال فيوفيل: بل وقع الاختيار على غراب لعدم وجود نسر..نحن أحوج ما نكون من المرحلة الحاضرة إلى رأس كبير. إني أعرف جميع قوادنا.. ليس بينهم من يحمل الرأس المنشود. إن ساحات القتال في (فنديه) في حاجة إلى بطش القائد الصارم وبراعة المحامي المحنك.. يوجد الآن أبطال في صفوف أولئك الفلاحين البواسل ولكن يندر بينهم القادة المدبرون.. استعرض أولئك القادة واحدا واحدا. فلن ترى بينهم من هو جدير بالقيام بمهمته.. ومن المضحك أن نرى بين قواد جيوشنا من كان حلاقا مثل جاستون.. ما الفائدة من مقاومة الثورة وما الفرق بين الجمهوريين وبيننا معشر الملكيين، إذا جعلنا على رءوس النبلاء قوادا من الحلاقين؟!

– إن عدوى الثورة وصلت إلينا أيضا.. ولن يشفينا من هذا المرض غير انجلترا.

– ثق أنها ستشفينا أيها القبطان.

– وحتى يتم هذا فنحن في موقف بشع.

– نعم. مفارقات تضحك في كل مكان. إن الملكية وعلى رأس جيوشها مثل (ستوفليه) ليس لها أن تفاخر الجمهورية التي يرتقي فيها مثل (باش) ابن البواب إلى

مرتبة الوزارة! ثم انظر إلى حروب (فنديه) وما فيها من المتناقضات!. فمن قواد الجمهوريين سانتير صانع الجعة ومن قوادنا جاستون الحلاق !.

– يا عزيزي فيوفيل. إني أكن احتراما خاصا لجاستون.. فهو أبدى براعة مدهشة في موقعة (جيمنيه) فقد أعدم ثلثمائة من الزرق بعد أن جعلهم يحفرون قبورهم بأيديهم.

– هذا بديع.. لكن كان بوسعي أن أفعل مثل ما فعل

– لا ريب في ذلك. وكان هذا بوسعي أيضا.

ثم استأنف فيوفيل حديثه قائلا:

– إن الحروب العظيمة يجب أن تدار بأيدي النبلاء. هي شئون يتولاها الفرسان لا الحلاقون.

فأجاب برتوليه:

– ومع ذلك يوجد بين هؤلاء الذين تنتقدهم أناس جديرون بالتقدير.. انظر مثلا إلى (جولي) صانع الأقفال الذي كان جاويشا في فرقة (الفلاندر). فقد جعل نفسه قائدا لأحد جيوش (فنديه) الملكية. وكان له ابن يخدم في صفوف الجمهوريين. ولما التحم الجيشان أسر الأب ابنه، ولم يتردد في إعدامه رميا بالرصاص.

فقال فيوفيل:

– هذا مثل صالح.. لكن هذا لا يبرر أن نجعل على رأس جيوشنا قوادا من عامة الشعب.

– إن هذا التناقض موجود في صفوف الجمهوريين يا عزيزي فيوفيل عندنا نحن

الملكيين قواد من العامة وعندهم زعماء من الأشراف والنبلاء. على أن الموقف يدعو إلى التفاؤل. فسنكون في باريس بعد شهر على الأكثر.

– أنا معك يا سيدي القبطان. إن الموقف لا يدعو إلى اليأس.

– إن كل شئ يسير على ما يرام إذا أديرت دفة الحرب ببراعة في ساحات (بريتاني)..

فقال فيوفيل: – وهل سننزل الجنود البحارة الذين معنا إلى البر؟

– نعم.. إذا وجدنا الساحل مواليا لنا.. إن الحرب لا تقتحم الأبواب دائما، وإنما تتسلل أحيانا.. فما بالك بالحروب الأهلية ! سنبذل كل ما في طوقنا. لكن كل شئ يتوقف على القائد.

فقال فيوفيل:

–نحن في حاجة إلى أمير يجري في عروقه الدم الملكي للتأثير في نفوس الفلاحين وإثارة حماستهم.

– وما العمل إذا كان الأمير المطلوب غير موجود؟.

وضع برتوليه يده على جبهته كمن يفكر ثم استطرد:

– حسنا.. لنجرب القائد الموجود معنا !

– هو من كبار النبلاء.

– هل تعتقد أنه سيحقق الآمال؟

– بشرط أن يكون شرسا

تفرس القبطان والضابط أحدهما في وجه الآخر، ثم قال الأخير:

– أصبت يا سيدي نريد رجلا شرسا فهذه حرب قاسية لا رحمة فيها، النصر

فيها لمن يريق الدماء بلا حساب. إن الجمهوريين قطعوا رأس الملك لويس السادس عشر. فعلينا أن نقطع أوصالهم وتمزق أجسامهم شر ممزق نعم. القائد المنشود هو القائد الصارم الباطش. في ساحات (انجو) لا يتقدم الجيش تقدما مذكورا، لأن قوادنا يتسامحون. أما في ميادين (رينز) و (ماريه) حيث القواد قساة غلاظ فالتقدم ظاهر ملحوظ. وقبل أن يجيب برتوليه تعالت فجأة صرخة داوية، وفي نفس اللحظة سمع الاثنان ضجة مروعة غامضة. وقد صدرت هذه الأصوات جميعا من جوف السفينة هرع القبطان والضابط إلى سطح السفينة السفلى حيث توجد بطارية المدافع، لكنهما عجزا عن النزول. فقد كان جنود المدفعية يندفعون صاعدين إلى السطح العلوي كالمجانين.

الفصل الثالث

انفلت مدفع ضخم من مدافع البطارية في سطح السفينة السفلى، يزن عشرة آلاف من الأرطال، وانطلق يدوس ويحطم كالوحش الهائج. وربما كانت هذه الكارثة هي أسوأ وأبشع ما يصيب سفينة في عرض البحر، وتحت رحمة الرياح. فإن هذه الكتلة الجمادية الهائلة تدور على عجلاتها الأربع بسرعة الكرة، وتندفع في جميع الاتجاهات اندفاع الوحش الأعمى، تقتل وتدوس وتحطم. إن لها ثقل الفيل وخفة الفأر، وحدة الفأس، واندفاع الموج، وسرعة البرق واطباق القبر. هي بلاء ذريع ينقض ويفتك ولا يبقى على شئ ولا يصده شئ ومما يزيد في هول هذه الكتلة المروعة أنها تدور فوق سطح فسيح أملس، وتستمد حركاتها من حركات السفينة التي تحركها الأمواج، الخاضعة لسيطرة الرياح.

أخطأ ضابط المدفعية حين أهمل تثبيت سلاسل المدفع في مكانها بالمسامير الغليظة ولما ارتطمت السفينة بموجة عالية انفلت المدفع من مكانه، وانطلق حرا، وكان في سرعة حركاته كقطرة من الماء تتحرك فوق سطح زجاجي، وفي اللحظة التي أفلت فيها المدفع كان بعض جنود البطارية واقفين يباشرون بعض أعمالهم، فلما تحرك المدفع الجهنمي بحركة السفينة الأولى دهم هؤلاء المساكين وسحق أربعة منهم بضربة واحدة، ثم تراجع إلى الخلف وانقض على رجل خامس شطره نصفين، وعند ذلك ارتفعت تلك الصرخة الداوية التي سمعها القبطان والضابط، وسرعان ما اندفع الرجال كالمجانين إلى السلم، وأخلى السطح السفلى ثوان معدودات، وتملك المدفع ناصية الميدان، وناصية السفينة. ووقف القبطان برتوليه والضابط فيوفيل على رأس السلم ينظران إلى السطح السفلى مشدوهين حائرين، وبعد قليل أحسا

برجل يزيحهما من الطريق بكتفه ويهبط السلم. كان هذا الرجل هو ضيف السفينة.. (الفلاح).. الذي كان مدار حديثهما منذ قليل، ولما وصل إلى نهاية السلم وقف جامدا في مكانه.

الفصل الرابع

في هذا الوقت كان المدفع المخيف قد أتلف خمسة من مدافع البطارية بضرباته القوية، وأحدث ثغرتين في جدار السفينة، ولكن من حسن الحظ أنهما فوق سطح المياه ومزقت عجلاته جثث الضحايا شر تمزيق وبعثرت أشلاءهم في كل مكان، وتضرجت كافة نواحي السطح بدمائهم فغدا المشهد رهيبا والموقف هائلا يلقيان الرعب في النفوس، وأصدر القبطان الأوامر لرجاله، فأخذوا يقذفون فوق السطح كل ما وجدوه من المراتب والوسائد والأكياس والحبال، وكذلك شحنة كبيرة من الأوراق المالية الزائفة التي أعدتها انجلترا خصيصا لترويجها في فرنسا واعتبرتها وسيلة مشروعة من وسائل الحرب.

ألقيت هذه الأشياء جميعا فوق سطح السفينة السفلى بقصد إيقاف حركة المدفع وشل اندفاعه الجنوني، لكنها القيت اعتباطا، ولم يجرؤ أحد على النزول إلى السطح لتنظيم وضعها بشكل مثمر، وسرعان ما فرقها المدفع الجبار ونثرها في كل مكان.. كل هذا والمدفع مستمر في عملية الإتلاف والتدمير. فاتسعت الثغرات التي أحدثها، وتصدعت الساريات، وأتلفت عشرة مدافع، وأخذ الماء يتسرب إلى السفينة. ولو استمر الحال كذلك فإن غرق السفينة أمر محقق فكيف الخلاص من هذا الهلاك؟

في هذه اللحظة وثب إلى المسرح رجل يحمل في إحدى يديه قضيبا من الحديد، وفي اليد الأخرى حبلا ينتهي بانشوطة.. كان هذا الرجل هو مسبب الكارثة. أي ضابط المدفعية الذي ترتب على إهماله انفلات المدفع من مكانه. وقد أراد أن يتلافى هذه النكبة بعد أن أحدثها. ثم ابتدأ الصراع الرهيب بين الإنسان والجماد.

كتم الجميع أنفاسهم جزعا. ولم يكن بينهم من سيطر على أعصابه واحتفظ بهدوئه

سوى ذلك (الفلاح) الواقف عند أسفل السلم، معرضا مثل ضابط المدفعية للهلاك.

وقف الضابط مادا يديه بالقضيب وبالحبل، منتظرا دنو المدفع من مكانه.. وسرعان ما انقض المدفع عليه كالصاعقة. غير أن الضابط راغ منه بخفة القط، وتكررت هذه الحركات.

وإذا كان الضابط لم يسحق تحت عجلات المدفع، وكان في كل مرة ينجو منه، فإن السفينة كانت تدفع ثمن هذه الحركات.

وفيما كان الضابط واقفا عند نهاية السلم، قرب الرجل الكهل الذي كان جامدا في مكانه يراقب ما يجري اندفع المدفع بحركة فجائية وأطبق على الضابط كالقضاء العاجل. فصرخ البحارة، إذا انحصر الضابط في فراغ محدود. لكن الكهل وثب وثبة عجيبة، وتناول أحد أكياس الأوراق المالية الزائفة بسرعة البرق، ودسه بين عجلات المدفع مستهدفا بهذه الحركة للموت. غير أنها كانت حركة بارعة موفقة.. فقد تعثر المدفع في دورانه. إن حصاة صغيرة قد توقف اندفاع كتلة ضخمة من الخشب. وسرعان ما انتهز الضابط هذه الفرصة، ودس القضيب بين قضبان إحدى العجلات الخلفية. فوقف المدفع.. وترنح.. وأخذ الضابط يحرك القضيب حركات قوية متوالية كما يفعل الإنسان بآلة رافعة.. وما هي إلا لحظات حتى انقلب الدفع في دوى شديد.. فألقى الضابط نفسه فوقه وطوق فوهته بالأنشوطة.

تمت المعجزة.. وتغلبت النملة على الفيل.. وصفق البحارة حماسة وإعجابا.. وسرعان ما هبطوا جميعا إلى السطح ومعهم السلاسل والحبال وشدوا وثاق المدفع الجبار.

حيا ضابط المدفعية الرجل الكهل، وقال له: لقد أنقذت حياتي.

لكن الكهل عاد إلى سابق جموده، ولم يجب.

الفصل الخامس

أحرز المدفع نصرا آخر فقد حدثت خمس ثغرات في جوانب السفينة، إحداها في المقدمة وأتلفت ضربات المدفع الجبار عشرين مدفعا وبقي من البطارية عشرة مدافع فقط صالحة للإستعمال ثم تبين أن المدفع نفسه أصيب بالعطب وهكذا كان الباقي تسعة مدافع سليمة، كان سطح السفينة السفلى مختلطا كأنه قفص فيل هائج وأسرع البحارة لنزح المياه التي أخذت تتسرب إلى داخل السفينة، وإعادة المدافع السليمة إلى مكانها وإزالة آثار هذه المعركة المروعة ومع أن السفينة كانت في حاجة ماسة إلى إطفاء أنوارها حتى تختفي في الظلام عن أعين الطرادات، إلا أن البحارة اضطروا إلى وضع مصابيح في أماكن متعدده حتى يتسنى لهم أداء الأعمال المشار إليها وفي الوقت الذي دار الصراع على أشده للتغلب على المدفع، أكفهر وجه السماء واشتدت الرياح وتلاطمت الأمواج وتكاثف الضباب، وحملت الريح السفينة بعيدا عن طريقها المرسوم. وراحت تتخبط في الظلام..

ترك الراكب الكهل مكان الموقعة وصعد إلى السطح العلوي ووقف مسندا ظهره إلى السارية الرئيسية. ولم يلتفت إلى الضابط فيوفيل الذي جمع الجنود البحارة في صفين متقابلين حول السارية.. ثم ارتفع صفير حاد فشخصت الأنظار إلى ما يجري. وتقدم القبطان إلى الكهل، يتبعه ضابط المدفعية شاحب الوجه مشوش الملابس، وحياه التحية العسكرية قائلا:

– أيها القائد. جئت إليك بهذا الرجل.

وقف ضابط المدفعية وقفة عسكرية، مرخيا عينيه. واستطرد القبطان:

– أيها القائد. ألا ترى أنه نظرا إلى ما فعله هذا الرجل، يجدر برؤسائه أن يفعلوا

شيئا من ناحيتهم؟

فقال الكهل. نعم.

فأجاب القبطان. تفضل إذن بإصدار الأوامر.

– أنت الذي تصدر الأوامر.. أنت القبطان.

فأجاب برتوليه: لكنك القائد.

فنظر الكهل إلى ضابط المدفعية وقال له: تعال

تقدم الضابط خطوة فالتفت الكهل إلى القبطان ونزع من صدره وسام القديس لويس، وشبكه فوق صدر الضابط وهتف البحارة في نفس واحد. ورفع الجنود بنادقهم في تحية عسكرية. ثم أومأ الكهل إلى ضابط المدفعية المضطرب، وقال:

– والآن فليعدم هذا الرجل بالرصاص،

خيم سكون كسكون الموت، وعلت الوجوه حيرة بالغة. وفي هذا الجو رفع الكهل صوته وقال:

– وقع اهمال فعرضت السفينة بسببه للخطر. وربما كانت هالكة لا محالة في هذا الوقت. إن ركوب البحر كمواجهة العدو. إن السفينة في عرض البحر كالجيش يشتبك في معركة. وقد تختفي العاصفة، لكنها لا تغيب أن البحر كمين يحمل الموت في طياته والموت هو العقوبة التي تجازي بها كل غلطة ترتكب عند مواجهة العدو. والغلطة الواحدة لا دواء لها. والواجب أن نكافئ الشجاع لشجاعته، وأن نعاقب المهمل جزاء إهماله ثم التفت إلى الجنود واستطرد: قوموا بواجبكم.

أعطى القبطان إشارة خاصة فنزل اثنان من البحارة إلى داخل السفينة، وعادا بعد قليل يحملان كيسا، ويتبعهما قسيس السفينة، ثم تقدم جاويش وأصدر أمرا

فانفصل من صفوف الجند اثنا عشر رجلا، فأوقفهم صفين. تقدم ضابط المدفعية دون أن ينبس بكلمة بين هذين الصفين، ثم انضم إليه القس حاملا صليبه في يده.. وأصدر الجاويش أمره بالسير فتقدم هذا الموكب بخطوات بطيئة إلى مقدمة السفينة، يتبعه البحاران حاملين الكفن وخيم على السفينة سكون رهيب.. ولعلع هدير العاصفة من بعيد.

أضاء شهاب بارق بعد دقائق. وتجاوب صوت الرصاص في مقدمة السفينة.. وساد السكون.. ثم سمع صوت سقوط جسم في البحر وقف الكهل مسندا ظهره إلى سارية السفينة، مشبكا ذراعيه فوق صدره، يفكر في سكون أومأ برتوليه بأصبعه إلى الكهل وهمس في أذن فيوفيل:

– إن ميادين (فندية) اهتدت إلى الرأس المنشود.

الفصل السادس

تكاثفت السحب وتعالت الأمواج، وانتشرت فوق السفينة طبقات الضباب.. وسارع البحارة بإلقاء المدافع المعطوبة والأدوات التالفة في البحر تخفيفا لحمل السفينة ومع أن العاصفة التي هبت عند الأفق هدات ثورتها، فإن الأمواج لم تكف عن ثورانها، وفي هذا من الخطر ما فيه على سفينة مشحنة بالجراح تقدم الضابط فيوفيل إلى جاكوي قائد الدفة حيث وقف في مكانه يقابل أهوال الطبيعة بهدوء ورباطة جأش وقال له مداعبا:

– إن العاصفة اخطأتنا وذهبت ثورتها هباء.. سوف ننجو منها وما دامت الرياح كافية فهذا كل ما نطلب. فأجاب جاكوي برزانة:

– حيثما تكن الرياح تثر الأمواج.

كان موقف السفينة المعطوبة شديد الحرج أمام الأمواج ولما رأى فيوفيل خطورة اللهجة التي تكلم بها جاكوي عاد إلى رزانته، وقال:

– وأين نحن الآن؟

فأجاب قائد الدفة:

– نحن بين يدي الله.

ابتعد فيوفيل وسرعان ما أجابت الطبيعة عن سؤاله فقد انقشعت سحب الضباب.. وتبددت الغيوم التي كانت تحجب وجه الأفق، ولاح عن اليمين بياض الفجر البازغ، وعن الشمال صفرة القمر الغارب فأما عن اليمين فقد ظهرت من ثنايا خيوط الفجر الأولى ثماني سفن وقفت في انتظام مروع على مسافات متباعدة

وأما عن الشمال فقد ظهرت في ضوء القمر ثلاث قمم صخرية شاهقة.

هذه السفن هي الأسطول الفرنسي.. وأما القمم فهي صخور "مانكيير".. وهكذا وقعت السفينة بين نارين. وعليها أن تختار بين مواجهة العدو.. وبين التحطم على الصخور. كان الموقف عسيرا.. فإذا واجهت السفينة العدو والتحمت معه فليس بها غير تسعة مدافع وذهبت نخبة من خيرة رجالها.. كما أن المحنة التي أصابتها أشاعت العطب في انحائها حتى عجزت الدفة عن توجيهها، وأخذت الأمواج تقذف بها إلى ناحية الصخور المهلكة.. وإذا كانت العاصفة قد سكنت فإن عناصر الطبيعة لا يؤمن جانبها.

الفصل السابع

أصدر القبطان برتوليه أوامره بصوت منخفض إلى الضابط فيوفيل فأسرع بالنزول إلى السطح الثاني حيث توجد بطارية المدافع.. وتناول القبطان منظارا ووقف قرب جاكوي قائد الدفة، وجعل يفحص السفن التي كانت ترى بوضوح في ضوء القمر.أحصى القبطان ثمانية طرادات حربية تتوسطها سفينة القيادة ذات الأسطح الثلاثة.. ثم التفت إلى جاكوي قائلا:

ـ هل تعرف هذه السفن؟.

فأجاب جاكوي: تمام المعرفة..

– ما هي؟

– هي من سفن الأسطول الفرنسي.

فقال القبطان وهو يتطلع من خلال المنظار: واحدة ذات ثلاثة أسطح.. اثنان من طرادات الدرجة الأولى خمس من الدرجة الثانية.. هي سفن طيبة.. وقد حاولت فيما مضى أن يعهد إلى لواء قيادتها.

فقال جاكوي: أما أنا فقد شاهدتها جميعا عن كثب.. وصورها محفورة في ذهني.

ناول القبطان المنظار إلى قائد الدفة قائلا: هل يمكنك أن تسمي سفينة القيادة؟

– نعم أيها القبطان.. هي (كوت دور).

فقال القبطان: كانت تسمى فيما مضى باسم " ولاية بورجونيا ".. هي سفينة جديدة، ولها بطارية مكونة من ١٢٨ مدفعا..ما هي السفينة الأولى إلى اليمين؟.

– هي السفينة (اكسبرمنتيه).

– هي من طرادات الدرجة الأولى. وبطاريتها مكونة من ٥٢ مدفعا.. وقد صنعت في برست وانزلت إلى البحر منذ شهرين.

واستمر قائد الدفة يسمى باقي السفن باسمائها، والقبطان يدون في مفكرته حمولة المدافع في كل منها، حتى تم إحصاء سفن الأسطول جميعا وفيما كان القبطان يجمع الأرقام التي تكونت أمامه، عاد إليه الضابط فيوفيل، فهتف القبطان:
– أيها الشيفالييه. نحن أمام ٣٨٠ مدفعا. ما هي نتيجة التفتيش الذي قمت به؟. كم عدد المدافع الصالحة الباقية عندنا.

فأجاب الضابط: تسعة.

ثم أخذ يشرح للقبطان بإسهاب حالة السفينة من كافة نواحيها تطلع القبطان بالمنظار إلى سفن الأسطول من جديد. فإذا هي تزداد اقترابا من السفينة (كليمور). وسرعان ما أصدر القبطان أوامره. فهرع الجميع لتنفيذها في سكون وهدوء. وتزود كل بسلاحه وذخيرته.

وقفت السفينة (كليمور) والقت مراسيها متجهة بجانبها إلى ناحية الأسطول القادم.. ونصبت المدافع التسعة في هذا الاتجاه أما الأسطول نفسه فقد أتم استعداده. وانتظمت السفن الثمانية في شبه نصف دائرة. وهكذا انحصرت السفينة " كليمور " بين هذه السفن من جانب، وبين صخور (مانكيير) من الجانب الثاني. وكان موقفها أشبه بخنزير بري تحوطه طائفة من كلاب الصيد توشك أن تنقض عليه.

الفصل الثامن

وقف الكهل فوق سطح السفينة يراقب هذه الحركات في جموده المألوف وتقدم منه القبطان قائلا:

– سيدي. تمت الاستعدادات. ونحن على أبواب القبر، سنقع إما في قبضة العدو، أو نتحطم على الصخور وليست أمامنا وسيلة ثالثة. ولكن بقي لنا منفذ واحد. هو الموت. خير لنا أن نقاتل، من أن نفنى على الصخور. إني أفضل الموت بالرصاص، على الموت غرقا. إني أفضل النار على الماء، لكن إذا كان الموت هو مصيرنا، فليس هو لك. إن الأمراء اختاروك ووضعوا آمالهم في شخصك، إن مهمة سامية عظيمة منوطة بك. هي إدارة دفة الحرب في ميادين (فنديه). وفي هلاكك القضاء على الملكية، ولذلك لابد أن تعيش. إن واجبنا يحتم علينا البقاء هنا. أما واجبك فيحتم عليك الذهاب. ولابد أن تغادر السفينة يا سيدي القائد. سأمدك برجل وبقارب. وليس الوصول إلى الساحل في مرحلة طويلة بالأمر المستحيل. لم ينتشر النهار بعد. الأمواج عالية. والبحر مظلم. والإفلات ميسور. إن الفرار هو النصر والغلبة في بعض الأحوال.

أحنى الكهل رأسه موافقا. فصاح الكونت برتوليه: أيها الجنود. ! أيها البحارة !. سكنت الحركات. وتطلعت الوجوه جميعا من كافة نواحي السفينة إلى القبطان، فاستطرد:

– هذا الرجل الواقف بيننا يمثل الملك. وقد عهد إلينا بالمحافظة على سلامته. فيجب أن ننقذه. هو لازم لعرش فرنسا.. وسيتولى قيادة الجيوش في ميادين (فنديه). هو قائد عظيم. وكان الواجب أن ينزل إلى أرض فرنسا معنا. ولا مفر الآن

من نزوله إليها بدوننا. إن انقاذ الرأس انقاذ للكل !.

هتف البحارة جميعا في نفس واحد: نعم !. نعم !. نعم !.

استطرد القبطان: هو يوشك مثلنا أن يستهدف للخطر الشديد ليس من اليسير بلوغ الشاطئ. لكي يمكن مواجهة البحر الغاضب الهائج، لابد من قارب كبير ولكي يتسنى الإفلات من الطرادات، لابد أن يكون القارب صغير الحجم. ومن الضروري بلوغ الشاطئ في بقعة مأمونة، يحسن أن تكون في جوار " فوجير ". وهذه المهمة تتطلب بحارا قويا بارعا في التجديف، ماهرا في السباحة، من أبناء هذا الشاطئ يعرف بحر المانش معرفة تامة. الظلام كاف، ومن الممكن إنزال القارب من هذه السفينة دون أن يراه الأعداء كما أننا سنثير في الجو دخانا كثيفا يساعد على إخفاء القارب عن العيان. إن حجم القارب سيمكنه من عبور المناطق القليلة العمق. وإذا كان يستحيل على هذه السفينة أن تفلت من صخور (مانكيير)، فإن هذا ميسور للقارب. سيبتعد القارب بسرعة ولن تراه عين العدو. وفي أثناء ذلك سنتفكه بمشاغلته، ومداعبته. هل أنتم موافقون؟.

هتف البحارة: نعم !. نعم !. نعم !.

فاستطرد القبطان: من منكم يتطوع؟.

برز من صفوف البحارة واحد من خلال الظلام: وقال: أنا.

الفصل التاسع

ما كادت تمضي بضع دقائق حتى أنزل من السفينة " كليمور " قارب صغير متين البنيان يحمل الكهل والبحار المتطوع، ومئونة مكونة من كيس من (البسكويت) وجزء من اللحم المقدد وإناء من الماء. وراح البحار يجذف بقوة وسرعة مبتعدا عن السفينة متجها إلى صخور " مانكيير " وفقا لأوامر القبطان.

قطع القارب مسافة كبيرة، وساعدته الرياح والأمواج، وابتعد عن السفينة وفجأة ارتفع فوق هدير الأمواج صوت رهيب زاد في رهبته قرع الطبول. هو صوت القبطان برتوليه، الذي صاح في رجاله:

– يا بحارة الملك !. ارفعوا العلم الأبيض فوق السارية ! لن نرى شروق الشمس إلا مرة واحدة !.

ثم أطلقت السفينة "كليمور " مدفعها الأول، وهتف البحارة:

– يحيا الملك !.

فجاوبهم من أقصى الأفق هتاف داو بهذه الكلمات:

– تحيا الجمهورية !.

وانفجر على أثر هذا الهتاف دوى رهيب يصم الآذان، وكأن السماء أرسلت وأبلا من صواعقها ورعودها.

ابتدأت المعركة. وانتشر فوق البحر ستار من دخان ونار. واكتسى وجه الموج بغطاء من الزبد المتلاطم.

وأرسلت السفينة " كليمور " قذائفها النارية على الأسطول. وصوب إليها الأسطول وهو منتظم في نصف دائرة نارا حامية من كافة مدافعه فتوهج الأفق بالنيران المضطرمة وكأنما انفجر في وسط البحر بركان ثائر يرسل الحمم والقذائف.

جلس الرجلان في القارب صامتين.. ودنا القارب من صخور " مانكيير " في وسط هذه الصخور الشاهقة بوغاز قليل العمق يحميه من اليسار لسان صخري مسطح، ومن اليمين صخور ضخمة متناثرة. وعلى جانبي هذين الحاجزين تتكسر الأمواج حتى إذا وصلت إلى ماء البوغاز نفسه تلاشت وانعدم تأثيرها.

اتجه البحار بالقارب إلى هذا البوغاز، وراح يشق طريقه فيه بحذر ومهارة. وفي هذا الوقت حجبت الصخور شبح الصراع الرهيب الدائر بين الأسطول والسفينة " كليمور ". وأخذت أصوات المدافع الداوية تخفت وتتلاشى ببعد المسافة. ولكن استمرار الطلقات دل على أن (كليمور) تكافح وتناضل حتى النفس الأخير.

وصل القارب إلى الجانب الآخر من الصخور، بعيدا عن ميدان القتال، ومتناول المدافع والرصاص.

وأخذ ضوء النهار ينتشر، وانعكست طائعه فوق رءوس الأمواج.

نجا القارب من قبضة العدو. لكن بقيت مرحلة شاقة رهيبة. فهو قارب ضئيل بغير شراع ولا سارية ولا بوصلة أو هو ذرة صغيرة في بحر متلاطم الأمواج، وتحت رحمة العواصف والأنواء.

في هذه العزلة الموحشة، وتحت رحمة الطبيعة الجبارة رفع البحار رأسه، ونظر إلى الكهل مليا، ثم قال:

أنا أخ الذي أمرت بإعدامه.

القسم الثالث

هالمالو

الفصل الأول

رفع الكهل رأسه ببطء، ونظر إلى البحار..كان البحار رجلا في الأربعين من عمره، أسمر الوجه، نفاذ العينيين قوي البنية، يحمل في حزامه خنجرا ومسدسين ومسبحة.

قال الكهل: من أنت؟.

– قلت لك الآن من أنا.

– وماذا تريد.؟

علق البحار المجذافين في القارب، وشبك ذراعيه فوق صدره، وأجاب: أريد أن أقتلك..

فقال الكهل: كما تحب..

رفع البحار صوته وقال: أستعد..

– لأي شئ.؟

– للموت..

فقال الكهل: ما السبب.؟

ساد السكون، وظهرت دلائل الحيرة على وجه البحار إزاء هذا السؤال، ثم قال:

– أقرر لك أني أنوي قتلك..

– وأنا أسأل عن السبب..

لمعت عينا البحار وأجاب:

– لأنك قتلت أخي..

فقال الكهل بأتم هدوء:

– إني أنقذت حياته أولا.

– هذا صحيح.. أنقذته أولا.. ثم قتلته..

– لست أنا قاتله..

– ومن إذن.؟

– إهماله وغلطته..

حدق البحار إلى الكهل وهو قاغر الفم.. ثم عبس عبوسا ينذر بالشر والإجلام.

سأله الكهل: ما اسمك.؟

هالمالو.. لكن لا حاجة بك إلى معرفة أسمي ما دمت سأقتلك.

أشرقت الشمس في هذا الوقت، وسطع ضوؤها على وجه البحار فكشف عن وحشيته. وجعل الكهل يتفرس في وجهه مليا تناول البحار أحد المسدسين بيده اليمنى، وأمسك باليسرى مسبحته نهض الكهل وبسط قامته، وقال: هل تؤمن بالله.؟

فأجاب البحار: كل الإيمان..

– هل لك أم.؟

– نعم..

ثم استطرد البحار وهو يشهر مسدسه: انتهى الكلام.. إني أمهلك دقيقة يا مولاي.

– لم تناديني بمولاك.؟

– من الجلي أنك سيد..

– هل لك أنت سيد.؟

– نعم.. وهو سيد عظيم.. هل يمكن أن يكون الإنسان بغير سيد..؟

– وأين سيدك؟..

– لا أدري.. إنه غادر هذا الإقليم.. هو يدعى الماركيز دي لانتناك، فيكونت دي فونتناي، أمير " بريتاني "، مالك الغابات السبع، إني لم أره في حياتي، لكن هذا لا يمنع أنه سيدي ومولاي

– وهل إذا رأيته تطيعه؟..

– لا ريب.. إني أكون جاحدا إذا لم أطعه، إني أطيع الله، والملك، ومولاي، لكن هذا لا يتصل بموضوعنا، إنك قتلت أخي، فلابد من قتلك

فأجاب الكهل: موافق، إني قتلت أخاك، وحسنا فعلت

أحكم البحار تصويب المسدس وقال:

– أستعد..

فقال الكهل في هدوء تام: ليكن.. أين القسيس؟.. حملق البحار في وجهه وقال: القسيس؟..

– نعم.. القسيس، إني أمددت أخاك بقسيس، فأنت مدين لي بقسيس..

فقال البحار: ليس عندي قسس، وهل يوجد القسس في عرض البحر؟..

فقال الكهل وهو يشير إلى دوي المعركة البعيدة:

– إن الذين يموتون هناك يستغفر لهم قسس..

فغمغم البحار: صحيح، عندهم قسيس السفينة

فاستطرد الكهل: ستتعذب روحي، هذه مسألة خطيرة

اطرق البحار برأسه مفكرا، بينا استطرد الكهل:

– وإذا عذبت روحي ستعذب روحك، اسمع، إني أرثي لك أفعل ما تشاء، أما أنا فقد أديت واجبي، أديته أولا بإنقاذ حياة أخيك، وأديته ثانيا بإنتزاع هذه الحياة منه، وإني أؤدي الآن هذا الواجب إذ أحاول إنقاذ روحك من العذاب، فكر في الأمر، هذا شأنك، هل تسمع دوي المدافع في هذه اللحظة؟.. هناك رجال يهلكون، هناك بؤساء يفنون، هناك أزواج لن يروا زوجاتهم، وآباء لن يلتقوا بأبنائهم، وإخوان – مثلك – لن يشاهدوا إخوتهم، من هو المتسبب في هذه النكبة؟.. هو أخوك، أي أنت..

هل تؤمن بالله؟.. حسنا أعلم أن الله غاضب في هذا الوقت، غاضب لما يلاقيه عبده المؤمن ملك فرنسا الصغير من العذاب في سجن " التأمبل ".. ولما يلقاه رجال الدين من الذبح والتقتيل والمهانة، وما تتعرض له بيوت العبادة من العبث والاستهتار والتخريب، هل تدري ماذا كنا نريد بهذه السفينة التي تغرق في هذا الوقت؟.. كنا ذاهبين فيها لإنقاذ الملك ورجال الدين من هذا الذي وصفت.لو كان أخوك خادما أمينا، ولو قام بواجبه كما يقوم به كل رجل أمين، لما حدثت حادثة المدفع الذي أفلت من عقاله، ولا تعرضت السفينة "كليمور " للعطب، ولا انحرفت عن طريقها المرسوم، ولا وقعت تحت رحمة الأسطول المعادي، ولهبطنا جميعا أرض فرنسا كالجنود البواسل، فرحين، مستبشرين، شاهرين سيوفنا، رافعين علمنا،

ولذهبنا لمساعدة فلاحي " فنديه " الشجعان لإنقاذ فرنسا، وإنقاذ الملك، ولارضينا الله..

هذا ما كنا نريد أن نفعل.. هذا ما كان يجب أن يفعل.. بل هذا ما ندبت أنا الوحيد الباقي، لفعله، لكنك تجعل من نفسك آلة لمقاومة هذه الغاية..في هذه الثورة الضالة ضد رجال الدين، في هذا الصراع الذي يشهره قتلة الملوك ضد شخص الملك، تقف أنت في جانب الشيطان..وهب أخوك نفسه للشيطان وكان آلته الأولى.. وهأنت ذا تهب نفسك للشيطان وتكون آلته الثانية، ابتدأ أخوك، وأنت تتم ما بدأ، أنك تقف نفسك في صفوف الثائرين على العرش، والكافرين بالدين.. إنك تقضي على من جعله الله ملاذ فرنسا الأخير.. من يمثل الملك.. ستحترق القرى والدور.. وتخرب البيوت.. وتدمع العيون.. ويمتهن رجال الدين.. وتتعذب " بريتاني ".. ويظل الملك أسيرا في سجنه.. وبيد من يحدث كل هذا؟. بيدك وحدك.. افعل ما تريد هذا شأنك.. إني أعتمدت عليك لمساعدتي في إنفاذ رسالتي، فإذا بك تحبطها.

_ صحيح.. أنت على حق.. إني قتلت أخاك..كان أخوك باسلا مقداما فكافأته.. وكان مذنبا مقصرا.. فعاقبته.. إنه قصر في أداء واجبه أما أنا فلم أقصر.. وما فعلته مرة أفعله مرات.. أقسم بالله الذي يرانا أني ما كنت أتردد في إعدام ابني كما أعدمت أخاك، في ظرف مماثل.

_ أنت الآن صاحب الحول والطول، والأمر والنهي.. إني أرثي لك.. لقد كذبت على القبطان وخنت الأمانة التي وضعها في عنقك أنت مؤمن خائر الإيمان.. أنت وطني بلا شرف.. إنك تهب موتى للذين عهدوا إليك بحياتي.. هل تدري من تهلك؟. أنت تهلك نفسك.. أنت تنتزع حياتي من الملك، وتهب حياتك للشيطان.. افعل !.. ارتكب جريمتك !.. أنت تبيع نصيبك في الآخرة بأرخص

الأثمان.. بفصلك سينتصر ابليس، وتتهدم بيوت العبادة، ويواصل الثائرون الملحدون صهر أجراس الكنائس وصب المدافع من معدنها، ثم يفتكون بالأرواح بهذا المعدن الذي كان يهدي النفوس.. ربما كانت أمك في هذه اللحظة تموت بمعدن الناقوس الذي دق وقت عمادك طفلا.. اقتلني !.. كن عونا للشيطان !.. لا تتردد !

_ نعم.. إني أعدمت أخاك.. لكن عليك أن تعلم أني كنت أنفذ قضاء الله في أخيك.. فهل تقاضي من اختاره الله لهذه المهمة؟.. هل تقاضي ظواهر الطبيعة التي يسخرها الله بأمره؟ يا لك من تعس !. ستقضي يوما بين يدي الله، فيحاسبك على ما جنت يداك.. فكر فيما تفعل.. اقلتني واقذف بنفسك في الجحيم.. إن هلاكنا كلينا في يدك وستكون وحدك المسئول أمام الله.. نحن وحدنا.. وجها لوجه.. في هذا الخضم.. اجهز علي !.. اقتلني !.. أنا كهل.. وأنت شاب.. أنا أعزل.. وأنت مسلح.. اقتلني !..

وقف الكهل منتصب القامة يلقي هذه الكلمات في صوت أعلى من هدير الموج.. أما البحار فقد أمتقع وجهه، وانحدر العرق غزيرا فوق جبينه، وأخذ يرتجف كورقة في مهب الرياح.. وجعل يقبل مسبحته بين وقت وآخر.. وما كاد الكهل يتم كلامه حتى رمى البحار مسدسه وركع على ركبته، وهتف:

– رحمة يا مولاي. اغفر لي واصفح عني. أنت تتكلم كالقديسين أني أذنبت. وقد أذنب أخي من قبل. لكني سأحاول إصلاح جرمه. افعل بي ما تشاء. مر. وعلى السمع والطاعة.

فقال الكهل: عفوت عنك.

الفصل الثاني

مضت ست وثلاثون ساعة قبل وصول القارب إلى اليابسة. وقد أبدى هالمالو من ضروب البراعة والحذق في تسيير القارب ما دل على تفوقه في فنون الملاحة. ومن حسن الحظ أن الرياح سكنت والأمواج هدأت في هذه المدة غير أن هالمالو اضطر حتى لا يقع القارب في أيدي العدو أن يقوم بجولة طويلة وفي أثناء هذه المدة سمع الاثنان السفينة "كليمور " تطلق قذيفتها الأخيرة، ثم ساد السكون، وتلاشت السفينة في طوايا الفناء.

وقبيل غروب الشمس في مساء اليوم التالي وصل هالمالو بالقارب إلى شاطئ مهجور بسبب الرمال المتنقلة حوله مما يجعل الملاحة خطرة على السفن الكبيرة.

ومن حسن الحظ أن المد كان مرتفعا في هذا الوقت. فجعل هالمالو يجذف إلى حد معين، ثم اختبر الأرض الرملية، ولما وجدها ثابتة انحدر من القارب وجذبه إلى الأرض. واقتدى به الكهل ووقف يفحص الأفق، وأخذ هالمالو يشرح للكهل طبيعة المكان وموقعه الجغرافي، ومد الكهل يده إلى القارب وتناول جانبا من " البسكويت " وضعه في جيبه وأمر هالمالو أن يأخذ باقي المئونة. ووضع هالمالو ما بقي من اللحم و " البسكويت " في الكيس وحمله على ظهره، ثم قال: مولاي. هل أتقدمك أو أتبعك؟

– لا هذا ولا ذاك.

نظر هالمالو إلى الكهل متحيرا، فقال هذا:

– لابد أن نفترق يا هالمالو.

ثم أخرج الكهل من أحد جيوبه رقعة حريرية خضراء تتوسطها زنبقة موشاة بالذهب، واستطرد:

– هل تعرف القراءة؟.

– لا.

– من حسن الحظ.. هل لك ذاكرة قوية؟.

– نعم.

– لا بأس. اصغ إلي يا هالمالو. عليك أن تسير إلى اليمين، وأنا إلى الشمال.. سأذهب في اتجاه " فوجير ". وستذهب في اتجاه " بوزوج " احتفظ بهذا الكيس الذي تحمله، فهو يكسبك مظهر الفلاحين.. اخف أسلحتك. واصنع لنفسك عصا من الأغصان. سر في ظلال الأشجار. وتجنب الناس. وابتعد عن المسالك المطروقة، والقناطر المشادة على الأنهار. ستضطر لإجتياز نهر "كوسون "، فكيف تفعل؟

– سأسبح.. توجد منطقة سهلة بين " آنس " و " فيل "..

– حسنا.. أنت حقا من أبناء هذا الإقليم.

– لكن الليل على أبواب. فأين ينام مولاي؟.

– إني أعرف كيف أدبر نفسي.. وأنت.. أين تنام؟.

– توجد أشجار مجوفة.. إني كنت فلاحا قبل أن أكون بحارا.

– تخلص من قبعتك البحرية، وإلا فضحتك.. من اليسير أن تجد قلنسوة

– سأحصل عليها من أول صياد.

– حسنا.. اصغ إلي. هل تعرف غابات هذا الإقليم؟.

– أعرفها كلها.

– هل تعرف أسماءها كذلك؟.

– إني أعرف أسماءها وأعرف كل شئ هنا.

– هل لن تنسى شيئا مما أقول لك؟.

– ولا كلمة.

– حسنا.. انتبه جيدا لما أقول.. في نهاية الأخدود الكائن بين " سان رين " وبين " بلدياك " توجد شجرة كستناء ضخمة. قف عند هذه الشجرة. لن ترى أحدا حولك.

– لكني أعرف أن هذا لا يمنع من وجود أناس مختبئين.

– ستنادي النداء الخاص. هل تعرفه؟.

نفخ هالمالو وجنتيه وأخرج من فمه صوتا يشبه نعيب البومة، فقال الكهل:

– بديع. هذا هو النداء بعينه.

بسط الكهل الرقعة الحريرية الخضراء في يده واستطرد:

– هذه شارة القيادة الخاصة بي. من الضروري ألا يعرف أحد اسمى في الوقت الحالي. لكن هذه الشارة تكفي. إن الزنبقة طرزتها الملكة بيدها في سجن " التامبل "

ركع هالمالو على إحدى ركبتيه، وأدنى الرقعة من فمه وهو يرتجف. ثم توقف كأنما روعته هذه القبلة، وقال:

– هل يجوز لي أن أقبلها يا مولاي؟.

– نعم.

قبل هالمالو الزنبقة، ثم نهض بأمر الكهل، ودس الرقعة في صدره فاستطرد الكهل:

– اصغ إلي جيدا. ستبلغ رسالتي بهذه الكلمات: " انهضوا.. ثوروا.. لا ترحموا" ستنادي النداء الخاص عند الشجرة المذكورة، وهي في نهاية غابة " سانت أوبان". وتردد هذه الكلمات ثلاث مرات. وبعد المرة الثالثة سترى رجلا يبرز فجأة من الأرض.

– نعم.. من تجويف تحت الأشجار.

– هذا الرجل هو بلانشنو المعروف باسم " قلب الملك ". عليك أن تريه الشارة، فيفهم كل شئ.. ثم تذهب إلى غابة " استليه ".. حيث تقابل رجلا كسيحا يدعى موسكيتون.. بلغه أني أحبه، وأن عليه أن يثير جميع المقاطعات.. هل تعرف غابة " لا تورج "؟

– وكيف لا أعرفها يا مولاي؟ إني نشأت فيها وبها حصن " لا تورج " الكبير الذي تملكه أسرة سيد أرضنا. وبهذا الحصن باب ضخم من الحديد يفصل شطر الحصن الجديد عن الشطر القديم، وتعجز المدافع عن فتحه. وفي الشطر الجديد يوجد المجلد الضخم المحتوي على تاريخ وصور مذبحة " سان بارثلوميو "، يذهب الناس لرؤيته من كل مكان ثم هناك الممر السري تحت الأرض. بل ربما كنت الوحيد الذي يعرف بوجود هذا الممر.

– أي ممر أرضي؟. لا أفهم قصدك.

– أنشئ هذا الممر في العصور القديمة، وقت أن كان الحصن محاصرا. وكان يمكن الموجودين في داخل الحصن أن يهربوا من الممر الأرضي الذي يؤدي إلى الغابة.

– أعرف أن مثل هذه الممرات توجد في بعض الحصون المعروفة لكن لا يوجد ممر كهذا في حصن " لا تورج ".

– إني لا أعرف الممرات التي يتكلم عنها مولاي. لكني أعرف ممر حصن " لا تورج " لأني ولدت في تلك الجهة، ولا يوجد من يعرف بأمره سواي، إذ كان الكلام عنه ممنوعا. لكن أبي كان يعرف سره، وقد أراني الممر نفسه. إني أعرف كيف أدخل وأخرج منه. وبوسعي إذا كنت في الغابة أن أصل إلى الحصن، وبالعكس دون أن يراني أحد. إني أعرفه تماما يا سيدي.

سكت الكهل قليلا، ثم قال:

– أنت مخدوع. لو كان يوجد مثل هذا الممر، لعرفته.

– أنا واثق بوجوده يا مولاي. هناك حجر يدور.

– أنتم معشر الفلاحين تصدقون بوجود الحجارة التي تدور، وتغني، وتشرب من الغدير في ظلام الليل. هذه كلها خرافات.

– لكني أدرت الحجر بنفسي.

– كما سمعه غيرك يغني. اسمع أيها الرفيق. إن " لاتورج " حصن قوي يسهل الدفاع عنه. لكن من يعتمد على وجود ممر تحت الأرض يكون غبيا أحمق.

– لكن يا مولاي..

هز الكهل كتفيه وقال:

– إننا نضيع الوقت. لنتكلم فيما يعنينا.

فاه الكهل بهذه الكلمات في نبرات جعلت هالمالو يكف عن إصراره. ثم راح يسرد له أسماء الغابات والمواقع التي يذهب إليها، والأفراد الذين يقابلهم ويبلغهم

رسالته، ثم أخرج من جيبه كيسا ناوله له واستطرد:

– ستحتاج إلى مال. في هذا الكيس مائة جنيه ذهبا هي كل ما عندي. أنا لا أحتاج إلى مال. ومن الخير إلا يوجد معي مال بتاتا.

إن الشارة التي أعطيتك إياها ستهيئ لك استقبالا حسنا حيثما ذهبت. ولا تنس أنك ذاهب في اقليم أهله خليط من الفلاحين وأهل الغابات. ومن اليسير أن تتنكر. إن الجمهوريين من الغباوة بحيث يسهل عليك أن تمر من صفوفهم في كل مكان إذا ارتديت سترة زرقاء وقبعة ذات شارة مثلثة الألوان. لا توجد بينهم فرق منظمة ولا زي رسمي للجنود هم شيع وأحزاب لا حصر لها. وكل فرد يرتدي الزي الذي يحلو له.فإذا ذهبت إلى جميع هذه الجهات، وقلت الكلمات التي لقنتها لك فستجمع الجيش الملكي وتضم صفوفه أينما كان.

سنقابل جميع القواد الباقين على قيد الحياة، وتريهم شارة قيادتي، فيهفمون جميعا معناها والمراد منها. قل لهم بلساني: " حان الوقت للجمع بين الحربين، الحرب المنظمة، والحرب الوحشية. الأولى ذات ضجيج وعجيج. والثانية ذات محق وتدمير. إن خير سلاح وأمضاه في الحروب الأهلية هي الحرب الوحشية. إن نجاح الحرب يقدر بما تنتجه من الهلاك والدمار " هالمالو. أنت لا تفهم الكلمات. لكنك تفهم المعاني. إني وثقت بك حينما رأيتك تعالج القارب معالجة الرجل القدير أنت لم تدرس الملاحة لكنك تصنع المعجزات في البحر إن الذي يعالج قاربا في الشدائد جدير أن يدبر دفة الثورة وفي يقيني أنك ستنفذ أوامري على أحسن الوجوه ستكلم جميع القواد وتفهمهم ما أريد بطريقتك الخاصة. قل لهم إني أفضل حرب الغابات على حرب السهول. لا أحب أن أجعل مائة ألف فلاح في صفوف منظمة فيتعرضوا لمدافع الزرق تفنيهم عن آخرهم في نيتي في أقل من شهر أن أجمع نصف مليون من الفلاحين يكمنون في الغابات، ويفاجئون الزرق من حيث لا يشعرون.

إن أكثر اعتمادي على حروب الغابات لا على المعارك المنظمة. قل لهم إن الانجليز معنا. وإننا سنحصر الجمهوريين بين نارين، إن أوروبا تساعدنا. والملوك يشدون أزرنا. فلنسحق الثورة سحقا. ستقول لهم كل هذا. فهل فهمت؟

– نعم يا مولاي. سأقول لهم أن يسلطوا على العدو الحديد والنار وإلا يرحموا أحدا. وسوف أذهب في كل مكان.

– عليك أن تلزم الحذر. فالموت في هذا الإقليم كامن في كل مكان.

– لا تخف يا مولاي. سأكون كلي عيونا مفتوحة وحواسا مرهفة..

– أنت رجل باسل

– وإذا سئلت عن اسم مولاي؟.

– يجب أن يعرف اسمي في الوقت الحالي. إذا سئلت عن اسمي فقل أنك لا تعرفه، وهي الحقيقة.

– وأين أرى مولاي فيما بعد؟.

– ستراني حيثما أكون.

– وكيف أعرف مكانك؟

– لأن الدنيا كلها ستعرف أين أكون. سيتحدث الناس عني قبل مضي أسبوع. سأضرب الأمثال الخالدة. سأثأر للدين وللملك. وستعرف أنني موضوع حديث الناس.

– فهمت.

– لا تنس شيئا

– كن مطمئنا.

– اذهب الآن. لتحرسك عناية الله.

– سأفعل كل ما أمرتني به. سأطوف. سأتكلم. سأطيع سآمر. وإذا نجحت؟.

– سأمنحك وسام القديس لويس.

–كما منحت أخي. وإذا أخفقت؟. ستأمر بإعدامي؟.

– مثل أخيك.

– قبلت يا مولاي.

أطرق الكهل برأسه واستغرق في التفكير. ولما رفع عينيه كان هالمالو شبحا غامضا يختفي عند الأفق.

غربت الشمس، وساد سكون تام إلا من طيور البحر التي كانت تلحق صارخة فوق الأمواج.

كان الإقليم قفرا موحشا.. فالبحر يمتد من ناحية لا أثر فيه لشراع أو سفينة. والحقول تنبسط من الناحية الأخرى خلوا من أي مخلوق.

القسم الرابع

تلمارش

الفصل الأول

انتظر الكهل حتى اختفى هالمالو عن نظره ثم سار في جهة مضادة حتى وصل إلى تل ارتقاه وجلس عند قمته رأى وهو جالس في مكانه على امتداد النظر طائفة من البلدان والقرى وشاهد أبراج النواقيس تمتد شاهقة طوال الشاطئ حتى تتخذ منها السفن والقوارب معالم تهتدي بها في سيرها..

استقر نظر الكهل عند مجموعة من الأشجار والجدران والسقوف كانت في منتصف المسافة بين السهل والغابة فعرف فيها على الفور المزرعة التي ينشدها، وهز رأسه راضيا، وجعل يلتمس بنظره الطريق الذي يسلكه إليها، واسترعى نظره بعد قليل جسم غامض يتحرك بانتظام فوق سقف البيت الرئيسي في المزرعة، ولما لم يستطع أن يميزه بسبب الظلام جلس في مكانه ساكنا واستسلم للراحة والهدوء وفيما هو كذلك سمع فجأة أصوات نساء وأطفال يلغطون وقد صدرت هذه الأصوات من أسفل التل ومع أنه لم يستطع أن يرى أصحابها بسبب الأشجار التي حجبتهم عن نظره، فقد تسنى له أن يسمع الحديث الدائر بجلاء وكان المتكلمون يتجهون ببطء إلى السهل والغابة سمع امرأة تقول:

– لابد أن نسرع يا فليشار.. هل هذا هو الطريق؟.

فأجاب صوت امرأة أخرى:

– لا.. هو هناك..

– ما اسم المزرعة التي سننزل فيها؟.

– " زهرة الشاطئ ".

– وهل نصل إليها بعد وقت طويل؟.

– ليس أقل من ربع ساعة..

– لابد من الإسراع حتى ندرك العشاء..

– نعم.. قد تأخرنا..

– يجب أن نجري.. لكن أطالك تعبون.. ونحن امرأتان فقط، ولا يمكن أن نحمل ثلاثة أطفال.. ثم أنك يا فليشار تحملين الآن طفلة.. هذه عادة قبيحة.. أود أن تتركيني أدربها على المشي.. لا بأس.. كما تشائين.. سنتناول الحساء باردا

– إن الحذاء الذي أعطيتنيه متين.. وأكاد أظن أنه صنع لأجلي.

– هذا أحسن من المشي حافية القدمين.

– أسرع يا رينيه جان

– هو سبب تأخيرنا وكان يصر على مخاطبة بنات الفلاحين اللاتي قابلهن.. هو يستعجل دور الرجولة !..

– صحيح.. هو الآن في السنة الخامسة من عمره

– قل لي يا رينيه جان.. لماذا خاطبت البنت التي قابلناها في القرية؟..

فأجاب صوت غلام: إني كنت أعرفها

فسألته المرأة: هل كنت تعرفها حقا؟..

– نعم.. عرفتها منذ صباح اليوم.. لعبت معي بعض الألعاب فهتفت المرأة: أنت رجل غريب !.. لم تمض علينا في هذه الجهة سوى ثلاثة أيام هذا المخلوق يا فليشار في طول ذراعك، ومع ذلك اصطاد حبيبته !

خفتت الأصوات.. ثم تلاشت ولم يعد الكهل يسمع شيئا.

الفصل الثاني

جلس الكهل جامدا في مكانه مستسلما لأفكاره، كان ضوء النهار لا يزال منتشرا فوق قمة التل، غير أنه كان ضئيلا في السهل، أما الغابة فكانت في ظلام دامس، وبزغ القمر في الأفق الشرقي، وانتشرت، في صفحة السماء نجوم باهتة وكان الكهل يشعر براحة واطمئنان. وخيل إليه أن كل الأخطار التي كانت تهدده قد زالت بعد أن نجا من البحر ووصل إلى اليابسة.

لم يكن أحد يعرف اسمه. وهو الآن وحده. وقد أفلت من العدو دون أن يترك خلفه أقل أثر. ولا يرتاب أحد في وجوده. وأحس في هذه اللحظة براحة وسكينة وميل إلى النوم، وفجأة نهض على قدميه. واسترعى نظره شئ يتحرك عند الأفق. ولما أمعن النظر رأى الجميع النواقيس المتناثرة حوله تتحرك في أبراجها حركات مستمرة منتظمة، فاستنتج أن النواقيس تقرع في كافة البلدان والقرى التي حوله ولم تصل أصواتها إلى أذنه لبعد المسافة وهبوب الرياح في جهة مضادة فعجب من الظاهرة ولم يفهم لها تعليلا إلا أن تكون نذيرا بمطاردة إنسان معين. وأحس بقشعريرة تسري في جسده. هل يمكن أن يكون هذا الإنسان هو؟ هل علموا حقا بإفلاته وبوجوده في هذا الإقليم؟ ولم يلبث أن نفي من ذهنه هذه الهواجس فقد وصل إلى اليابسة منذ قليل وكل الدلائل تشير إلى غرق السفينة "كليمور " بركابها، كما أنه لم يكن بين رجالها من يعرف اسمه سوى القبطان برتوليه والضابط فيوفيل. وفيما هو كذلك سمع حفيف أوراق بقربه، فالتفت حوله وإذا هو يرى إعلانا كبير الحجم ملصقا إلى عمود فوق قمة التل، وكانت الرياح أخذت بالإعلان وكادت تنزعه من مكانه.

لم ير الكهل هذا الإعلان عند صعوده إلى التل، إذ أنه ارتقاه من الجانب المقابل لوجه العمود الذي الصق الإعلان فوقه. وأسرع الكهل إلى الإعلان ووضع يده عند رأسه، وطالع في الضوء المنتشر ما يلي:

" الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ "

" نحن حاكم مقاطعة المارن، ممثل الشعب لدى جيش شربورج الساحلي، نعلن الآتي: إن ماركيز دي لانتناك سابقا، فيكونت دي فونتناي، الأمير المزعوم في مقاطعة " بريتاني "، الذي نزل سرا في ساحل جرانفيل، هو متمرد.. وكل من يأتي به حيا أو ميتا سينال مكافأة قدرها ستة آلاف من الفرنكات الذهبية.. وسيعهد في الحال إلى فرقة من جيش الساحل في شربورج بالبحث عنه واعتقاله.. وعلى جميع البلدان والقرى أن تقدم كل مساعدة لازمة.

" تحريرا في دار الحكومة في جرانفيل في الثاني من شهر يونيو عام ١٧٩٣.

حاكم مقاطعة المارن

" إمضاء "

وكان تحت هذا التوقيع كتابة أخرى بحروف صغيرة لم يستطع الكهل أن يفسرها لضآلة النور، ورأى الكهل أن البقاء فوق القمة بعد ذلك غير مأمون العاقبة فهبط التل وراح يسلك الطريق الذي اختاره للوصول إلى المزرعة..

كان السهل مقفرا في هذا الوقت خلوا من المارة.. ولما وصل الكهل إلى بقعة تحجبها الأشجار، خلع عباءته وسترته الجلدية، ثم أعاد إرتداء السترة جاعلا وجهها الخشن ذا الشعر ظاهرا وارتدى العباءة واستأنف سيره.. وصل الكهل إلى نقطة تفرع عندها الطريق.. وشاهد صليبا من الحجر الصق فوق قاعدته إعلان كالذي

شاهده منذ دقائق.. وفيما هو يتجه إليه ناداه صوت قائلا:

– إلى أين تذهب؟.

التفت الكهل حوله.. فوقع نظره على رجل عند حافة الأشجار طويل القامة، كبير السن، أبيض الشعر، رث الثياب.. يكاد يكون صورة مطابقة له، كان الرجل يتكئ على عصا، وردد سؤاله قائلا:

– إني أسألك إلى أين تذهب؟.

فقال الكهل في هدوء:

– أين أنا أولا؟.

فأجاب الرجل: أنت في إقطاعية " تانيس " أنا متسول الإقطاعية. وأنت ربها.

– أنا؟.

– نعم.. أنت.. مولاي الماركيز دي لانتناك.

الفصل الثالث

قال الماركيز دي لانتناك بهدوء:

– ليكن.. سلمني

فاستطرد الرجل:

–كلانا هنا في موطنه.. أنت في الحصن. وأنا في الغابات.

فقال الماركيز: قم بمهمتك.. افضحني.

فقال الرجل: وكنت ذاهبا إلى مزرعة (زهرة الشاطئ). أليس كذلك؟.

– نعم.

– لا تذهب إليها لأن الزرق نزلوا بها.

– متى؟.

– منذ ثلاثة أيام.

– وهل قاوم أهل المزرعة وأصحاب القرى المجاورة؟.

– لا.. بل فتحوا أبوابهم على سعتها.

وأشار الرجل إلى سقف بيت المزرعة الرئيسي الذي كان يرى على مسافة وقال:

– هل ترى السقف أيها الماركيز؟.

– نعم.

– هل ترى ماذا يعلوه؟.

– جسم يطفو في الهواء. هو راية.

فقال الرجل: نعم. وهي الراية المثلثة الألوان.

كان هذا الجسم هو الذي استرعى نظر الماركيز أثناء وجوده فوق قمة التل

قال الماركيز: ألا تدق النواقيس؟.

– نعم.

– ولأي سبب؟.

– بسببك ولا ريب هل رأيت الإعلان الخاص بك؟.

– نعم.

– هم يطاردونك. وفي المزرعة نصف فرقة من الجنود.

– هل هم من الجمهوريين؟.

– من الباريسيين.

_ لا بأس. لنسر إلى الأمام.

خطا الماركيز خطوة في اتجاه المزرعة، فأمسك الرجل ذراعه وقال: لا تذهب إليها.

– وإلى أين تريد أن أذهب؟

– ستذهب معي إلى بيتي.

تفرس الماركيز في وجه المتسول، فقال هذا:

– اصغ إلى يا مولاي الماركيز، بيتي غير مريح، لكنه مأمون هو أقل درجة من الكهف أرضه من أعشاب البحر، وسقفه من الحشائش والأغصان تعالي معي ففي المزرعة حتفك وإعدامك وفي بيتي تنال قسطا من الراحة والنوم لابد أنك تشعر بالتعب وفي صباح الغد سيجلو الزرق ويرحلون، وعند ذلك تذهب أينما شئت.

تمعن الماركيز في الرجل، وسأله:

– مع من أنت؟. هل أنت جمهوري؟. هل أنت ملكي؟.

– أنا متسول.

– هل أنت مع الملك أو ضده؟.

– وقتي لا يسمح لي بالتفكير في هذه المسائل؟

– ما رأيك فيما يحدث هذه الأيام؟

– ليس عندي مورد أعيش منه.

– كم لبثت معرضا للموت جوعا؟

– طول حياتي.

– ثم تنقذني !

– نعم.

– لم؟.

– لأني قلت لنفسي هذا مخلوق أشد بؤسا مني.. إني أملك أن أعيش وأن أتنفس.. أما هو فلا.

– هذا صحيح.. وأنت تنقذني؟..

– بلا ريب.. نحن إخوان في البلاء يا مولاي، أنا أطلب الخبز، وأنت تطلب الحياة، نحن متسولان !..

– لكنك تعلم أن هناك ثمنا لرأسي؟

– نعم.

– وكيف علمت؟

– قرأت الإعلان..

– تعرف القراءة؟

– نعم.. والكتابة أيضا.. هل هناك ما يوجب أن أكون حيوانا؟

– ما دمت تعرف القراءة، وما دمت رأيت الإعلان، فأنت تعرف أن بوسعك أن تربح ستة آلاف من الفرنكات بكشف شخصيتي؟

– أعرف هذا..

– وليس هذا المبلغ بالأوراق المالية

– نعم.. أعرف أنه بالعملة الذهبية

– ستة آلاف من الفرنكات الذهبية.. هل تعرف أنها ثورة؟

– نعم.

– وإن من يعتقلني يغتني مدى الحياة؟

– لا بأس.. وماذا بعد؟

– مدى الحياة؟

– هذا ما فكرت فيه بالضبط.. حينما رأيتك قلت لنفسي: هذا رجل يستطيع الإنسان بتسليمه أن يربح ستة آلاف من الفرنكات الذهبية ويغتني مدى الحياة، فلنسرع إذن بإخفائه "..

تبع الماركيز المتسول فاندسا في غابة ووصلا إلى كهف المتسول.كان تجويفا محفورا في قلب شجرة بلوط ضخمة، تغطيه فروعها. كان كهفا مظلما منخفضا، محجوبا عن العيون، يسع اثنين.

قال المتسول: إنني رأيت أني قد استضيف بعض الناس

مثل هذه المساكن الأرضية مألوفة في إقليم (بريتاني). وكان هذا الكهف مزودا ببعض الأوعية، وأوراق الأشجار الجافة، وزناد، وحطب جاف.

زحف الاثنان إلى هذا المسكن الذي تجعل منه جذور الشجرة أقساما عجيبة، وجلسا فوق كوم من الأعشاب البحرية الجافة التي جعلت فراشا. أو مع أن الظلام يسود المكان، إلا أن العين لا تلبث أن تألفه، كما أن خيوطا ضئيلة من ضياء القمر كانت تنعكس على مدخل الكهف، وكان في أحد أركانه إناء ماء ورغيف من الخبز الأسمر الجاف وقليل من الكستناء.

قال المتسول: لنتعش.

تقاسما الكستناء. وقدم الماركيز جانبا من (البسكويت) الذي كان يحمله. وأكلا من نفس الرغيف الأسمر، وشربا من الوعاء واحدا بعد الآخر.

قال الماركيز: إذن كل شئ سواء عندك. ولا تهتم بما يحدث أو لا يحدث؟.

– نعم. أنتم السادة. وتلك شئونكم ومشاغلكم.

– لكن مهما يكن، فإن الحوادث الجارية..

– هي تحدث في محيط لا يعنيني. ثم هناك مسائل أهم منها تتجدد فالشمس تشرق وتغرب. والقمر يستدير ويتضاءل. هذه هي المسائل التي تعنيني.

ثم رشف من الإناء وقال:

– ماء عذب سائغ. كيف وجدت طعم الماء يا مولاي؟

فقال الماركيز: ما اسمك؟

– اسمي تلمارش لكني أدعي المتسول وهم يلقبونني أيضا بالعجوز وقد أطلقوا على هذا الإسم منذ أربعين سنة.

– أربعين سنة. لكنك كنت صغيرا في ذلك العهد.

– لم أكن صغيرا في حياتي. وبعكس ذلك يا مولاي تبقى أنت صغيرا دائما إن لك ساقي فتى في العشرين. وبوسعك أن ترتقي الهضاب والتلال. أما أنا فلا أكاد أقوى على المشي. إني أتعب بعد مسير نصف ميل. ومع ذلك فنحن متساويان في العمر لكن الأغنياء يمتازون عنا فهم يأكلون كل يوم.الأكل يحفظ القوة.الفقر الغنى هذا موضوع مخيف. هو أصل البلاء والكوارث.. وهذا هو رأيي على الأقل. الفقراء يلتمسون الغني. والأغنياء لا يحبون أن يفتقروا.. أنا رجل أعرف قليلا في الطب، أعرف خصائص الأعشاب وأدرس طبائع النباتات، والفلاحون يرونني مشغول الفكر شارد الذهن، فيحسبونني ساحرا، إني أحلم، فيظونني مفكرا.

فقال الماركيز: هل أنت من هذه النواحي؟

– لم أفارقها في حياتي.

– هل تعرفني؟

– بالطبع.. رأيتك لآخر مرة حينما مررت من هنا منذ سنتين، وذهبت إلى انجلترا.. ومنذ قليل رأيت رجلا على قمة التل.. رجلا مفرط الطول، إن طوال القامة نادرون. (بريتاني) موطن القصار. أمعنت نظري.. وكنت قرأت الإعلان، فقلت لنفسي: (هو بعينه) ولما هبطت من التل عرفتك في ضوء القمر..

– ومع ذلك لا أعرفك.

– إنك رأيتني. لكنك لم تنعم النظر إلي. أما أنا فرأيتك من قبل، وأنعمت فيك النظر، المحسن والمتسول لا ينظران بعين واحدة.

– هل قابلتك من قبل؟

– مرارا.. أنا متسول نالني فيض إحسانك. كنت أقف في الطريق المؤدي إلى حصنك، وكنت تجود علي.. لكن المحسن لا يلقي إلا نظرة عارضة. أما المحسن إليه فينظر ويفحص. المتسول مرادف للجاسوس. وإني وإن كنت محزون النفس في

أغلب الأوقات، إلا أني لا أحاول أن أكون جاسوسا شريرا.. اعتدت أن أمد يدي. وكنت ترى هذه اليد الممدودة فقط، فتلقي فيها ما أحتاج إليه في الصباح حتى لا أموت في المساء.. طالما بقيت أربعا وعشرين ساعة بغير طعام السنتيم هو الحياة أحيانا.. أنا مدين لك بحياتي.. وإني أرد الدين.

– هذا صحيح. فأنت تنفذ حياتي.

– نعم. إني أنقذك يا مولاي لكن بشرط واحد.

– وهو؟

– ألا يكون مجيئك إلى هنا لعمل الشر.

_ جئت إلى هنا لعمل الخير.

_ لننم الآن

تمدد الاثنان جنبا إلى جنب فوق الأعشاب البحرية. واستغرق المتسول في النوم على الفور. أما الماركيز فإنه راح يقدح زناد فكره رغم إشتداد تعبه.. وأخذ ينظر مليا إلى المتسول على أنه استلقى أخيرا على جنبه. وانتهز هذه الفرصة ووضع إذنه على الأرض.. فسمع دويا غريبا في أعماق الأرض، هو صوت النواقيس التي استمرت تقرع حتى الآن.. فإن الصوت يسري في الأعماق كما هو معلوم.

وأخيرا استسلم الماركيز لسلطان النوم.

الفصل الرابع

استيقظ الماركيز منتعشا فرأى المتسول واقفا خارج الكهف مستندا إلى عصاه وقد سطعت الشمس على وجهه قال تلمارش: مولاي، دق ناقوس (تانيس) مؤذنا بالساعة الرابعة، إني سمعت الدقات وأحصيتها ومعنى هذا أن اتجاه الرياح تغير ولم أسمع صوتا آخر، ومعنى هذا أن رنين النواقيس انتهى.. كل شئ هادئ حول المزرعة إما أن الزرق نيام أو أنهم رحلوا. انتهت مرحلة الخطر خير لنا أن نفترق، هذا وقت سيرى وأشار إلى نقطة عند الأفق واستطرد:

–سأذهب في هذا الاتجاه، ثم أشار إلى الجهة المقابلة

وأردف:

–إذهب أنت في ذلك الإتجاه.

ثم حيا الماركيز، وأشار إلى بقايا العشاء قائلا:

–خذ الكستناء إذا كنت جائعا.

وما هي إلا لحظات حتى اختفى بين الأشجار فنهض الماركيز وسار في الاتجاه الذي أشار إليه تلمارش ولما وصل إلى مفترق الطرق، حيث يوجد الصليب الحجري رأى الإعلان ما يزال ملصقا فوق قاعدته، وتذكر في هذه اللحظة أن هناك كتابة في ذيل الإعلان لم يستطع تلاوتها في الليلة الماضية لصغر حروفها وضآلة النور فاتجه إلى الصليب ورأى في أسفل الإعلان كتابة بحروف صغيرة هذا نصها: "سوف يعدم الماركيز السابق دي لانتناك بالرصاص حالما تتبين شخصيته".

توقيع "قائد جيش الساحل جوفان"

وقف الماركيز جامدا في مكانه، وراح يحدق في الكتابة ويقدح زناد فكره

ويقول:جوفان.. جوفان..

وابتعد الماركيز.. ثم أدار رأسه وألقى نظرة ثانية على الصليب.. وعاد أدراجه وقرأ الإعلان مرة ثانية.. ولما استأنف سيره من جديد كان يردد اسم " جوفان " في صوت خافت..

سار الماركيز في طريق منخفض يمتد حول أرض مرتفعة.. وفيما هو كذلك رن في أذنيه دوى هائل مروع.. هو مزيج من الصراخ ودق الطبول وطلقات البنادق.. صدر من الحقول والغابات المجاورة ثم لمح الماركيز سحبا من الدخان وألسنة من النيران تتصاعد من ناحية المزرعة..

حدث كل هذا فجأة.. واستحال الهدوء السائد ضجيجا يصم الآذان ولم يتمالك الماركيز أن ارتقى المرتفع ووقف عند قمته يستطلع ما يجري، رغم أنه كان في موقفه هذا معرضا للأنظار..سمع دوي الرصاص يتطير في جوانب المزرعة، ورأى ألسنة اللهب تندلع فيها، وسمع الصراخ يدوي في أرجائها وراح يسائل نفسه ترى هل اعتدى الزرق على المزرعة وأعملوا فيها التقتيل والتحريق كشأنهم كلما أرادوا أن يعاقبوا قرية من القرى التي تتهاون في تمهيد الطرق لجيوشهم في ظلمات الغابات ومغاورها؟

تطلع الماركيز إلى الغابات الكثيفة المحيطة بالمزرعة.. وفيما هو في مكانه يضرب أخماسا في أسداس ويتردد بين الوقوف والنزول، تلاشى دوي المجزرة فجأة، وسمع الأصوات تنتقل من المزرعة إلى داخل الغابة كانت مزيجا من دق الطبول وصيحات الفوز والنصر.. وجعلت هذه الأصوات تنتقل بسرعة في الغابة، فأيقن أن أصحابها يطاردون شخصا أو أشخاصا..وفجأة، سمع اسما يتردد صداه على ألف لسان واخترقت أذنيه هذه الصيحات: – لانتناك !.. لانتناك.. الماركيز دي لانتناك !

إذن هم يطاردونه هو دون سواه !

لفصل الخامس

برزت من بين أشجار الغابة فجأة مئات البنادق والحراب والسيوف وبينها علم مثلت الألوان وظهرت سحن وحشية لم يكد يراها الماركيز وهي تردد اسمه، وإنما كانت هي تراه بجلاء في موقفه فوق قمة المرتفع، وكان صراخها يصم الأذان، رفع الماركيز قبعته، وأخرج من جيبه رقعة بيضاء، وتناول عودا من النباتات الشائكة النامية حوله، فشبك الرقعة في القبعة ووضعها ثانية على رأسه ثم رفع رأسه وصاح بأعلا صوته:

– أنا من تبحثون عنه أنا الماركيز دي لانتناك، أمير الغابات، قائد عام جيوش الملك صوبوا.. أطلقوا !

ثم مزق سترته بكلتا يديه وعرض صدره مجردا للعيان وألقى نظرة إلى أسفل متوقعا أن يرى الأسلحة المصوبة إليه فألفى نفسه محوطا برجال راكعين على أقدامهم.. وارتفع صوت يدوي بهذا الهتاف:

– يحيا لانتناك !.. يحيا القائد !

وفي نفس الوقت رأى قبعات ترفع في الهواء، وسيوفا تقذف في فرح وابتهاج، وعصيا تعلوها قلانس من الصوف تهتز في كل مكان، كان الجيش الذي أحاط به هو أحد جيوش (فنديه) وقد ركع أفراده على الأرض تحية له واخترق صفوف الراكعين شاب يرتدي سترة من الفراء وحول وسطه حزام حريري أبيض يتدلى منه سيف ذو مقبص ذهبي. وما كاد يصل إلى الماركيز حتى ألقى قبعته وفك حزامه وركع فوق إحدى ركبتيه على الأرض وقدم الحزام والسيف إلى الماركيز قائلا:
– نحن نبحث عنك حقا، وقد وجدناك، تقبل سيف القيادة، هؤلاء هم رجالك،

كنت قائدهم، أما الآن فإني اتنحى واندمج في الصفوف، أيها القائد، أنا في انتظار أوامرك.

أشار الشاب إشارة خاصة فخرج من الغابة طائفة من الرجال يحملون علما مثلث الألواح هو الذي رآه الماركيز من قبل، وتقدموا ناحية الماركيز ووضعوا العلم تحت قدميه، وقال الشاب:

– أيها القائد.. هذا هو العلم الذي انتزعناه من الزرق الذين استولوا على مزرعة (زهرة الشاطئ).. مولاي، اسمي جافار، وأنا من رجال الماركيز دي لارواري.

قال الماركيز: أحسنتم.. ثم وضع الحزام حول وسطه بهدوء ورزانة وانتزع السيف ولوح به فوق رأسه، وهتف:

– انهضوا !.. يحيا الملك !

فنهض الجميع.. ودوى في الغابة صوت كقصف الرعد:

– يحيا الملك ! يحيا الماركيز ! يحيا لانتناك..

التفت الماركيز إلى جافار وسأله:

– كم عددكم؟

– سبعة آلاف..

وفيما هما ينحدران من المرتفع، استطرد جافار:

– مولاي، الموضوع غاية في البساطة.. ويمكن تلخيصه في كلمات، كنا ننتظر شرارة واحدة لإضرام نار حماستنا، إن المكافأة التي أعلنتها الجمهورية حينما كشفت عن وجودك أثارت كل الإقليم واستنهضته من أجل الملك، وفوق ذلك فقد وردنا إخطار سري من عمدة جرانفيل الذي هو من رجالنا، وفي الليلة الماضية قرعوا جميع

الأجراس.

– لمن؟

– لك.

فقال الماركيز: آه !

واستطرد جافار: وها نحن أولاء.

– وعددكم سبعة آلاف؟

– اليوم.. وسنكون ضعف هذا العدد غدا. كنا واثقين من وجودك في أحد جوانب هذه الغابة، وأخذنا في البحث عنك.

– وهاجمتم الزرق في مزرعة (زهرة الشاطئ)؟

– إن اتجاه الرياح حال دون سماعهم دقات النواقيس.. ولم يرتابوا في شئ.. وقد استقبلهم أصحاب المزرعة الأغبياء استقبالا حسنا.. وفي صباح هذا اليوم أحطنا بالمزرعة.. وكان الزرق نياما.. فقضينا عليهم.. عندي جواد.. فهل تتنازل بقبوله أيها القائد؟

– نعم.

قاد أحد الفلاحين جوادا أبيض ودنا به من الماركيز.. فامتطاه بغير المساعدة التي قدمها إليه جافار.. فهتف الفلاحون إعجابا

حيا جافار تحية عسكرية وقال:

– أين تجعل مقر القيادة يا مولاي؟

– في غابة (فوجير) أولا.

– هي إحدى غاباتك السبع يا مولاي الماركيز.. أنا في انتظار أوامرك أيها

القائد.

– أولا.. ليكن ملتقانا في غابة فوجير.. اطلب إلى الرجال أن يتفرقوا وأن يذهبوا إلى هناك.

غاب جافار قليلا ثم عاد قائلا:

– أعطيت الأوامر.

– ألم تخبرني بأن أصحاب المزرعة أحسنوا استقبال الزرق؟

– نعم يا سيدي القائد.

– هل أحرقتم البيت الرئيسي فيها ؟

– نعم.

– هل أحرقتم القرية؟

– لا.

– احرقوها.

– إن الزرق حاولوا الدفاع عن أنفسهم. لكنهم كانوا مائة وخمسين ونحن سبعة آلاف.

– من أين هم؟

– من باريس، وكان لهم راية شعارها (الفرقة الحمراء)

– هم حيوانات متوحشة.

– ماذا نفعل بالجرحى؟

– اجهزوا عليهم.

– وماذا نفعل بالأسرى؟

– اعدموهم.

– هم حوالي ثمانين رجلا.

– إعدموهم جميعا.

– بينهم امرأتان.

– اعدموهما كذلك.

– وثلاثة أطفال.

– إحملوهم. سنقرر فيما بعد ماذا نصنع بهم.

وهمز الماركيز جواده وابتعد به.

الفصل السادس

بينما كانت هذه الحوادث تقع في جوار (تانيس) كان المتسول يهيم على وجهه في اتجاه (كرولون) أخذ يتنقل بين الحقول والغدران مستسلما لأحلامه لا يفكر في شئ وكان يسمع بين حين وآخر صدى الصراع الدائر فيقف قليلا، ثم يستأنف سيره غارقا في سحر الطبيعة مستمعا إلى تغريد الأطيار. وكان إذا تعب يستريح، وإذا جاع يأكل من الثمار الجافة التي يصادفها، وإذا عطش ينهل من الجداول الجارية ولما أقبل المساء وصل إلى بقعة مكشوفة يشرف الناظر منها على الأفق الغربي.. فاسترعى نظره عن بعد عمود من الدخان رأى من كثافته واختلاطه بألسنة حمراء ما أقلقه وأثار وساوسه.

كان الدخان صادرا من ناحية مزرعة (زهرة الشاطئ) فأسرع تلمارش في سيره متجها إلى مصدر الدخان. ومع أنه كان متعبا إلا أن رغبته في الوقوف على الحقيقة جعلته يتغلب على تعبه.

ووصل إلى قمة تل تقع المزرعة والقرية في نهايته. فلم يجد أمامه مزرعة ولا قرية بل رأى كوما من الخرائب يحترق. هو ما بقي من (زهرة الشاطئ).

وقف تلمارش في مكانه جامدا. لم يسمع صوتا بشريا. بل كانت ألسنة النار تأتي على ما بقي من القرية في سكون. وكان الدخان ينكشف أحيانا فيستقر عن سقوف هاوية تحتها غرف تتوهج فيها بقايا الأثاث المحترق.

أصغى تلمارش لعله يسمع صراخا أو استنجادا فلم يسمع شيئا.. أين ذهب أصحاب القرية الذين كانوا يقيمون في أرجائها ويكدون؟ هل أفلتوا جميعا ونجوا بأنفسهم؟.

هبط تلمارش التل، وتقدم إلى المزرعة وكأنه شبح يتنقل في أرجاء مقبرة، وما كاد يصل إلى بيت المزرعة الرئيسي ويطل على الفناء حتى رأى أكداسا من الرجال. فارقتهم معالم الحياة، ورأى حولهم بركة عظيمة ينبعث منها دخان يسير.. هي بركة من الدماء.

تقدم تلمارش إلى الموتى وراح يلقي عليهم نظرة فاحصة في ضوء القمر ولهب الحريق.

كانوا جنودا يرتدون كسيا زرقاء، وقد جردت أقدامهم من أحذيتها ونزعت أسلحتهم. ورأى حولهم قبعات متناثرة تحمل شارات مثلثة الألوان.. عرف فيهم فرقة الجمهوريين الذين نزلوا في المزرعة في الليلة الماضية وعسكروا فيها.. ورآهم مكدسين بنظام فأدرك أنهم أعدموا جميعا بالرصاص..

وفيما هو يتأهب للإنصراف وقع نظره على جدار منخفض في الفناء، ورأى أربع أقدام بارزة من أحد أركانه..

كانت الأقدام صغيرة تحمل أحذية.. فدنا تلمارش منها، ورأى امرأتين راقدتين جنبا إلى جنب خلف الجدار.. وقد اعدمتا بالرصاص مثل الجنود...

انحنى تلمارش فوق المرأتين.. فوجد إحداهما ترتدي شبه سترة رسمية... فعرف فيها (زميلة) الفرقة، ورأى في رأسها آثار أربع رصاصات.. فحص تلمارش المرأة الثانية... عرف فيها إحدى الفلاحات... وكانت متقلصة الملامح مفتوحة الفم مغمضة العينين، ولم يجد جرحا برأسها..

كانت ملابسها التي أبلاها طول السير مشوشة فوق جسدها بتأثير سقطتها.. وقد كشفت عن صدرها... فأزاح تلمارش هذه الملابس قليلا ورأى أحد كتفيها مثقوبا برصاصة هشمت الأضلاع..

ثم ألقى نظرة على صدرها المتقلص وغمغم:

- أم ترضع..

لمسها تلمارش بيده.. فلم يجدها باردة.. ولم ير بها سوى الجرح والتهشيم فوق كتفها.. وضع يده على قلبها، فأحس بخفق ضعيف... لم تكن ميتة..وسرعان ما هتف تلمارش بصوت مروع:

- ألا يوجد أحد هنا؟

أجابه صوت شديد الخفوت لا يكاد يسمع:- هل أنت تلمارش؟.. وفي نفس اللحظة برز وجه من بين الخرائب. وتلاه رأس من إحدى الفتحات.. وإذا هما فلاحان كانا مختبئين.. وقد بقيا وحدهما من الكارثة ولما سمعا صوت المتسول اطمأنا وخرجا من المكان الذي اعتصما به..تقدما إلى المتسول الكهل وهما ينتفضان بشدة.. فأشار بيده إلى المرأة الممددة تحت قدميه، وقد عجز عن الكلام.

قال أحد الفلاحين: هل بها رمق من الحياة؟.

أومأ تلمارش برأسه إيجابا، بينما قال الفلاح الثاني:

- هل المرأة الثانية على قيد الحياة؟

هز تلمارش رأسه سلبا.. وقال الفلاح الأول:

- الجميع أموات.. إني رأيت كل شئ.. كنت في مخبئي.. كم أشكر الله لأني لم أكن ذا عائلة.. إن بيتي احترق.. وقد قتلوا كل إنسان.. كان لهذه المرأة ثلاثة أطفال صغار. هتف الأطفال مذعورين: " أمي ! ".. وصرخت الأم مجنونة " أولادي ! "، وقد ذهب القتلة بعد أن تموا المجزرة.. ذهبوا راضين مسرورين.. حملوا معهم الأطفال بعد أن أطلقوا الرصاص على أمهم..

– إني رأيت كل شئ بعيني رأسي لكنها لم تمت.. ألم تقل ذلك؟ هل يمكن انقاذها؟ هل تحب أن نساعدك في حملها إلى كهفك؟

أومأ تلمارش برأسه إيجابا..صنعوا نقالة من أغصان الأشجار ووضعوا المرأة فوقها.. وحمل الفلاحان النقالة وسارا إلى كهف المتسول في الغابة التي كانت قريبة، بينما أمسك تلمارش بذراع المرأة وراح يتحسس نبضها..

وفيما هم يسيرون راح الفلاحان يتبادلان الكلام في يأس وجنون:

– قتلوا الجميع !.. وأحرقوا كل شئ ! هذا فظيع ! هذا مروع !

– رباه !. هل تسير الأمور على هذه الوتيرة منذ الآن؟

– إن ذلك الرجل الطويل هو الذي أمر بهذه الفظائع..

– نعم. هو الذي تولى القيادة.

– لم أنظر وقت إطلاق الرصاص.. هل كان موجودا ؟

– لا.. ذهب.. لكن لا فرق.. فقد ارتكبت هذه الفظائع بأمره

– إذن فهو مرتكب كل شئ.

– إنه قال لهم: اقتلوا.. احرقوا.. لا ترحموا.

– هو ماركيز.. هو الماركيز لانتناك.

رفع تلمارش عينيه إلى السماء حينما سمع هذه الكلمات وغمغم:

– لو كنت أعرف !

الجزء الثاني

في باريس

القسم الأول

سيموردان

قد يتبادر إلى الأذهان أن باريس الثائرة نعمت بالرخاء والطمأنينة في أول عهدها بالجمهورية.. والواقع أن السنوات الأولى من الثورة كانت كابوسا رائعا ثقلت وطأته على جميع النفوس بلا استثناء.. وما وافى عام ١٧٩٣ وهو العام الرابع من تاريخ الثورة حتى وقع رد فعل ملحوظ في نفسية الجماهير.. وبدأ التعطش في القتل وسفك الدماء يميل إلى الدعة والاستمتاع بالحياة والتنفس في جو خال من الضغط والإرهاب.

على أن عام ١٧٩٣ امتاز بظاهرة أخرى.. ففيه أشهرت أوروبا الحرب على فرنسا، وأشهرت فرنسا الحرب على باريس.. ولما كانت الثورة هو انتصار فرنسا على أوروبا، وباريس على فرنسا، فقد كان لهذا العام خطورته في تاريخ الثورة.. وأدرك الباريسيون هذه الحقيقة فأخذوا يستميتون في الدفاع عن كيان ثورتهم التي حققوها فوق أنهار من الدماء وأكداس من الضحايا.. ومن هنا كانت جيوش المتطوعين من أهل باريس تتدفق إلى ميادين القتال، وكان كل شارع يكون فرقة بأسرها، ولكل فرقة شعارها الخاص

وكان لخطباء الجماهير في ذلك العهد نفوذهم الكبير وتأثيرهم القوي في استنهاض النفوس وإضرام نار الحماسة في الصدور، ومنهم من كان مخلصا في نزعته لا ينشد سوى خير الجمهورية الفتية الناشئة، ومن كان مغرضا يرمي إلى مطامع خاصة ونزوات ذاتية.

كان سيموردان من الفريق الأول. وقد ظفر من الجماهير بالحب والتقدير والاحترام.

نشأ شماسا في إحدى القرى، اتخذت منه إحدى الأسر النبيلة مربيا لولدها. ثم آل إليه ميراث يسير فنال حريته، واستقل بنفسه.

كان سيموردان عالما مثقفا، وتشيع للحرية حتى أصبحت عقيدته المتأصلة وامتزجت بدمه. ولما نشبت الثورة انضم إليها وكان من أركانها القوية وألسنتها الناطقة، واكتسب في نفوس الجماهير منزلة كبيرة لرجاحة عقله وإخلاصه.. وصرامته الشديدة في الدفاع عن الجمهورية، حتى كان يخشاه أساطينها ويحسبون حسابه، وينزلون على رأيه.

كان في الوقت الذي وقعت فيه حوادث هذه الرواية في الخمسين من عمره. وملامحه تدل على خلقه ونفسيته. فهو أصلع الرأس عريض الجبهة، ثاقب النظر، مطبق الشفتين، تلوح على وجهه دلائل الشمم.

قلنا إن إحدى الأسر النبيلة اتخذت من سيموردان في شبابه مربيا لولدها.. كانت هذه الأسرة من أعرق العائلات في الأقاليم، لها طفل يتيم مات أبواه ولم يبق له سوى جدة كفيفة وعم ذي مركز عسكري كبير في البلاط الفرنسي كان يقتضيه الغياب الدائم عن مقر الأسرة وحصنها التاريخي القديم.. فلما عهد بالطفل الصغير الغض إلى يدي سيموردان المربي، صاغ منه رجلا بث في روحه المتفتحة أفكاره وعقائده في الحياة ومثله العليا. وبعبارة موجزة أفرغ في نفس هذا النبيل روح الرجل الشعبي.

كان سيموردان لهذا الطفل بمثابة الأب، وأحبه حبا ملك عليه وجدانه.. بل إن هذه الرابطة الروحية التي تصل سيموردان بتلميذه كانت أوثق وأعمق من صلات

الأبوة.

وحينما كان الابن في دور الطفولة انتابه مرض قاتل.. فعكف سيموردان على تمريضه وواصل الليل بالنهار في السهر عليه حتى نجا من الموت.. وهكذا كان الطفل مدينا لسيموردان بحياته الجسدية والعقلية..

ثم جاء دور الفراق بعد أن اكتمل نمو الابن جسدا وعقلا وأصبح شابا يافعا.. فانتقل الشاب النبيل إلى صفوف الجندية التي كان فيها ضابطا بالوراثة. وانزوى سيموردان في عالمه الكهنوتي، ولم يعد يرى تلميذه. ولما جاءت الثورة وأصبح سيموردان من أعلامها البارزة لم تنسه مشاغلها المتعددة ذكرى تلميذه الذي تربع في قلبه وأحبه من دون الحياة والناس جميعا.

لكن هل يمكن لمثل سيموردان الجمهوري المتصلب أن يقف بمعزل عن هذا الحب وأن يعمل غير متأثر به وألا يستجيب لسلطانه؟

القسم الثاني

حانة شارع دي باون

الفصل الأول

كان يوجد بشارع دي باون في باريس حانة لها غرفة خلفية، امتازت بالإجتماعات السرية الخاصة التي كان يعقدها فيها رجال من ذوي النفوذ الكبير، حيث يتداولون بحرية في معزل عن أعين الجماهير التي كانت تلازمهم في كل وقت وكل مكان. فحوالي الساعة الثامنة من مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٧٩٣، اجتمع بالغرفة الخلفية في الحانة المذكورة ثلاثة رجال جلسوا متباعدين حول طاولة مربعة، كل أمام جانب، وتركوا الجانب الرابع حاليا..

كان أول هؤلاء الثلاثة شابا شاحب اللون رقيق الشفتين بارد النظرات رزين الحركات.. كان يعطر شعره ويرتدي سترة زرقاء أنيقة وربطة بارزة وقفازا ووجوارب بيضاء وحذاء بأزرار فضية..وكان أحد الرجلين الآخرين ماردا والثاني قزما.. فالأول يرتدي سترة حمراء تكشف عن هندامه المشوش وحذاء طويلا.. وهو خشن الشعر، أشعثا، تغطي وجهه آثار جدري، وتلوح على وجهه دلائل المزاج الناري.. غليظ الشفتين، كبير الأسنان، ضخم اليدين، ملتهب العينين..والثاني قصير القامة، مشوه الخلقة، ضيق الجبهة، ضخم الفم، يرتدي سترة مهدلة يبدو من تحتها خنجر..كان الأول روبسبير.. والثاني دانتون.. والثالث مارا.. وهم جبابرة الثورة الفرنسية.. وزعماؤها الدمويون.

جلس الثلاثة وحدهم في الغرفة وكان العام دانتون رجاجه من النبيذ وكأس.. وأمام مارا قدح من القهوة.. وأمام روبسبير طائفة من الأوراق.. ومحبرة وختم، وفي منتصف الطاولة خريطة تمثل فرنسا أما خارج الباب فقد وقف تابع مارا المدعو " لوران باس "، وأعطيت إليه الأوامر ألا يسمح بدخول أحد إلى الغرفة إلا إذا كان من رجال (لجنة الأمن العام)، أو من (مجلس الأمة).

الفصل الثاني

تليت أوراق أمام روبسبير وطالت المناقشة بين الزعماء الثلاثة في غير جدوى، وعلت أصوات الغضب والحدة وأخيرا نهض دانتون بسرعة ودفع مقعده إلى الخلف، وهتف:

– اسمعا ! هناك شئ بارز.. هو الخطر على الجمهورية، إني أعرف شيئا واحدا فقط، هو إنقاذ فرنسا من العدو ولإدراك هذه الغاية تبرر كافة الوسائل، حينما أواجه أخطارا متضافرة استخدم كل سلاح وأستعين بكل وسيلة، لا تردد، ولا تخاذل، ولا حلول عرجاء، لنكن مرعبين نافعين، لابد من سحق العدو.

أجاب روبسبير بوداعة: هذا كلام طيب.. لكن نحب أن نعرف أين العدو؟

فأجاب دانتون: العدو في الخارج، وقد توليت مطاردته

فقال روبسبير: بل هو في الداخل، وأنا أراقب حركاته

فاستطرد دانتون: وسأستمر في تعقبه وطرده

– لكن الإنسان لا يطرد عدوا داخليا

– وماذا تفعل إذن؟

– أستأصله..

_ أنا معك في هذا الرأي، على أني أقرر لك يا روبسبير أن العدو في الخارج

– وأنا أقرر لك يا دانتون أنه في الداخل..

– العدو على الحدود يا روبسبير

– بل هو في (فنديه) يا دانتون

وهنا تدخل مارا قائلا: إهدأ.. العدو في كل مكان، وأنتم هالكون نظر روبسبير إلي مارا وقال بهدوء:

– هذا كلام عام.. أنا أخصص، ها هنا الحقائق

فقال مارا: هذا تهويل

وضع روبسبير يده على الأوراق التي أمامه واستطرد:

– إني تلوت التقارير الواردة من حاكم مقاطعة المارن، والبيانات المقدمة من الجاسوس جيلامبر اصغ إلى يا دانتون، الحرب الخارجية ليست شيئا، والحرب الأهلية هي كل شئ، وملخص ما قرأته أن " فنديه " التي كانت حتى اليوم موزعة بين قواد متعددين قد انضمت تحت لواء قائد واحد، هو الرجل الذي نزل إلى الساحل الفرنسي في الثاني من شهر يونيو الحالي، وقد عرفت من هذه الأوراق من هو وما هي شخصيته، إن حروب الغابات تتشعب ويتسع نطاقها، وفي نفس الوقت تتخذ المعدات في انجلترا لغزو الساحل الفرنسي.. هو تحالف بين أهل " فنديه " وبين الانجليز وحالما يتم استعداد الفلاحين وتتوحد صفوفهم سينزل الإنجليز إلى البر.. أنظر إلى الخطة التي سيتبعونها فوق هذه الخريطة سيسير الجيشان المتحالفان من أقاليم " فنديه " إلى مقاطعات "بريتاني" ومن هذه إلى " نورماندي "، حيث الطريق مفتوح إلى باريس...

كان دانتون قد عاد إلى مقعده واتكأ بمرفقيه إلى الطاولة ووضع رأسه بين راحتيه مستسلما للتفكير، فلما أتم روبسبير كلامه لطم دانتونس الخريطة بيديه الضخمتين وقال:

– روبسبير.. ألم يهدد البروسيون باريس من فردون؟

– حسنا...

– سوف نطرد الإنجليز كما طردنا البروسيين..

ثم نهض دانتون ثانية، فوضع روبسبير يده على قبضته الملتهبة وقال:

– اسمع يا دانتون.. كانت الأولى حربا خارجية.. أما الآن فهي داخلية.. وهذا فارق خطير.. اجلس يا دانتون.. وانظر إلى الخريطة بدل أنها تلطمها بقبضتك.

لكن دانتون تحمس لرأيه وصاح:

– من الجنون أن نلتمس العدو في الغرب وهو في الشرق ! أسلم لك يا روبسبير أن انجلترا تستعد في البحر.. لكن أسبانيا تتأهب عند الحدود الجنوبية الغربية، وإيطاليا في جبال الألب، وألمانيا على ضفاف نهر الرين، والدب الروسي من ورائها.. الخطر في دائرة يا روبسبير. ونحن في قلبها.. وقوادنا يخونوننا ويتآمرون علينا مع الأعداء الذين يضعون أيديهم شيئا فشيئا على المواقع الفرنسية.. ألم تر برنسويك الذي يتقدم بإطراد ويرفع العلم الألماني على كل شبر يستولي عليه من الأرض الفرنسية.. لو استمرت الأمور على هذا النحو قمنا بالثورة لمصلحة بروسيا..

وما كاد دانتون يتم قوله حتى ضحك ضحكة مرعبة، فابتسم مارا وقال:

– لكل منكما شيطانه ! شيطانك يا دانتون في بروسيا. وشيطانك يا روبسبير في " فنديه ".. أما أنا فسأسرد الحقائق بدوري. أنتما تجهلان الخطر الحقيقي، هو في المقاهي والمنتديات، فهي مختلفة المذاهب متعددة النزعات والآراء. منها الملكي ومنها الجمهوري. وكل منها يتشبع لفريق دون فريق. ويحمل على هذه السياسة ويحبذ تلك ينتقد هذا الزعيم ويتعصب لذلك. هذه مسائل لها خطورتها وتأثيرها.

وكف دانتون عن ضحكه، غير أنه قال:

– هل تستغفل نفسك يا مارا؟

تلاشت ابتسامة مارا، وراح يقول:

– إني أعرفك أيها المواطن دانتون. فأنت الذي وقفت في وسط " مجلس الأمة " ونعتني باسم " الشخص مارا ". اسمع ! إني أصفح عنك. هل استغفل نفسي حقا؟ أنظر ما قمت به من الأعمال. إني فضحت كثيرين من أفراد الثورة البارزين وكشفت عن مساوئهم ونواياهم. إني أشم خيانة الخائن. ومن الخير أن أكشف أمره قبل أن يقدم على ارتكاب جريمته. أنا الذي يقول في الصباح ما تقوله أنت وسواك في اليوم التالي. بفضلي استصدرت تشريعات متعددة ونفذت مقترحات عملية كان من شأنها تدعيم الجمهورية وهي تترد اليوم على كل لسان. هل نسيت أيها المواطن دانتون أنك كثيرا ما التمست رأيي وعملت بمشورتي؟ أنت صورة من روبسبير. وروبسبير صورة منك. ليس هناك سياسي غيري. أنت في حاجة إلى تعلم مبادئ السياسة وأصولها. إن ما أريد قوله هو هذا: كلاكما يخدع نفسه. ليس الخطر في لندن كما يعتقد روبسبير. ولا في برلين كما يظن دانتون بل هو في باريس. هو يتمثل في انهدام الوحدة. وفي حرية التنقل من حزب إلى حزب، وسهولة اعتناق المذاهب والآراء. الخطر فوق رءوسكم ! وتحت أقدامكم ! هو هذه المؤامرات التي تدبر في كل مكان. وهذا الهمس الذي يتصاعد شيئا فشيئا من الأفواه..

ثم رفع مارا صوته فجأة واستطرد:

– نحن في حاجة إلى دكتاتور ! لنتفق أولا.. فالموقف خطير. كلاكما قال جانبا من الحقيقة. أما الحقيقة كلها فهي ما أقول. في الجنوب حكومات الاتحاد. وفي الغرب معاقل الملكية. وفي باريس صراع الأحزاب والهيئات. وعلى الحدود خيانة الخونة وانهزام الجيوش.. فما معنى هذا كله؟ معناه التفكك والانحلال. وماذا يلزمنا؟ يلزمنا الاتحاد في هذا الاتحاد نجاتنا. فلنسرع باتخاذ هذه الخطوة. لابد أن تستعيد

باريس حكومة الثورة.. إذا تأخرنا ساعة واحدة فستصل جيوش فنديه إلى أورليان، ويدخل البروسيون باريس.. إني أسلم لكما بهذا. فالخطوة السريعة والعلاج الحاسم هو الدكتاتورية لنتسلم مقاليد الدكتاتورية نحن الثلاثة ممثلي الثورة.

قال دانتون حينما فرغ مارا من كلامه:

– إن مارا يتكلم كثيرا عن الدكتاتورية والاتحاد، لكن له مقدرة واحدة هي الهدم والتحطيم

وقال روبسبير: إني أفضل الفوضى على دكتاتوريتك المزعومة.

هتف مارا حينما سمع هذه الكلمات:

– روبسبير ! دانتون ! لا تريدان أن تستمعا لكلامي .. لا بأس. كلاكما هالك. وهذه الوسائل التي تتبعانها ستغلق في وجهكما كل باب، إلا باب المقبرة.

تغرس مارا في وجه صاحبيه، وتراجع إلى الباب يريد الخروج، وحياهما قائلا:

– وداعا أيها السادة.

في هذه اللحظة سمع صوت في الغرفة يقول هذه الكلمات:

– أنت مخطئ يا مارا.

الفصل الثالث

التفت الثلاثة، فإذا شخص دلف إلى الغرفة من الباب الكائن في أقصاها إبان احتدام المناقشة، دون أن يفطنوا إليه.

قال مارا: هذا أنت أيها المواطن سيموردان؟

كان القادم هو سيموردان حقا. وردد عبارته الأولى قائلا:

– أقرر أنك مخطئ يا مارا.

امتقع وجه مارا، بينما استطرد سيموردان:

– أنت نافع.. لكن روبسبير ودانتون لازمان. لم تهددهما؟ الاتحاد.. الاتحاد أيها المواطنون ! الناس ينتظرون الوحدة.

كان لدخول سيموردان تأثير الماء البارد ينصب فوق الرءوس.. على أنه إذا لم يشف دخائل النفوس، فقد سكن الظواهر.تقدم سيموردان إلى الطاولة.. كان الثلاثة يعرفونه. فقد طالما شاهدوه في جلسات " مجلس الأمة " حيث كان موضع التحية والإجلال من الجماهير.

رأى دانتون اضطراب مارا أمام سيموردان، فعلم أنه يخشاه. فمد له يده قائلا:

– جئت في الوقت المناسب أيها المواطن سيموردان، لنشرح له الموقف.. أنا أمثل حزب " الجبليين " وروبسبير يمثل " لجنة الأمن العام "، ومارا يمثل " الكومين"، وسيموردان يحكم بيننا

فقال سيموردان ببساطة ورزانة: قبلت.. ما هو موضوع الخلاف؟

فأجاب روبسبير: هو " فنديه "

فقال سيموردان: " فنديه " ! هنا الخطر الأكبر.. إذا استهدفت الثورة للهلاك، فسيكون هلاكها عن طريق " فنديه ".. إن " فنديه " وحدها أخطر من ألمانيا عشرات المرات.. ولكي تعيش فرنسا، يجب القضاء على " فنديه " وإخماد ثورتها.

اكسبت هذه الكلمات القلائل سيموردان ولاء روبسبير.. ثم استطرد:

– ماذا يحدث الآن في " فنديه "؟

فأجاب روبسبير: إن " فنديه " وجدت زعيما وأصبحت خطرا مروعا..

– من هو زعيمها أيها المواطن روبسبير؟

– الماركيز السابق دي لانتناك الذي يعد أميرا في تلك المقاطعة..

أبدى سيموردان حركة خاصة، وقال:

– إني أعرفه.. كنت مربيا في بيته.. وكان من أبطال القصور قبل أن يصبح جنديا..

فقال روبسبير: هو رجل مخيف.. يحرق القرى.. ويقضي على الجرحى.. ويذبح الأسرى.. ويقتل النساء..

– النساء !

– نعم.. إنه قتل فيمن قتل أما لثلاثة أطفال.. ولا يعرف أحد ماذا صار إليه أمر الأطفال الثلاثة.. هو قائد حقيقي.. يفهم معنى الحروب..

– ومتى وصل إلى " فنديه "؟

– منذ ثلاثة أسابيع..

– لابد من اعتباره متمردا..

– تمت هذه الخطوة.

– ويجب وضع ثمن لرأسه..

– تم هذا..

– واعداد مكافأة لمن يعتقله..

– تم هذا..

– وتمنح قيمتها ذهبا

– تم هذا..

– ويجب أن يعدم بالمقصلة..

– سيتم هذا..

– ومن يتولى هذه المهمة؟

– أنت أيها المواطن سيموردان.

– أنا !

– نعم.. ستعين مندوبا مفوضا من قبل " لجنة الأمن العام " وتزود بسلطة مطلقة.

فقال سيموردان: قبلت..

كان روبسبير بارعا في سرعة اختيار الرجال، شأن السياسي المنحك ولم يلبث أن أخرج من حقيبة أوراقه رقعة من الورق الأبيض مطبوعا على رأسها هذا العنوان بحروف كبيرة: " الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ – لجنة الأمن العام "

استطرد سيموردان: نعم.. قبلت.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. لانتناك رجل

صارم شديد الشراسة.. سأكون مثله.. سأشهر عليه حرب الموت. سأخلص الجمهورية منه بإذن الله. على أني أحذرك. فإن هذا القائد من النبلاء.

فهتف دانتون: هذه مسألة ثانوية. النبلاء كالقسس، إذا أخلص أحدهم كان مضرب الأمثال.. لا تنس يا روبسبير أن كثيرين من رجال الثورة المعروفين كانوا من النبلاء.. إن مونتو صديق مارا الحميم هو الماركيز مونتو.. وبين رجال " المحكمة الثورية " اثنان من خيرة المحلفين.. أحدهما قس والثاني نبيل.

فقال مارا: لكن هذا لم يمنع دانتون أن يقول يوما ما بأعلا صوته: " النبلاء جميعا خونة، وأولهم ميرابو خطيب الثورة الفرنسية "

تدخل سيموردان وقال بلهجته الرزينة:

– أيها المواطن دانتون.. أيها المواطن روبسبير.. ربما كنتما محقين في ثقتكما، لكن الشعب لا يثق بهم.. والشعب غير مخطئ فيما يذهب إليه.. حينما يعهد إلى أحد القسس بالإشراف على أحد النبلاء، تتضاعف مسئوليته، ويلزمه أن يكون صلبا لا يلين. جبارا لا مسئوليته، ويلزمه أن يكون صلبا لا يلين. جبارا لا يرحم..

فقال روبسبير: أحسنت أيها المواطن سيموردان.. ستكون مفوضا بالسلطة اللازمة لدى شاب في نصف سنك. فعليك أن ترشده ولكن في حزم وروية. هو يبدو ذا مواهب عسكرية ممتازة. وقد أجمعت كافة التقارير على ذلك. وفي ظرف خمسة عشر يوما استطاع أن يصد الماركيز دي لانتناك المحنك وأن يمنع تقدمه. بل هو يدفعه أمامه، بل سوف يقذفه إلى البحر. إن لانتناك له دهاء القائد الخبير وجرأة الشباب. وخطته قائمة على إثارة نصف مليون من الفلاحين، وإنزال الانجليز إلى البر. لكن القائد الشاب يقاومه ويلزمه التقهقر دون حاجة إلى مساعدة من القواد المجاورين. ومن هنا ثار الحسد ضده واختلفت الآراء في شأنه. فالقائد ليشيل يريد

إعدامه. وحاكم المارن يريد تنصيبه قائدا عاما.

فقال سيموردان: يبدو أن هذا الشاب يمتاز بمواهب عظيمة.

فقال مارا مقاطعا: لكن له نقطة ضعف بارزة.

فقال سيموردان: وما هي؟

فأجاب مارا: الرحمة والطيبة. هو صارم في ميدان القتال. ضعيف بعد المعركة. هو يعفو. ويرحم. ويحمي الراهبات. وينقذ زوجات النبلاء وبناتهم. ويفرج عن الأسرى والقسس.

فغمغم سيموردان: هذا ضعف خطير.

فقال مارا: بل جريمة.

وقال روبسبير: غالبا.

فقال مارا: بل دائما.

فقال سيموردان: نعم.. دائما إذا كان الإنسان يناضل أعداء الوطن.

فالتفت إليه مارا وقال له: وماذا تفعل بزعيم من زعماء الجمهورية إذا أفرج عن زعيم من زعماء الملكية؟

– إني أعمل برأي القائد ليشيل.. إني أعدمه بالرصاص.

فقال مارا: أو بالمقصلة.

فقال سيموردان: قد يترك له أن يختار.

فقال مارا: وإذا تخاذل قائد جمهوري، فهل تقطع رأسه أيها المواطن سيموردان؟

– في ظرف أربع وعشرين ساعة.

فقال مارا: حسنا.. إني أقر رأي روبسبير. يجب أن يوفد المواطن سيموردان مندوبا مفوضا من قبل " لجنة الأمن العام " إلى قائد جيش الساحل.. ما اسم هذا القائد؟

فأجاب روبسبير: هو نبيل سابق.

وراح يقلب الأوراق التي أمامه، بينا قال دانتون:

– ليعهد إلى القس بمراقبة النبيل. إني أرتاب في القس حينما يكون وحده. وأرتاب في النبيل حينما يكون وحده. أما إذا اجتمعنا فلا أخافهما. كلاهما يراقب الآخر ويسلكان سلوكا طيبا.

بدت على وجه سيموردان دلائل العزة والشمم، غير أنه لم يعترض دانتون لاعتقاده في صواب هذه الملاحظة، وقال في لهجة خطيرة:

– إذا ارتكب القائد الجمهوري الذي يعهد إلي بالإشراف عليه غلطة واحدة، فعقابه الموت.

قال روبسبير وهو ينظر في أوراقه:

– هذا هو اسمه أيها المواطن سيموردان. إن القائد الذي ستفوض عنده بسلطة كاملة هو فيكونت سابق. واسمه جوفان.

امتقع وجه سيموردان وهتف: جوفان !

لمح مارا هذا الامتقاع الفجائي.. وردد سيموردان كلامه:

– الفيكونت جوفان !

فقال روبسبير: نعم.

وقال مارا وهو يتفرس في وجه القس: حسنا.

ساد يكون قصير.. قطعه مارا قائلا:

– أيها المواطن سيموردان.. هل تقبل مهمة المندوب المفوض لدى القائد جوفان بالشروط التي قررتها؟

فأجاب سيموردان وقد اشتد امتقاع لونه: نعم أقبلها.

تناول روبسبير القلم وغمسه في المحبرة وحرر بضعة أسطر فوق الرقعة التي يعلوها شعار " لجنة الأمن العام " ووقعها باسمه.. ثم أعطى القلم والرقعة إلى دانتون الذي أضاف إليها توقيعه.. وأخيرا وقع مارا بدوره دون أن تفارق عيناه وجه سيموردان المتقلص.

تناول روبسبير الرقعة وحرر التاريخ وأعطاها إلى سيموردان، فطالع فيها ما يلي:

" يمنح المواطن سيموردان ومندوب " لجنة الأمن العام " سلطة مطلقة وتفويضا تاما لدى المواطن جوفان قائد جيش الساحل "

" روبسبير "

" دانتون "

" مارا "

وكتب تحت هذه التوقيعات تاريخ " ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٣ ".

كان مارا يراقب سيموردان وهو يطالع هذا التفويض، وقال في صوت خافت كأنما يخاطب نفسه:

– يلزم تعزيز هذا الأمر بمرسوم من " مجلس الأمة " أو بتفويض معتمد من " لجنة الأمن العام "كاملة.. لابد من خطوة أخرى مكملة في هذا الشأن.

فقال روبسبير: أين تقيم أيها المواطن سيموردان؟

– في ميدان " الشهداء ".

فقال دانتون: أنت جاري إذن.

فاستطرد روبسبير: لن نضيع دقيقة واحدة، سيسلم لك غدا تفويض رسمي كامل معتمد من كافة أعضاء " لجنة الأمن العام " وسيكون بمثابة تعزيز لسلطتك لدى حاكم مقاطعة المارن فيليبو وسواه.. نحن نعرف مواهبك ونقدر كفاياتك.. سيكون في مقدورك أن تخلق من جوفان قائدا عاما أو ترسله إلى المقصلة.. وسيرسل لك التفويض غدا في الساعة الثالثة مساء.. متى تسافر؟

فأجاب سيموردان: في الساعة الرابعة.

القسم الثالث

مارا في " مجلس الأمة "

في قاعة ممتدة فسيحة في الطابق الأرضي بقصر " التويلري "كان ينعقد " مجلس الأمة " وأول ما يأخذ الداخل إليها تمثال عظيم يمثل الحرية، منتصب في صدر القاعة بين نافذتين كبيرتين، وفي وسط هذه القاعة الرحبة مدرج كبير على هيئة نصف دائرة يشمل مقاعد ممثلي الأمة، وأمامه منصة مرتفعة للخطابة.. وحول هذه الدائرة شرفة تمتد حول جدران القاعة، كانت تحتلها جماهير الشعب لحضور اجتماعات " مجلس الأمة " والاشراك في مداولاته، في هذا " المجلس "كان يشترك أفراد الشعب وممثلوه في تقرير المصائر وإصدار الأحكام، ومنه صدرت القوانين والحقوق التي قامت عليها الجمهورية الفرنسية.

ففي صباح اليوم التالي لذلك الاجتماع الذي تم في الغرفة الخلفية في حانة " باون "، قصد مارا إلى " مجلس الأمة " حيث كان منعقدا في هذا الوقت، كان من أعضاء المجلس ماركيز من أنصار مارا يدعى لويس دي مونتو.. وقد انتحى جانبا مع عضو آخر يدعى شابو، وأخذ الاثنان يتبادلان حديثا خاصا، وقت وصول مارا. كان ظهور مارا في المجلس يقترن دائما بهمس شديد، لكن هذه الأصوات كانت تصدر بعيدا عنه، أما بقربه فكانت الألسنة تصمت والعيون تحدق، ولم يكن مارا يحفل بهذه الحركات، بل كان يقابلها بالاعراض والإزدراء في هذا الوقت كان باربر أحد الأعضاء يتلو تقريرا خاصا بحروب " فنديه " تضمن أنباء انتصار الفلاحين في مواقع متعددة، وكذلك رسالة واردة إلى المجلس من مقاطعة سانتير

ختمت بهذه الكلمات:

" هاجم سبعة آلاف من الفلاحين مدينة " فان ".. فدحرناهم، وغنمنا منهم أربعة مدافع.. "

ارتفع أحد الأصوات مقاطعا:

– وكم عدد الأسرى؟

فاستأنف باربر تلاوته:

– اسمعوا خاتمة الرسالة.. " ليس معنا أسرى، لأننا لا نأسر أحدا بعد الآن، بل نفني الجميع "

وقف مارا جامدا مكانه.. لم يكن يصغي إلى المناقشة الدائرة، فقد ظهرت على وجهه دلائل الانشغال والاستغراق في التفكير، وكان ممسكا بيده قصاصة من الورق أخذ يفركها بين أصابعه، ولو طالعها أحد لوجد فيها هذه الكلمات، وأغلب الظن أنها رد على سؤال وجهه مارا إلى أحد أعضاء المجلس الاشتراعيين:

" لا سبيل إلى مقاومة السلطة المطلقة التي تخول للمندوبين المفوضين ولاسيما مندوبي لجنة الأمن العام. فإنه لا حد لسلطتهم، وبيدهم الموت والحياة، ومندوب لجنة الأمن العام وحده يملك حق عزل القائد العام "

كف مارا عن فرك القصاصة ودسها في جيبه، ثم تقدم إلى حيث كان مونتو وشابو يتناقشان

قال شابو: اصغ إلي يا مونتو. إني جئت الآن من اجتماع " لجنة الأمن العام "

– وماذا يفعلون هناك؟

– هم يفوضون قسا لمراقبة أحد النبلاء.

- آه !

- نبيل مثلك !

فقاطعه مونتو: لست من النبلاء.

- وسيراقبه قس.

- مثلك.

قال شابو: لست من القسس.

واشترك الاثنان في الضحك.

قال مونتو: استمر في قصتك.

فقال شابو: سيندب قس يدعى سيموردان ويخول سلطة مطلقة للإشراف على حركات فيكونت يدعى جوفان. والفيكونت المذكور يتولى قيادة جيش الساحل والمراد الآن اتخاذ ما يحول دون خداع النبيل، وخيانة القس.

فقال مونتو: المسألة في غاية البساطة. يلزم إضافة الموت إلى عناصر الموضوع.

قال مارا الذي دنا منهما في هذه اللحظة:

- إني جئت لهذا السبب.

فقال شابو: صباح الخير يا مارا.. إن حضورك جلساتنا أصبح نادرا في هذه الأيام.

فأجاب مارا: إن طبيبي أوصاني بأخذ حمامات.

فقال شابو: يجدر بالإنسان أن يحذر من الحمامات فقد مات سنيكا في حمام.

ابتسم مارا، وأدنى رأسه من مونتو وشابو، وقال:

– اصغيا إلي. جئت في مسألة خطيرة. يجب أن يقترح أحدنا نحن الثلاثة على المجلس اليوم مشروع قانون.

فقال مونتو: لست أنا الذي يتقدم به. لا يصغي إلى أحد أنا ماركيز

وقال شابو: ولا أنا. لا يصغي إلى أحد. أنا راهب.

وقال مارا: ولا أنا. لا يصغي إلى أحد. أنا مارا.

ساد الصمت بين الثلاثة. كانت مناقشة مارا أثناء انشغاله غير مأمونة العاقبة. على أن مونتو تشجع وألقى هذا السؤال.

– ما هو القانون الذي تريد استصداره يا مارا؟

– هو قانون يعاقب بالإعدام أي زعيم عسكري يمهد سبيل الفرار لأحد الأسرى الثائرين.

قاطعه شابو قائلا: هذا القانون قائم وقد سن في إبريل الماضي.

فقال مارا: لا بأس من استصدار القانون الجديد كان القديم لم يسن، ليطبق في كل مكان، في كافة أنحاء (فنديه) وينص على إعدام كل من يساعد أسيرا على الإفلات أو يؤويه أو يتحايل لإعفائه من العقاب.

– الحقيقة يا مارا أن هذا القانون أدرج في زوايا الإهمال ولم يعمل به.

– لابد أن يعزز يا شابو ويعاد العمل به من جديد.

– بلا ريب.

– ولإدراك هذه الغاية لابد من مواجهة المجلس.

– ليس المجلس ضروريا يا مارا (لجنة الأمن العام) تكفي في هذا الشأن.

وقال مونتو: يمكن إدراك الغاية المطلوبة إذا تولت (لجنة الأمن العام) إذاعة

القانون المشار إليه في كافة أنحاء (فنديه)، ونصت فيه على بعض الأمثلة.

فقال شابو: نعم. كأن تنص على خيانة القواد.

فقال مارا: هذا يفي بالغرض.

فاستطرد شابو: اذهب أنت يا مارا واطرح هذا الموضوع على (لجنة الأمن العام).

تفرس مارا في عيني شابو، وهي نظرة لا تسر، وقال:

– إن (لجنة الأمن العام) تجتمع في بيت روبسبير.. وأنا لا أذهب إلى هناك.

فقال مونتو: سأذهب أنا.

فقال مارا: حسنا.

وفي صباح اليوم التالي وجهت (لجنة الأمن العام) إلى كافة المدن والقرى في " فنديه " كتابا دوريا نص فيه على وجوب التشدد في تطبيق القانون القاضي بإعدام كل من يتآمر على تمهيد سبل الفرار للعصاة الأسرى..

كان هذا القانون خطوة أولية.. ولكن في نوفمبر سنة ١٧٩٣، حينما فتحت مدينة لافال أبوابها للهاربين واللاجئين من فلاحي " فنديه " أصدر " مجلس الأمة " قانونا نص فيه على تدمير كافة المدن التي تؤوي الثائرين.. وقد أصدر أمراء أوروبا ردا على هذا القانون، بإيعاز المهاجرين الفرنسيين، منشورا ينص على إعدام أي فرنسي يقبض عليه مسلحا، وينذر بتدمير باريس إذا مست شعرة واحدة من رأس ولي العهد الأسير.

وهكذا كان النضال سجالا بين الفريقين، والصرامة تقابل بالوحشية والتنكيل.

القسم الرابع

في ظلام الغابات

كانت مقاطعة (بريتاني) في ذلك العهد تضم سبع غابات مرهوبة الاسم، يملكها نبيل يعرف باسم (أمير الغابات السبع)، هو الفيكونت دي فونتناي، وكان له في هذه الأقاليم مقام الأمراء.. ومن أشهر هذه الغابات. غابة فوجير المجاورة لحصن الفيكونت المذكور.. وهي ممتدة بين بلدتي دول وافرانش.

في ظلام هذه الغابات وجد التمرد على الثورة الفرنسية مرعى خصيبا.. وكان أهلها من أشد الثائرين على الجمهورية الفرنسية والمناضلين ضدها، وهم الذين أبلوا أكبر البلاء في حروب (فنديه) وكان أهل هذه المقاطعة ينقسمون إلى ثلاث طوائف، فمنهم الفلاحون الذين يعيشون على ثمار حقولهم، ومنهم أهل الغابات الذين يقتنصون الحيوانات ويأكلون لحومها ويصنعون أرديتهم من جلودها ومنهم الصيادون الذين ينتشرون على المناطق الساحلية، وكانوا جميعا يشتركون في صفة واحدة، هي العيشة الفطرية التي تقدس الأرض والمالك، ولا يتجاوز تفكيرهم مطالب الحياة الدنيا.

ولما كانت أرضهم هدفا لهجوم المغيرين والفاتحين من أقدم العصور فقد كانوا يلجأون إلى ظلام الغابات، وأنشأوا في أرضها كهوفا ومخابئ تمتد تحت الأرض كالسراديب، تحجب مداخلها الأحجار وأغصان الأشجار، وإليها كانوا يلجئون كلما داهمهم خطر أو أغار عليهم مهاجم وهكذا تعرضوا في كافة أدوار حياتهم للإعتداء وما يجلبه من الخوف الدائم والقلق المتصل. ولما جاءت الثورة الفرنسية

واكتسب ظاهرها طابع العنف والتخريب وسفك الدماء، ثارت مخاوف هؤلاء الفلاحين وعدوها من قبيل الغزو الذي استهدف له أسلافهم، فرفعوا في وجهها التمرد والعصيان، وقاوموها بكل عنف واستماتة.

كان السرداب الواحد يكفي ستة أشخاص. وهي جميعا تمتد تحت الأرض في طول الغابة وعرضها. وكانت الغابة الواحدة تضم جيشا قوامه سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل. لا تراهم العين. ولا يشعر بوجودهم أحد. وبإشارة خاصة كانوا يبرزون فجأة من جحورهم. فكأنهم جيش من النمل انتشر من خلال الشقوق. وإلى جانب هذه السراديب كانت توجد أكواخ منخفضة السقوف تحجبها الأغصان الكثيفة المتشابكة، يأوي إليها النساء والأطفال، ويقيم فيها الرجال وقت السلم، أما وقت الحرب فكانوا يلجئون إلى السراديب.

ومع أن هؤلاء المقاتلين كانوا يحتجبون تحت الأرض أياما وأسابيع فإنهم كانوا دائمي الاتصال والترابط، وكانت الأنباء تتوارد عليهم بسرعة وانتظام عجيبين كان لهم رسل يجوبون الغابات ويتنقلون بخفة الطير من قرية إلى قرية ومن غابة إلى غابة تعلوهم بلادة ظاهرة، لكنهم يحملون عصيا مجوفة فيها الرسائل والأنباء المراد نقلها واذاعتها. وفي أحد الأيام انضم إلى صفوفهم جمهوري خائن زودهم بمئات الجوازات الرسمية البيضاء، فكانوا يضعون فيها ما يشاءون من الأسماء والصفات. وبهذه الوسيلة استطاع رسلهم أن يتنقلوا بين صفوف الجمهوريين وتحت أنظارهم في يسر وسهولة.

كانت أسلحتهم مكونة من الخناجر والسيوف والحراب والمناجل والعصي والبنادق. ولم يكونوا يعرفون المدافع في أول عهدهم بالثورة على الجمهورية. بل كانوا يفزعون منها. ولما أتيح لهم أن يغنموا مدفعا في إحدى المواقع ويقدروا تأثيره وفائدته، اتجه همهم إلى غنم ما يستطيعون من المدافع، وتوافر لهم منها عدد كبير.

كما أن انجلترا مدت زعماءهم بطائفة من المدافع. وكانوا إذا اشتبكوا في موقعة يبرزون فجأة من ظلمات الغابة، ويثبون على أعدائهم صارخين صرخات وحشية، وينهالون عليهم قتلا وذبحا ثم يختفون فجأة كما جاءوا، ولا يبقى من دليل عليهم سوى آثار التخريب والدمار.

كانت جيوش " فنديه " تضم نصف مليون مقاتل. وإذا كانت ثورتها على الجمهورية صمدت زمنا ما، وكانت شوكة في جنب الجمهورية فإنها فشلت آخر الأمر. وانهزمت.وإذا كانت غيرها من الثورات مثل ثورة سويسرا قد نجحت فالفارق بارز بين ثورة الجبال وثورة الغابات. فإن ثورة سويسرا لنشدان المثل الأعلى، أما ثورة (فنديه) فكانت قائمة على التعصب، والغرض.. الأولى تتسامى، والثانية تزحف. الأولى تلتمس الحرية. والثانية تطلب العزلة. الأولى ترفع رأسها في السماء. والثانية تدس رأسها في الغابة. الأولى شاهقة. والثانية غائرة. كانت ثورة (فنديه) قائمة على التعصب للإقليم، ضد الوطن. والتشيع للفكرة المحدودة ضد الرأي الحر المتشعب، ولذلك أخفقت.

الجزء الثالث

في ميادين (فنديه)

القسم الأول

الفصل الأول

في أصيل يوم من أيام يوليو ترجل مسافر عن ظهر جواده ووقف عند مدخل الخان الكائن في نهاية الطريق الممتد من بلدة " افرانش " في مقاطعة " بريتاني "كان القادم يلتف بعباءة ويلبس قبعة رحبة تعلوها شارة مثلثة الألوان، وهي شعار خطر في هذه المناطق المجاورة للغابات.

فتح باب الخان عند سماع صوت حوافر الجواد، وخرج صاحبه لاستقبال القادم، حاملا بيده مصباحا. ولما رأى الشارة المثلثة قال:

– هل تنزل هنا أيها المواطن؟

– لا.

– وإلى أين تذهب إذن؟

– إلى بلدة " دول ".

– في هذه الحالة أنصحك بالعودة إلى " افرانش "

– وما السبب؟

– لأن القتال دائر في " دول ".

فقال المسافر: آه !

ثم استطرد: قدم أكلا للجواد.

رفع صاحب الخان العنان من فم الجواد وقدم إليه العلف. ثم استأنف حديثه مع القادم:

– هل هذا الجواد لك أيها المواطن؟

– نعم. إني ابتعته بمالي الخاص.

– من أين جئت؟

– من باريس..

– هل جئت من باريس رأسا؟

– لا..

– هذا صحيح.. فالطرق مقفلة.. لكن مركبات البريد لا تزال توالي سيرها.

– لغاية (النسون) وقد نزلت منها هناك

– ستختفي مركبات البريد من فرنسا بعد زمن قصير، الجواد الذي يساوي ثلثمائة فرنك يباع الآن بضعف ثمنه وعلف الجياد يباع بأغلى الأثمان، إني كنت من قبل أدير خانا للبريد لكني الآن أشرف على مطعم، إن مائتين من أصحاب خانات البريد الثلثمائة قد اعتزلوا هذه المهنة، هل سافرت أيها المواطن وفقا للتعريفة الجديدة؟

– طبقا لتعريفة مايو.. وهي الأخيرة

– لابد أنك دفعت ثمنا كبيرا أثناء انتقالك في مركبات البريد.. هل ابتعت جوادك من (النسون)؟

– نعم..

– وهل ركبت طول النهار؟

– منذ الفجر..

– إني أرى عليك مظاهر التعب في الواقع.. اسمع نصيحتي واسترح بعض

الوقت.. إن جوادك شديد الإعياء.

– من حق الجياد أن تتعب.. أما الرجال فلا.. دلائل الرزانة والهدوء والصرامة، يكللها شعر أشيب

ألقى صاحب الخان نظرة على الطريق المقفر، وقال:

– وهل تسافر وحدك بهذا الشكل؟

– معي حارس..

– أين هو؟

– سيفي ومسدساي.

وحمل صاحب الخان دلوا من الماء قدمه إلى الجواد، وقال في نفسه وهو يتطلع إلى هيئة المسافر: مهما يكن فمظهره أقرب إلى القسس.

قال المسافر: تقول أن القتال دائر في بلدة (دول)؟.

– نعم.

– ومن المتقاتلون؟

– نبيل سابق ضد نبيل سابق..

– ماذا تقول ؟

– نبيل سابق جمهوري، ضد نبيل سابق ملكي. والغريب في هذا القتال أن الاثنين من أسرة واحدة.

أصغى المسافر بعناية، واستطرد صاحب الخان:

– أحدهما شاب والثاني كهل. الأول ابن الأخ والثاني هو العم. العم ملكي،

وابن الأخ جمهوري. العم يقود البيض. وابن الأخ يقود الزرق.. آه.! ثق أنهما لن يعرفا معنى الرحمة في هذه الحرب. هي حرب هائلة حتى الموت.

– الموت..

– نعم أيها المواطن.. هل تحب أن ترى التحيات التي يتبادلانها؟ هنا إعلان نشره العم الكهل في كل مكان، على جدران البيوت وفوق جذوع الأشجار، وقد وجدت صورة منه على بابي.

رفع صاحب الخان مصباحه وأدناه من رقعة مربعة ملصقة على الباب، فطالع المسافر فيها ما يلي: " يتشرف الماركيز دي لانتناك بإبلاغ ابن أخيه الفيكونت جوفان بأنه إذا أسعده الحظ باعتقاله، فسيعدمه بالرصاص ".

وأردف صاحب الخان: وهذا هو الجواب.

أشار صاحب الخان إلى إعلان آخر ملصق بالباب الثاني. فطالع المسافر ما يلي في ضوء المصباح.

" ينذر جوفان، لانتناك بأنه إذا أسره فسيأمر باعدامه بالرصاص ".

وقال صاحب الخان: ألصق الإعلان الأول على بابي أمس، وألصق الثاني هذا الصباح، دون انتظار الرد.

قال المسافر في صوت خافت كلاما سمعه صاحب الخان دون أن يفقه مدلوله، وكأن المسافر يناجي نفسه.

"نعم. هي أكثر من مجرد حرب أهلية. هي حرب عائلية. هي لازمة ومحمودة، لابد من دفع هذا الثمن لتوطيد حرية الشعب توطيدا نهائيا ".

ورفع المسافر قبعته وحيا الإعلان الثاني الذي ما فتئ يحدق فيه. فقال صاحب

الخان:

– لا شك أنك فهمت الآن وضع المسألة أيها المواطن نحن في المدن والبلدان الكبيرة موالون للجمهورية. أما في الأرياف فهم ضدها. هي حرب أهل المدن ضد الفلاحين. والنبلاء والقسس يشدون أزرهم.

فقاطه المسافر: ليسوا كلهم.

– بلا ريب أيها المواطن، فأمامنا هنا فيكونت ضد ماركيز.

ثم قال صاحب الخان في نفسه: وأنا واثق أني أخاطب أحد القسس.

سأل المسافر: ومن منهما متفوق على الآخر؟

– الفيكونت حتى الآن. لكنه مضطر للنضال الشاق، فإن القائد الكهل قوي الشكيمة شديد البأس. وكلاهما من أسرة جوفان، أشراف هذه المقاطعة. وهذه الأسرة ذات فرعين، فرعها الأكبر على رأسه الماركيز دي لانتناك، أما الفرع الأصغر فعلى رأسه الفيكونت جوفان. وهذان الفرعان يتقاتلان الآن أحدهما ضد الآخر. وهذا الماركيز لانتناك شديد النفوذ في إقليم (بريتاني)، والفلاحون يضعونه في مصاف الأمراء. وما كاد يمضي يوم واحد على نزوله إلى الشاطئ حتى انضم إليه ثمانية آلاف من المقاتلين، وفي ظرف أسبوع انضمت إليه ثلاثة مقاطعات كاملة. ولو استطاع أن يصل بجيوشه إلى الساحل لنزل الانجليز إلى البر. لكن جوفان كان قريبا لحسن الحظ، ومن عجائب الصدف أنه ابن أخيه. وهو قائد الجيش الجمهوري، وسرعان ما صد عمه وأوقف زحف جيوشه. وشاء حسن الحظ كذلك حينما وصل لانتناك وأمر بذبح طائفة كبيرة من الأسرى إن كان بينهم امرأتان أمر بإعدامهما رميا بالرصاص أيضا، وكان لأحداهما ثلاثة أطفال تبنتهم فرقة من باريس معروفة باسم الفرقة الحمراء، فثارت ثائرة جنود الفرقة المذكورة، وأبلوا في القتال الدائر

أحسن البلاء، مع أن عددهم يسير.. وقد اندمجوا أخيرا في الجيش الذي يقوده جوفان.. ولا يمكن أن يقف في طريقهم حائل، وهم مصممون على الثأر للمرأتين واستعادة الأطفال.. ولا يعلم أحد ماذا فعل القائد الكهل بالأطفال الصغار؟ وهذا ما يثير الجنود الباريسيين ويضرم نار الهياج في صدورهم.. ولو لم يتصل أولئك الأطفال بموضوع القتال لما تطور على النحو الحالي..إن الفيكونت شاب باسل طيب القلب.. أما الماركيز الكهل فهو رجل صارم شديد القسوة.. ألا تتناول شيئا من الطعام أيها المواطن؟

– إني أحمل بعض الطعام والشراب، لكنك لم تخبرني بما يحدث في بلدة (دول)..

– هذا هو ما يحدث.. إن جوفان يقود جيش الساحل.. كان لانتناك يرمي إلى إثارة تمرد عام شامل في مقاطعتي (بريتاني) و (نورماندي) قرب البحر، ويفتح الباب أمام الجيش الانجليزي، ثم يتقدم بجيش عدته عشرون ألفا من الانجليز ومائتا ألف من الفلاحين فجاء جوفان وأفسد هذه الخطة.. كان الساحل في يده، فأرغم لانتناك على التراجع إلى الداخل وطرد الانجليز في البحر..وكان لانتناك هنا، فأخذ جوفان يتعقبه وينتزع منه مواقعه واحدا بعد الآخر حتى حال بينه وبين الوصول إلى جرانفيل على الساحل وهو يرمي إلى حبسه في غابة فوجير كما كا ومحاصرته.. وكان كل شئ حتى أمس يسير سيرا مرضيا.. وفجأة قام القائد الكهل بمناورة بارعة فقد تواترت الأنباء بأنه يسير قاصدا إلى بلدة (دول).. وإذا استولى على هذه البلدة ونصب مدفعه على جبل (دول) توافرت له منطقة ينزل منها الانجليز إلى البر. وخسر جوفان كل شئ.

_ لكن جوفان جندي باسل مقدام، وسرعان ما جمع بعض جنوده وتقدم إلى الأمام دون أن ينتظر أمرا.. وفي الوقت الذي يهاجم فيه لانتناك بلدة (دول)، يعمد جوفان إلى مهاجمة لانتناك نفسه.. وفي هذه البلدة يدور القتال الآن بين الاثنين

وهو قتال رهيب مروع.

–كم يستغرق الوصول إلى " دول "؟

–إن المسافة يقطعها الجيش بمدافعه في ثلاث ساعات على الأقل.. لكنهم الآن فيها.

أرهف المسافر سمعه وقال:

– يخيل إلي في الواقع أني أسمع صوت المدافع.

أصغى صاحب الخان بدوره وقال:

– نعم أيها المواطن.. وكذلك دوى الرصاص.. إن المعركة بدأت ويحسن بك أن تمضي الليل هنا.

– لا يمكن أن أتوقف.. لابد أن أواصل السير.

– أنت مخطئ.. أنا لا أعرف مهمتك، لكنك تقوم بمجازفة كبيرة.. وإذا لم تكن هذه المهمة المتصلة بأعز ما تملكه في الدنيا..

فقال المسافر: في الواقع هي كذلك.

– تتصل بولد لك مثلا؟

فقال المراكب: تكاد تكون كذلك.. والآن أعد العنان إلى الجواد.. بكم أنا مدين لك؟.

نقد المسافر صاحب الخان المبلغ الذي طلبه ثم امتطى جواده فقال له صاحب الخان:

– ما دمت تصر على الذهاب فاسمع نصيحتي.. أنت ذاهب إلى " سان مالوا " فإذا كان الأمر كذلك فلا تذهب عن طريق (دول) أمامك طريقان: طريق (دول)

وطريق الساحل.. ويكاد الطريقان يتساويان طولا.. وعند نهاية هذا الشارع ستجد مفترق الطريقين.. فأما طريق " دول " فيتفرع إلى اليسار، وأما طريق الساحل فإلى اليمين استمع جيدا لنصيحتي.. إذا ذهبت من طريق " دول " فستقع في وسط المذبحة.. ولذلك أنصحك بالسير في الطريق الأيمن.. طريق الساحل.

فقال المسافر وهو يهمز جواده: شكرا.

ابتعد الراكب فوق جواده، واختفى عن نظر صاحب الخان في الظلام ولما وصل المسافر إلى مفترق الطريق سمع صوت صاحب الخان يناديه من بعد: سر إلى اليمين، لكنه سار إلى اليسار.

الفصل الثاني

"دول" بلدة قديمة في مقاطعة " بريتاني " ذات مبان منشأة على النظام القوطي، يخترقها شارع واحد طويل تمتد المساكن على جانبيه بواجهاتها البارزة وشرفاتها القائمة على أعمدة. أما باقي البلدة فهو شبكة من الأزقة والمنعطفات تتصل جميعا بالشارع الرئيسي.

كانت هذه البلدة مكشوفة بغير أسوار ولا أبواب، يشرف عليها جبل " دول "، ويسهل غزوها. غير أن منازلها كانت في ذاتها معاقل يحتمي بها المدافعون. وكان للبلدة سوق قديمة تتوسطها.

كانت " دول "كما قرر صاحب الخان في الفصل السابق مسرحا لمعركة طاحنة تدور في أرجائها. فقد اجتاحها البيض في الصباح. وما كاد يأتي المساء حتى انقض الزرق على البيض يحاولون إجلاءهم عن البلدة وانتزاعها من قبضتهم. وكان جيش البيض مكونا من ستة آلاف من المقاتلين. أما الزرق فلم يتجاوز عددهم ألفا وخمسمائة.. وأعجب ما في الأمر أن القلة هي التي هاجمت الكثرة.أما جيش البيض الذي يناضل عن الملكية فكان خليطا من الفلاحين وأهل الغابات، ليس لهم نظام عسكري معروف ولا أسلحة موحدة، غير أنهم كانوا مستميتين مشهورين بالشراسة والاستبسال. وأما جيش الزرق الذي يمثل الجمهورية فكان منظما تام التدريب على الفنون العسكرية، مزودا بأسلحة حديثة. وكانوا يشاركون أعداءهم في شراستهم واستماتهم.

وكان على رأس الجيش الجمهوري القائد جوفان. وهو شاب في الثلاثين من عمره شديد البسالة والإقدام، يتقدم جنوده شاهرا سيفه لا يبالي ما يصيبه، ويضرب

لهم أحسن الأمثال في احتمال الجندي وصبره على أهوال الحرب وويلاتها.. وهو إلى جانب بسالته وديع الأخلاق طيب القلب راجح الفكر ذو نزعات فلسفية. وكان لانتناك قائد الجيش الملكي جنديا كاملا مثل جوفان. غير أنه كان يفوقه جرأة وإقداما. ولهذه المسألة تعليلها الطبيعي. فإن لانتناك في دور الكهولة، قريب من القبر، لا يبالي أكان الموت أم الحياة نصيبه. ومن هنا اصطبغت أعماله الحربية بطابع المغامرة الشديدة والبراعة. وكان إلى هذا ناقما على جوفان لقتاله ضده أولا ولكونه ابن أخيه ووريثه الوحيد ثانيا، ولذلك صمم على أن يقتله بلا تردد إذا وقع في قبضته.

كان لانتناك يعرف أن جنوده تنقصهم الخبرة العسكرية اللازمة في الحروب الكبيرة. ولذلك كانت خطته موجهة إلى إيجاد منفذ على الساحل تنزل منه الجنود الانجليزية المنظمة، حتى إذا تم له ذلك تصدى لمنازلة الجمهورية جامعا بين الحرب النظامية والحرب الوحشية. ولما رأى أن الإستيلاء على بلدة " دول " يمكنه من نصب مدافعه على الجبل المجاور لها والإشراف على البحر، لم يتردد في الهجوم على هذه البلدة.

فاجأ لانتناك " دول " بجيشه الكبير، واستولى على البلدة بغير مقاومة، ولجأ السكان إلى بيوتهم وتحصنوا في داخلها ثم تفرق رجاله في كافة نواحي البلدة وتخلوا عن مدافعهم وأسلحتهم فمنهم من ذهبوا إلى الكنائس، ومنهم من راحوا يطهون طعامهم في الهواء الطلق إذ لم تكن لهم خيام ولا معسكرات بينما أسرع لانتناك مع طائفة من رجال المدفعية لتفقد جبل " دول " استعدادا لنصب المدافع على قمته وترك قيادة الجيش مؤقتا إلى نائبه ايمانوس، وقد كان مقاتلا شديد البأس مشهورا بشراسته ووحشيته لكن كانت تنقصه الدراية الحربية الفنية ولم تتجاوز الاحتياطات التي اتخذها بعد ذهاب لانتناك سوى تعيين بعض الحراس دفعا للمفاجآت.

وفيما كان لانتناك عائدا إلى البلدة في المساء بعد أن عاين المواقع التي ينصب فيها مدافعه فوق جبل " دول " سمع وهو في منتصف الطريق دوى مدفع. ولما التفت أمامه شاهد دخانا أحمر يرتفع من الشارع الرئيسي. فأدرك في الحال أن هجوما وقع على رجاله، وأن معركة جديدة تدور في البلدة فاستحث لانتناك جواده. وصادف في الطريق بعض السكان يفرون مذعورين. ولما استطلعهم الخبر قرروا أن الزرق هجموا على البلدة.

الفصل الثالث

تفرق رجال لانتناك في البلدة بعد استيلائهم عليها. كانوا تعبين من أثر الجهد الذي بذلوه.. فانصرفوا لتناول الطعام والشراب. ولما جاء المساء تمددوا في الشارع الرئيسي فوق مهمانهم، واستسلموا للنوم.

وفجأة، لمح بعض الجنود الذين لم يناموا بعد ثلاثة مدافع تصوب عند مدخل الشارع. كانت هذه مدفعية جوفان. وقد فاجأ رجاله الحراس القائمين عند مدخل الشارع وقضوا عليهم، وبات المدخل في أيديهم.

وثب أحد الفلاحين مرتاعا صارخا وأطلق بندقيته. فجاوبه قصف مدفع. وفي اللحظة التالية استيقظ النيام مذعورين مروعين، وأخذوا يطلقون بنادقهم على غير وعي وفي غير هدف معين، حتى كانوا يصيبون بعضهم بعضا. وارتفع الصراخ من كل مكان. ونفر السكان من بيوتهم مذهولين جزعين يتنادون ويتصايحون. وجمحت الخيول واندست مركبات المهمات وحاملات المدافع في وسط الميدان فسادت الفوضى والرعب، وكانت مدافع جوفان ترسل عليهم نيرانها حامية، فأخذ الفلاحون يتساقطون صرعى كالفراش المحترق.

على أن الفلاحين لم يلبثوا أن تغلبوا على تأثير هذه المفاجأة، فجمعوا صفوفهم وانسحبوا إلى السوق وتحصنوا خلف أعمدتها ومبانيها المتعددة. وجمعوا أمامهم كل ما استطاعوا جمعه من الصناديق والأمتعة، فجعلوا منها استحكامات ووقفوا خلفها يرسلون على أعدائهم وابلا من نيران بنادقهم. ولم يستطيعوا استخدام المدافع التي كانت معهم لغياب ضباط المدفعية في صحبة لانتناك.

تحصن الفلاحون في السوق، وصمدوا للهجوم المفاجئ الذي قام به جوفان.

وتحسن موقفهم، ولم يكن جوفان يتوقع هذه المفاجأة، وخاف الهزيمة فهبط من فوق جواده ووقف يصوب نظره في ضوء مشعل ينير بطاريته ولم ينتبه لانشغاله بالتفكير في الموقف إلا أنه كان في هذا الموقف ظاهرا لأعين العدو المتحصن، هدفا لرصاصه وفجأة دوى من معسكر الأعداء صوت كقصف الرعد، واستقرت قذيفته في بيت وقف جوفان في ظله. ثم أعقبتها قذيفة ثانية استقرت في جدار قريب منه، وثالثة أطارت قبعته.

هتف أحد جنود جوفان:

– هم يقصدونك أيها القائد فأطفئ المشعل بسرعة.

وانحنى جوفان فوق الأرض وتناول قبعته كأنه في حلم والواقع أنه كان مقصودا بهذه القذائف وكان الآمر بها هو لانتناك، فإنه وصل إلى ميدان المعركة وانضم إلى رجاله خلف الاستحكامات التي أنشئوها، وبادر إليه إيمانوس:

– هوجمنا يا مولاي !

– ممن؟

– لا أدري.

– هل الطريق إلى (دنيان) مفتوح؟

– أظن ذلك.

– يجب ألا نهرب. بل يجب أن نتقهقر بانتظام. لم لا تستخدمون المدافع؟

– طاش صواب الرجال. كما أن ضباط المدفعية لم يكونوا موجودين.

– هأنذا عدت للإشراف على كل شئ..

– مولاي.. إني أرسلت إلى (فوجير) جميع الأمتعة والنساء وكل ما يمكن

الاستغناء عنه.. ماذا نفعل بالأطفال الثلاثة الأسرى؟

– هم غنائمنا.. أرسلهم إلى حصن (لاتورج)

أسرع الماركيز على أثر هذه المحادثة إلى منطقة الاستحكامات.. وأمر رجاله بنصب مدفعين في فتحات اختارها.. وفيما هو يراقب معسكر الأعداء لمح جوفان، فهتف: هذا هو !

حشا الماركيز أحد المدفعين بنفسه، وأطلقه بيده ثلاث مرات جاعلا جوفان هدفه، غير أنه أخطأه في كل مرة، وفي المرة الثالثة تمكن فقط من إسقاط قبعته..زمجر لانتناك ساخطا.. وفي اللحظة التالية انطفأ المشعل، وساد الظلام أمامه، فتخلى عن المدفع، وأمر رجاله بإصلاء معسكر جوفان نارا حامية من المدفعين. لم يسكت جوفان من ناحيته.. فقد تطور الموقف، ورأى أعداءه يستخدمون المدافع، هذا إلى أن عددهم كان أضعاف عدد رجاله، وإذا فطنوا إلى هذه الحقيقة ووجدوا لهم منفذا من هذا الحصار فقد تنقلب الكفة، ويتغير موقف لانتناك من الدفاع إلى الهجوم.لم يكن يستطيع أن يهجم على أعدائه من الأمام، فلو فعل لتعرضوا جميعا للهلاك، وأخذ يفكر في خطة للخلاص من هذه الورطة.

كان جوفان من أهل هذا الإقليم، خبيرا بطبيعته، وكان يعرف بوجود شبكة من الأزقة المتداخلة خلف السوق التي تحصن فيها رجال لانتناك، ولذلك التفت إلى نائبه جيشام وقال له:

– جيشام سأترك لك القيادة، أطلق المدافع باستمرار وسرعة، اشغل أولئك الرجال ولا تدعهم يستريحون لحظة.

فقال جيشام: فهمت أيها القائد..

– احشد جميع الرجال في صفوف متراصة، ولتكن بنادقهم على تمام

الاستعداد.

– سمعا وطاعة.

واستطرد جوفان: عندنا تسعة من جنود الطبول. ابق معك اثنين، وأعطني سبعة.

اصطف الجنود السبعة صفا واحدا أمام جوفان في سكون، فهتف جوفان:

– يا جنود الفرقة الحمراء !

تقدم اثنا عشر جنديا بينهم جاويش، فقال جوفان:

– أريد الفرقة كلها.

فأجاب الجاويش: – ها هي كلها.

– أنتم اثنا عشر.

– لم يبق منا غير هذا العدد.

فقال جوفان: لا بأس.

كان الجاويش هو رادوب، ذلك الجندي الطيب القلب الذي تبنى باسم (الفرقة الحمراء) الأطفال الثلاثة الذين عثرت عليهم الفرقة مع أمهم في غابة (سودراي) ومن حسن حظه أنه لم يكن مع الباقين من رجاله بين سائر جنود الفرقة التي أغارت على مزرعة "زهرة الشاطئ" ثم داهمها البيض وأعدموا رجالها.

أمرهم جوفان بخلع أحذيتهم، ففعلوا. وكان عددهم جميعا، وفي جملتهم جوفان، عشرين رجلا.

هتف جوفان: اتبعوني صفا واحدا.. خلفي مباشرة ثم باقي الفرقة وعلى رأسها الجاويش رادوب.

وسار جوفان على رأس الجميع بينهما كان إطلاق النار مستمرا من الجانبين وأخذوا يتسللون في الأزقة الضيقة في سكون تام، ولم يصادفهم أحد في طريقهم، فقد لجأ الناس إلى بيوتهم واحتموا فيها، وانهمك الجنود البيض في القتال فلم يلتفتوا إلى ما عداه. وكان الشارع الرئيسي مسرحا لمعركة جهنمية طاحنة.

ظل جوفان يتقدم رجاله نحو ثلث ساعة وهو لا يخطئ طريقه في الظلام. وأخيرا وصلوا إلى نهاية زقاق ضيق يفضي إلى الشارع العمومي حيث توجد السوق، لكنهم جاءوا من الناحية الخلفية. حيث وقف البيض مولين ظهورهم إليه، منهمكين في القتال الدائر أمامهم.

كانوا عشرين في مقابل خمسة آلاف من البيض.. لكن هؤلاء لم يكونوا متحصنين من الخلف. وسرعان ما ألقى جوفان أوامره إلى الجاويش رادوب بصوت خافت.. فوقف جنود الفرقة الحمراء الاثنا عشر صفا واحدا في مدخل الزقاق، ورفع جنود الطبول عصيهم منتظرين الإشارة، وكان إطلاق المدافع متقطعا.. وانتهز جوفان فترة بين طلقتين، فصاح في صوت تردد صداه في وسط السكون وهو شاهر سيفه:

– مائتين إلى اليمين ! مائتين إلى اليسار ! الباقي في الوسط !

وعلى إثر هذا النداء أطلقت البنادق الاثنتا عشرة، وقرعت الطبول السبع مرة واحدة.ثم صاح جوفان بأعلى صوته: اشهروا حرابكم ! اهجموا عليهم !

كان لهذه المناورة تأثير شديد.. فقد أخذ الفلاحون على غرة، واعتقدوا بوجود جيش جديد خلفهم.. وفي نفس اللحظة أصدر جيشام أمره لرجاله من الأمام، فهجموا مستبسلين على البيض الذين ذهلوا وهم متحصنون خلف استحكاماتهم.. ووجدوا أنفسهم بين نارين.في هذه المواقف يتضاعف التأثير، ويخيل للإنسان أن

صوت الرصاصة هو دوي مدفع، هذا إلى أن الفلاحين سريعو التأثر. وسرعان ما استولى عليهم ذعر شديد ودب الرعب في قلوبهم، وساد الاضطراب صفوفهم.. وأركنوا إلى الفرار والنجاة.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى أخليت السوق من الفلاحين، وأطلقوا سيقانهم للريح من كافة المنافذ المؤدية إلى خارج البلدة. وعبثا حاول ايمانوس وسائر الضباط إيقافهم.رأى الماركيز دي لانتناك هزيمة رجاله بعينيه.. ولما يئس من الموقف أتلف المدافع بيديه.. وأخذ يتقهقر ببطء وهدوء وهو يقول لنفسه:

– من المؤكد أن الفلاحين لن يصمدوا.. لابد من الاستعانة بالانجليز.

الفصل الرابع

تم النصر لجوفان.. والتفت إلى جنود " الفرقة الحمراء " قائلا: أنتم اثنا عشر.. لكنكم بألف.

وأسرع جيشام لمطاردة الهاربين بأمر جوفان، وأسر منهم عددا كبيرا وأضيئت المشاعل في كافة نواحي البلدة وأجرى فيها تفتيش دقيق ومن لم يتمكن من الإفلات من جنود البيض أعلن الخضوع والتسليم وامتلأت أرض الشارع العمومي بجثث القتلى والجرحى، ولاحظ جوفان أثناء انسحاب البيض رجلا منهم قوي البنية أخذ يحمي تقهقر زملائه، دون أن يحاول النجاة بنفسه.. وكان يطلق النار أحيانا من فوهة بندقيته، وأحيانا يستخدمها كهراوة يشج بقاعدتها الرءوس.. ولما تحطمت البندقية ألقاها جانبا وأمسك بمسدسه في إحدى يديه وبسيفه في اليد الثانية، فلم يجرؤ أحد على الدنو منه.

وفجأة رآه جوفان يترنح ويرتمي فوق أحد الأعمدة القريبة منه، فقد جرح الرجل أخيرا، غير أنه لم يشأ أن يتخلى عن مسدسه وسيفه فتأبط جوفان سيفه وتقدم من هذا الرجل قائلا:

– سلم نفسك.

تفرس الرجل في وجه جوفان،كان الدم ينزف منه بغزارة ويكون بركة تحت قدميه.. واستطرد جوفان قائلا:

– أنت أسيري.

بقي الرجل صامتا، فقال جوفان:

– ما اسمك؟

فأجاب الرجل: أسمي (الخيال الراقص).

فقال جوفان: أنت رجل باسل..

ومد له جوفان يده..

هتف الرجل: يحيا الملك !

وفي لمح البصر استجمع ما بقي له من قوة ورفع يديه معا وأطلق مسدسه على جوفان وصوب إلى رأسه ضربة قاتلة بحد سيفه..فعل الرجل هذا بخفة النمر.. ولكن شخصا آخر كان أسرع منه.فقد وصل منذ بضع دقائق رجل راكبا جوادا ولم يفطن أحد إلى قدومه وشاهد الفلاح يشهر سيفه ومسدسه.. فاندفع بجواده بينه وبين جوفان.. ولولا هذه الحركة لقضي على جوفان وكان في عداد الأموات..

استقرت رصاصة المسدس في الجواد.. وتلقى الراكب ضربة السيف وهوى الاثنان معا..أما الفلاح فسقط بدوره على الأرض..أصابت ضربه السيف الراكب في وجهه.. فتمدد فوق الأرض لا حراك به.. أما الجواد فقد أسلم الروح..دنا منه جوفان قائلا:

–من هذا الرجل؟

وجعل يتفرس في وجهه.. غير أن الدماء نزفت غزيرة من الجرح الذي أصابه وتخضب وجهه، فاستحال تمييز ملامحه.. ولم يبد منه غير شعره الأشيب.. استطرد جوفان قائلا:

– هذا الرجل أنقذ حياتي؟ فهل منكم من يعرفه؟

فأجاب أخذ الجنود: أيها القائد.. هو جاء منذ بضع دقائق.. وقد رأيت

دخوله إلى البلدة.. وكان آتيا من اتجاه بلدة (افرانش)..أسرع طبيب الجيش بأدواته وتولى فحص الجريح الذي كان غائبا عن رشده ثم قال:

– هذا جرح يسير.. يمكن أن يلتئم بسهولة وسيشفى في ظرف ثمانية أيام.

كان الجريح يرتدي عباءة وقبعة رحبة ذات شارة مثلثة الألوان ويحمل سيفا ومسدسين.. وجئ بنقالة وضع فوقها وأخذ الطبيب ينظف الجرح، وظهرت ملامح وجهه.. فتفرس فيها جوفان بدقة وقال:

– هل يحمل أوراقا؟

فتش الطبيب جيوب الجريح وأخرج من أحدها حافظة أوراق قدمها إلى جوفان، وفي هذه اللحظة دب الانتعاش في كيان الجريح بتأثير الماء البارد وأخذ يفيق من غيبوبته واختلجت أجفانه.فحص جوفان حافظة الأوراق، فوجد فيها رقعة مطوية من الورق بسطها وطالع فيها الكلمات: "لجنة الأمن العام المواطن سيموردان".. هتف جوفان: سيموردان.. " وما كاد الجريح يسمع هذا الاسم حتى فتح عينيه، أما جوفان فاستولى عليه ذهول جنوني واستطرد:

– سيموردان !.. هو أنت !.. إنك أنقذت حياتي للمرة الثانية !

تطلع إليه سيموردان بعينين يلمع فيهما بريق الفرح. فركع جوفان على ركبتيه بجانبه وهتف:

– أستاذي !

فقال سيموردان: بل والدك !

الفصل الخامس

لم يتقابل كلاهما أعواما طويلة.. لكنهما كانا على اتصال روحي، وتذكر كلاهما صاحبه كأنه فارقه منذ قليل حمل سيموردان إلى المستشفى، ووضع في غرفة خاصة، وخاط الطبيب الجرح، واضطر جوفان أن يتخلف عنه تلبية للمشاغل المتعددة التي تستلزم تفرغه لها بحكم النصر الذي أحرزه، وبقي سيموردان وحده في الغرفة، لكنه لم يستطع النوم، فقد انتابته حمى المرض، وحمى الفرح بلقاء جوفان.

لم يصدق سيموردان أنه وجد جوفان ثانية بعد طول الفراق. ولم يكن هناك حد لسعادته. فقد تركه طفلا. وقابله رجلا. بل وجده قائدا عظيما مظفرا وبطلا جريئا. وكان هذا النصر الذي أحرزه لحساب الشعب. كان جوفان عماد الثورة الفرنسية في أقاليم (فنديه)، وسند الجمهورية الحقيقي. وكان سيموردان وحده هو الذي صاغ هذا البطل ونفخ فيه من روحه وقدمه للجمهورية.

رأى سيموردان بعين الفكر أن جوفان يتسنم ذروة المجد شيئا فشيئا، ليس أمامه إلا أن يحرز نصرا ثانيا كهذا، فيتقدم سيموردان إلى الجمهورية ويزكي هذا القائد الشاب المتفاني في نصرتها، وينصح بأن تلقى إليه مقاليد جيوشها، وينصب قائدا عاما لقواتها.

طغت هذه الخواطر والأحلام على ذهن سيموردان حتى أذهلته عن نفسه وأثلجت فؤاده. وفيما هو كذلك طرق سمعه صوت حوار يدور في عنبر المستشفى المجاور لغرفته، وعرف صوت جوفان الذي لم يمحه من ذاكرته تعاقب الأعوام.

سمع أحد الجنود يتقدم في خطواته العسكرية ويقول بعد وقوف:

– أيها القائد. هذا هو الرجل الذي أطلق الرصاص عليك. إنه انتهز فرصة انشغالنا عنه وزحف إلى أحد الأقبية وقد وجدناه وها هو أمامك.

ثم سمع سيموردان بعد ذلك المحاورة التالية بين جوفان وبين الأسير:

– أنت مجروح؟

– أنا على استعداد تام للإعدام !

– احملوا هذا الرجل إلى أحد الأسرة. ضمدوا جراحه. اعتنوا به. عالجوه حتى يشفى.

– أريد أن أموت !

– لابد أن تحيا. حاولت اغتيال حياتي. لكني أعفو عنك باسم الجمهورية.

ظللت سحابة وجه سيموردان. وخيل إليه أنه يفيق فجأة من حلم. وغمغم قائلا في غم وانقباض:

– في الحق هو ممن يستجيبون لعواطف الرحمة..

الفصل السادس

إن مثل جرح سيموردان يبرأ بسرعة.. لكن هناك مخلوقا كان جرحه أخطر وأدعى للقلق، هو تلك المرأة التي أطلق عليها الرصاص، وأنتشلها المتسول تلمارش من بين أشلاء القتلى في مزرعة (زهرة الشاطئ).

كانت حالة ميشيل فليشار في الواقع أخطر مما ظن تلمارش، فقد وجد علاوة على الجرح الذي تهشمت بسببه إحدى عظام كتفها، جرحا ثانيا ناتجا من رصاصة أصابت إحدى عظام الصدر قرب العنق لكن تلمارش كان بارعا في التطبيب والتمريض، فحمل المرأة إلى عرينه في الغابة، وعكف على العناية بها ومداواتها بالعناصر الطبية الغامضة التي يعرف وحده سرها، وبفضله عاشت المرأة ونجت من الخطر، مضت أسابيع التأمت جروح المرأة في أثنائها، ودخلت في دور النقاهة، واستطاعت أن تغادر الكهف وتسير متوكئة على ذراع تلمارش وجلست تحت أشعة الشمس مستندة إلى إحدى الأشجار.

لم تكن المرأة تتكلم في أول مراحل النقاهة، وكان تلمارش نفسه يمنعها من الكلام إذا همت به، لما تستلزمه جروح الصدر من الصمت والسكون، على أنه كان يرى في محياها انعكاس أفكار مضطربة تجيش في نفسها. لكن تلمارش لم يتمالك في هذا اليوم وهي جالسة في ظل الشجرة بعد أن تم شفاؤها أن ساوره الابتهاج بنجاتها على يديه، فقال لها:

– ها نحن على أقدامنا من جديد.. لم تعد بنا جروح بعد.

فقالت المرأة: إلا في القلب

ثم أردفت بعد قليل: إذن لا تعرف أين (هم)؟

سألها تلمارش: من " من هم "؟.

– أولادي.

تحير تلمارش ولم يدر بماذا يجيب؟ فكل ما يعرفه أنه حمل هذه المرأة وهي في حالة الموت بعد أن علم أن لانتناك أمر باطلاق الرصاص عليها وانتزع منها أطفالها وحملهم إلى حيث لا يعلم، وعكف على تمريضها حتى تم لها الشفاء. هذا كل ما يعرفه. أما ما فعل لانتناك بالأطفال فهو ما يجهله تلمارش جهلا تاما. تلاشت الابتسامة من فم تلمارش حينما سمع كلمة المرأة الأخيرة وعادت المرأة إلى الاستغراق في أفكارها. وفجأة التفتت إليه، وهتفت مرة ثانية في نبرات تشف عن الحدة والغضب: أولادي !

أطرق تلمارش برأسه كمن يحس بجرمه. فقد كان يفكر في هذه اللحظة في الماركيز دي لانتناك الذي لم يكن يشعر حتى بوجوده، وناجى نفسه بهذه الكلمات: إن النبيل يعرف الإنسان وقت الضيق. فإذا ذهب عنه تنكر له وأدار ظهره. ثم سأل تلمارش نفسه: لكن لماذا إذن أنقذت هذا النبيل؟

فأجاب عن نفسه بهذه الكلمات: لأنه كان من بني الإنسان.

واستغرق في التفكير ثم استطرد: وهل أنا واثق حقا أنه كذلك؟ وراح يردد: لو كنت أعرف !

طغت هذه الهواجس على نفس تلمارش، ورأى أمامه لغزا تخبط في ظلماته. إن الخير قد ينقلب شرا في بعض الأحيان. فإن الذي ينقذ الذئب يقضي على الغنم. وأحس تلمارش في أعماق نفسه بأنه ارتكب جريمة لا تغتفر. وأن هذه الأم محقة في نقمتها وغضبها. تطلعت إليه المرأة بعينين مظلمتين وقالت:

– مهما يكن. فلا يمكن أن تسير الأمور على هذا النحو.

فقال تلمارش وهو يضع أصبعه على شفتيه: صمتا !

لكنها استطردت: إنك أخطأت بانقاذي. وأنا ساخطة عليك لهذا السبب. ليتني مت فكان محققا أن يتيسر لي لقاء أولادي حينذاك. وكنت أعرف أين مقرهم؟ وإذا كانوا يرونني، فإني كنت أراهم وأكون بقربهم.

تناول يدها وتحسس نبضها وقال: هدئي روعك.. إنك تتعرضين للحمى ثانية.

ردت في خشونة: متى يمكن أن أرحل من هنا؟.

– مستحيل. ليس هذا من الحكمة.

فاستحال صوتها إلى الرقة وقالت:

– يمكنك أن تقدر أنه يستحيل أن أستريح وأنا في هذه الحال. لم يكن لك أولاد. أما أنا فكان لي وهذا فارق جسيم لا يمكن أن يحكم الإنسان على شئ لا يعرفه. ألم يكن لك أولاد؟ فأجاب تلمارش: لا.

– أما أنا. فلم يكن لي في الدنيا سواهم. ما أنا بدون أولادي؟ أود أن أجد إنسانا يفسر لي السبب في حرماني من أولادي. إني أشعر بالحوادث تجري من حولي. لكني لا أفهمها. هم قتلوا زوجي. وأطلقوا الرصاص علي. لكني لا أفهم شيئا !

– فقال تلمارش: كفى.. إن الحمى تنتابك من جديد. لا تتكلمي. نظرت إليه ثم لزمت الصمت. ومنذ هذا اليوم لم تعد تتكلم، إذ لزمت الصمت المطلق كانت تطيع تلمارش في كل ما يوصيها به. لكنها كانت تقضي الساعات الطوال مستسلمة لتأملاتها وهواجسها. وفهم تلمارش اتجاه أفكارها. فترجمها بهذه الكلمات: إذا كانت شفتاها لا تنطقان، فإن عينيها تترجمان عن أفكارها. إن

أفكارها تدور جميعا حول نقطة واحدة، كانت أما، فلم تعد كذلك، كانت تحنو على أطفالها، ففقدت هذه الصفة، وهي لا تستطيع أن تذعن للأمر الواقع وتستسلم للحقيقة الراهنة. هي تفكر في هذه الطفلة الرضيعة التي كانت تمتص حياتها، وكانت مع ذلك سعيدة قريرة العين بها، لأنها من حياتها تمدها بحياة جديدة.

احترم تلمارش صمت المرأة ولم يحاول أن يقطع سلسلة أفكارها. فإن عاطفة الأمومة غريزة معقدة لا يمكن فهمها على ضوء العقل والتدليل. لكنها غريزة بصيرة لا تضل ولا تخطئ. وقال لها ذات يوم:

– من سوء الحظ أني متقدم في السن ولا أقوى على السير الطويل. ولا تلبث قوتي أن تخور بعد ربع ساعة، واضطر للراحة ولولا هذا المانع لرافقتك في السير. وربما كان من حسن الحظ ألا أفعل. فإني أكون حملا ثقيلا عليك، ولا أفيدك بشئ. إن الزرق يرتابون في شخصي، والفلاحين يعدونني ساحرا.

وانتظر جوابها لكنها لم تنبس بكلمة واحدة، بل لم ترفع إليه عينيها، وظلت غارقة في تصوراتها وأحلامها، وفي أحد الأيام رآها تلمارش تملأ كيسا بالكستناء، ثم تأهبت للرحيل وهي تحدق بنظرها إلى أعماق الغابة فقال لها: – إلى أين تذهبين؟

ـــ إني ذاهبة للبحث عن أولادي.

ولم يحاول تلمارش أن يحجزها.

الفصل السابع

مضت بضعة أسابيع دارت في أثنائها رحى الحرب الأهلية بين الزرق والبيض في عنف واستماتة لا حد لها. ولم يكن للناس حديث في منطقة (فوجير) إلا عن ذلك الصراع الهائل الدائر بين القائدين النبيلين، استمرت تلك الحروب الوحشية التي كان مجالها في ميادين (فنديه) لكن البيض أخذوا ينهزمون ويفقدون مواقعهم واحدا بعد الآخر، وذلك بفضل الضربة البارعة الأولى التي وجهها اليهم القائد جوفان الشاب في بلدة (دول).

ثم أعقب هذا الانتصار عدة انتصارات جديدة، لكن نشأت من هذه الانتصارات حالة معقدة جديدة. صحيح أن كفة الجمهورية بفضل جوفان رجحت في هذه المنطقة من مناطق (فنديه). لكن الجمهورية انقسمت على نفسها واختلفت في شخصي جوفان وسيموردان.

تمثلت الجمهورية في مذهبين متضادين. مذهب الصرامة والإرهاب ومذهب التسامح والرحمة. فالمذهب الأول يقوم على استعمال القسوة والشدة لإحراز النصر. والثاني على التوسل بالرأفة والرحمة لإدراك هذه الغاية أما صاحب المذهب الصارم فهو سيموردان المندوب المفوض. جاء من باريس مزودا بسلطة مطلقة وتفويض تام من (لجنة الأمن العام) شاهرا في يده سيف الإرهاب الذي سلحه به (مجلس الأمة)، وهو يتمثل في هذه الكلمات الرهيبة: " يعاقب بالإعدام كل من يفرج عن أسير من زعماء الثائرين أو يمهد له سبيل الفرار "

وأما صاحب المذهب المتسامح فهو جوفان القائد الشاب. وكان سلاحه الوحيد ضرب العدو بلا رحمة في الميدان. والعفو عنه بعد المعركة ومن هنا نشأ بين

هذين الرجلين صراع رهيب صامت، ونضال خفي عنيف، كانا مدار الحديث على كل لسان.

وأعجب ما في الأمر أن هذين الخصمين المتناضلين كانا صديقين حميمين. بل كانا قلبا واحدا في جسدين. وقد انقذ الصديق الصارم صديقه الرحيم، وقام الجرح الذي أصابه في وجهه دليلا ناطقا على عمق هذه الصداقة وتفانيها بل أعجب من هذا أن الصديق الصارم كان من أبر الناس بالإنسانية فقد كان يضمد الجروح، ويعني بالمرضى، ويصل الليل بالنهار في المستشفيات الحربية يواسي ويخفف الآلام ويجود بماله على البائسين والمعوزين. كان بين الرجلين صداقة وثيقة، وبين مذهبيهما نضال رهيب أو خصومة عنيفة. ولم تلبث هذه المعركة الصامتة أن بدأت بينهما. فقد قال سيموردان لجوفان في أحد الأيام:

– ماذا أتممنا حتى الآن؟

فأجاب جوفان: أنت تعرف هذا كما أعرفه.. إني شتت شمل عصابات لانتناك.. ولم يبق له إلا شراذم متفرقة.. ثم يطرد بعد ذلك إلى غابة (فوجير) ولن تمضي إلا ثمانية أيام حتى نحاصره.

– وبعد خمسة عشر يوما

– سيؤخذ أسيرا..

– وبعد ذلك؟

– سيعدم بالرصاص..

– هذا تسامح لابد من إعدامه بالمقصلة

_ أفضل أن يعدم وفقا للتقاليد العسكرية

ـ وأنا أوثر أن يموت وفقا لتقاليد الثورة الجمهورية.

ثم تفرس في وجه جوفان وسأله:

– لم أطلقت سرا راهبات دير (القديسة ماري)؟

فأجاب جوفان: أنا لا أشهر الحرب على النساء

– هؤلاء النساء يمقتن الشعب.. والمرأة الواحدة تفوق في مقتها عشرة رجال.. لم رفضت أن تقدم إلى (المحكمة الثورية) أولئك القسس الشيوخ المتعصبين الذين أسرتهم في (لوفنيه)؟

– لأني لا أشهر الحرب على الشيوخ..

– القس الشيخ أشد ضررا من القس الشاب، إن أرباب الشعور البيضاء أقدر على أذكاء روح التمرد والعصيان وللناس إيمان أعمى بالشيوخ، لا نريد رحمة كاذبة يا جوفان، ليكن نظرك دائما متجها إلى سجن (التامبل)

– سجن (التامبل) لو كان الأمر بيدي لأطلقت سراح ولي العهد.. أنا لا أشهر الحرب على الأطفال.

– أعلم يا جوفان أنه لابد من إشهار الحرب على المرأة إذا كان اسمها ماري انطوانيت.. وعلى الشيخ إذا كان اسمه البابا بيوس السادس.. وعلى الطفل إذا كان اسمه لويس كابيه (ولي عهد فرنسا).

– لست من رجال السياسة يا أستاذي..

– هذا اتجاه خطر. لم أمرت رجالك بفتح الصفوف أمام الثائر جان تريتون في موقعة (كاسيه) حينما استحال عليه التقهقر وهجم عليهم شاهرا سيفه، وقلت لهم: دعوه يمر؟

– لأنه لا يليق بالإنسان أن يترك ألفا وخمسمائة رجل يقتلون رجلا واحدا.

– لم لم تأمر بإعدام الفلاحين الأسرى الثلثمائة الذين أخذتهم بعد انتصارك في موقعة (لانديان)؟

– لأن القائد الملكي بوشام عفا عن أسرى الجمهوريين فأردت أن يقال أن الجمهورية تعفو عن أسرى الملكيين. – وقياسا على هذا ستعفو عن لانتناك إذا أخذته أسيرا !

– لا.

– ولم لا؟ ما دمت عفوت عن الأسرى الفلاحين الثلثمائة !

– إن الفلاحين قوم جهلاء. أما لانتناك فهو يعقل ما يفعل.

– لانتناك كهل !

– لانتناك غريب !. لانتناك لا عمر له ! لانتناك يستجدي الإنجليز ! لانتناك يغزو وطنه ! لانتناك عدو الوطن ! إن الصراع بيني وبينه لا يمكن أن ينتهي إلا بالموت لأحدنا.

– تذكر هذا الوعد يا جوفان وكن على حذر إن واجبات خطيرة تنتظرنا، إن عام ٩٣ هو أدق مرحلة في تاريخ الثورة. وأخطر ما يؤذي الجمهورية هو هذه الشفقة التي تحرص عليها.

فقال جوفان: إني أحذرك بدوري كي لا توصم الجمهورية بالإرهاب والطغيان.. الحرية والمساواة والإخاء هي المبادئ الخالدة التي تقوم عليها الطمأنينة ويستتب بها السلام. فلم نطبعها بطابع العنف والبطش؟ لا يحتاج الإنسان لفعل الشر توسلا إلى الخير. ولا يفسد مبادئ السلام والتسامح غير القسوة والتنكيل. لن أسفك الدماء إلا معرضا صدري في الطليعة. وفوق هذا فأنا جندي فحسب، لكني إذا لم أتوسل

بالعفو فالنصر عندي لا يساوي ثمنه. لنكن في القتال أعداء أعدائنا، أما بعد النصر فلنكن أخوانا.

فقال سيموردان: إني أحذرك للمرة الثانية يا جوفان. فإن لك في نفسي أكثر من منزلة الابن.

ثم أستطرد وهو يفكر: إن الشفقة في العهد الحاضر قد تعد من قبيل الخيانة.

الفصل الثامن

في هذه الأثناء كانت الأم لا تكل في البحث عن أبنائها، كانت تهيم على وجهها في كل مكان، وتواصل الليل بالنهار في السعي والبحث ذاهلة عن نفسها. تستجدي المارة وتقتات بالأعشاب وتفترش الأرض وتنام في العراء. في الغابات في الحقول. تحت لفح الرياح ووابل المطر، كانت تنتقل من قرية إلى قرية باحثة عن أثر يرشدها إلى أولادها. كانت تجهل كل شئ إلا أنها من مزرعة (سيسوانيار) في مقاطعة (بازي).. ولم يكن يعرفها أحد في الجهات التي سلكتها ثم تمزقت ثيابها حتى أصبحت أسمالا بالية.. وبلى حذاؤها وراحت تمشي حافية، دامية القدمين. وكانت تحوطها المعارك المروعة والملاحم الدامية.. غير أنها لم تحفل بهذا، فقد كان تفكيرها منحصرا في شئ واحد.. هو أولادها.

كانت تستوقف المارة وتقول لهم: هل رأيتم ثلاثة أطفال؟ ولدين وبنت؟ رينيه جان، وآلين، وجورجيت الأكبر عمره أربع سنوات ونصف، والصغرى عشرون شهرا.. هل تعرفون أين هم؟ إنهم أخذوا مني بالقوة ! لكن الناس كانوا ينصتون إليها، ثم يهزون رءوسهم ويسيرون صامتين.. أما هي فتقف جامدة في مكانها، وتغرس أظفارها في صدها وهي لا تنبس بكلمة.على أنها في أحد الأيام صادفت فلاحا طيب القلب اصغي إليها، ولما سمع قصتها فكر قليلا ثم قال لها:

– انتظري.. أطفال !

– نعم.. ولدان وبنت.

– إني سمعت كلاما يدور عن سيد حمل معه ثلاثة أطفال وأبقاهم عنده.

ـ أين هذا الرجل؟ أين هم؟

ـ ذهب إلى (لاتورج).

– وهل أجد أولادي هناك؟

– ربما تيسر ذلك.

– وما هو (لاتورج) هذا؟

– هو مكان.

– هل هو قرية؟ أو حصن؟ أو مزرعة؟

– لم أذهب إليه أبدا.

– هل هو بعيد؟

– أعرف أنه غير قريب.

– في أي اتجاه؟.

– في اتجاه غابة (فوجير)..

– وكيف أسير إليها؟

فأشار الفلاح بذراعه إلى ناحية الغرب وأجابها:

– سيرى إلى الأمام رأسا..

وقبل أن يتم الفلاح كلماته أسرعت الأم ركضا، فهتف الرجل خلفها:

– حاذرى !. إن القتال دائر هناك..

لكنها لم تجب، بل واصلت سيرها إلى الأمام.

الفصل التاسع

على صخرة صخمة قرب نهاية غابة (فوجير) شيد حصن (لاتورج) مقر أسرة جوفان التاريخي. وهو بناء شاهق مستدير مكون من ست طبقات، يبلغ سمك جدرانه أربعة أمتار، ويمتد حول الصخرة القائم فوقها أخدود يجرى فيه ماء أحد الأنهار شتاء، ويجف صيفا.. ويجاور الحصن المذكور من الناحية الغربية هضبة مرتفعة يفصلها الأخدود عنه، وبين الحصن والهضبة برج مستطيل قائم على أعمدة مرتفعة ترتكز قواعدها في بطن الأخدود، وهو مكون من ثلاث طبقات: السفلى رواق مستطيل مقفل الجوانب يسمى غرفة الحراسة والوسطى غرفة للمكتبة بها المجلدات التاريخية ومستندات الأسرة، والعليا مخزن للحبوب.

ولكي يأمن أصحاب الحصن من المغيرين عليهم عن طريق البرج أنشأوا بابا ثقيلا من الحديد في جدار الحصن يفصله عن البرج، ولهذا الباب مفتاح كبير محجوب في مخبأ لا يعرف سره سوى صاحب الحصن.. وبذلك يتعين على من يريد الدخول إلى الحصن أن يجتاز البرج أولا لكي يصل إلى الباب الحديدي المذكور، ثم ينفذ من هذا الباب لكي يدخل إلى الحصن.. ولم يكن هناك غير هذا المدخل..كانت الطبقة الثانية من البرج قائمة على أعمدة معقودة، وهي موازية للطابق الثاني من الحصن، وبين الاثنين وضع الباب الحديدي..وكان يفتح على المكتبة أو الطابق الثاني من البرج من ناحية، ومن الناحية الثانية على قاعة فسيحة يتوسطها عمود ضخم تكون الطابق الثاني من الحصن كما تقدم. وهي مستديرة كالحصن نفسه، ذات نوافذ مستطيلة تشرف على الحقول. وهناك سلم لولبي شديد الانحدار منحوت في الجدار السميك يصل هذه القاعة بالطبقات العليا

والسفلى من الحصن أما الباب الحديدي نفسه فهو مركب في الجدار السميك بين المكتبة في البرج من ناحية وبين الطابق الثاني للحصن من الناحية الأخرى. وهو يترك فراغا في الجدار من الناحيتين يبلغ طوله نحو مترين.

والبرج نفسه من ناحية الهضبة عبارة عن جدار رأسي، ولا يمكن الوصول إليه من هذه الناحية إلا بوساطة قنطرة متحركة، متى رفعت انعزل البرج عما حوله وتعذر الوصول إلى الحصن كذلك. وهناك سلم لولبي ينحدر من مدخل الباب الحديدي إلى الطابق السفلي للبرج.

أما غرفة المكتبة الكائنة فوق هذا الطابق فهي غرفة مستطيلة لها باب غير موصد مكسو بقماش أخضر، يفصله عن الباب الحديدي القائم في جدار الحصن ممشى قصير وقد صفت في جوانب الغرفة دواليب زجاجية تكدست فيها المجلدات الثمينة. ولها ست نوافذ كبيرة في كل جدار ثلاث، ينفذ الضوء منها إلى داخل المكتبة. ويمكن الواقف فوق الهضبة أن يشرف على داخل هذه الغرفة من النوافذ المشار إليها. وتتوسط الغرفة طاولة تحمل مجلدا ضخما ثمينا مزينا بالصور، يمثل مذبحة بارثلوميو المشهورة.

كان حصن (لاتورج) بالإجمال بناء شاهقا من ست طبقات، له مدخل واحد هو الباب الحديدي الموضوع في وسط الجدار الذي يبلغ سمكه أربعة أمتار، وهو يؤدي إلى برج من ثلاث طبقات تعزله قنطرة متحركة، ويجاور القصر من الخلف غابة (فوجير)، ومن الأمام هضبة أعلا من البرج نفسه وأقل ارتفاعا من الحصن، وأسفل البرج أخدود ضيق عميق يجري فيه الماء شتاء.

الفصل العاشر

جاء شهر أغسطس عام ٩٣، وأصيبت ثورة (فنديه) بضربات متلاحقة من الجمهوريين، وصدرت مراسيم من باريس بتكوين فرق من المتطوعين لإحراق الغابات وتدميرها في هذا الشهر وقع حصن (لاتورج) تحت حصار شديد، وذات ليلة دوى في السكون السائد صوت نفير صادر من أعلا الحصن، فجاوبه طبل من الأسفل، كان في أعلى الحصن رجل مسلح أما حول قاعدته فقد انتشرت في الظلام قوات كثيرة العدد ملأت الغابة والهضبة وأحاطت بالحصن إحاطة السوار بالمعصم، كان الحصن محاصرا بجيش الجمهوريين ودوى صوت النفير ثانية من أعلا الحصن، فتلته على الأثر دقات الطبل صادرة من أسفل الحصن.

كان الحصن يستفهم من المعسكر عما إذا كان يمكنه أن يتفاهم معه، فأجابه المعسكر بالإيجاب، ومعنى هذا أنه عقدت بين الطرفين هدنة موقوتة بضع دقائق، قال الرجل الواقف في أعلا الحصن في صوت مرتفع: _ أيها الرجال أنا إيمانوس الذي أعدمتم أباه وأمه وأخته بالمقصلة، وإني أخاطبكم باسم مولاي الماركيز جوفان دي لانتناك، فيكونت دي فونتناي، أمير الغابات السبع، اعلموا أولا أن مولاي الماركيز قبل أن يعتصم بهذا الحصن الذي تحاصرونه، قد وزع قيادة الجيوش بين ستة من قواده، فإذا استوليتم على هذا الحصن فلن تنتهي متاعبكم، وإذا مات مولاي الماركيز وجدت ثورة (فنديه) من يذكيها ويحييها إني أنذركم بهذا الكلام.. ومولاي الماركيز موجود الآن بجواري.. وأنا لسانه الناطق الذي ينقل اليكم ما يريد.. فاسمعوا الآن ما يريد..لا تنسوا أن الحرب التي تشهرونها علينا هي حرب ظالمة.. نحن رجال مسالمون مقيمون في أرضنا.. وقد هاجمتنا

الجمهورية في عقر دارنا.. فأحرقت بيوتنا.. وأتلفت زراعاتنا.. وشتتت نساءنا وأطفالنا.

أيها الرجال !.. حصرتمونا في هذا الحصن.. وقتلتم وفرقتم من كان معنا.. وأنتم الآن أربعة آلاف وخمسمائة.. أما نحن فلا نزيد على تسعة عشر رجلا إن معكم الزاد والذخيرة.. وقد نجحتم في نسف جانب الصخرة وأحدثتم فتحة في جدار الحصن يمكنكم الدخول منها، وإن كان باقي الحصن مع ذلك منيعا.. وأنتم الآن تستعدون لمهاجمتنا..فاسمعوا الآن ما نريد أن نقوله لكم.

إن بين أيدينا ثلاثة أطفال أسرى. وهؤلاء الأطفال قد تبنتهم إحدى فرق جيشكم، وهم ينتمون إليكم، ونحن الآن نعرض عليكم تسليم الأطفال الثلاثة، بشرط واحد، هو أن تدعونا نرحل من هنا فإذا رفضتم، فافهموا جيدا ما سيجرى..

لن يمكنكم أن تهاجمونا إلا من أحد طريقين، الأول من طريق الفتحة الكائنة عند طرف الغابة، والثاني من طريق البرج المجاور للهضبة إن البرج مكون من ثلاث طبقات. وقد وضعت في الطابق الأول ستة براميل من القطران، وكمية كبيرة من الأعواد الجافة. وفي الطابق الأعلى يوجد قش كثير، وفي الطابق الأوسط كتب وأوراق متنوعة. والباب الحديدي الموصل بين البرج والحصن مقفل، ومفتاحه في جيب مولاي الماركيز. وقد أحدثت بيدي فتحة أسفل الباب المذكور، يمتد من خلالها شريط كبريتي يصل أحد طرفيه إلى القطران، وطرفه الآخر في متناول يدي في داخل الحصن. وفي وسعي أن أشعله حينما أشاء.فإن رفضتم أن تفرجوا عنا، فسنضع الأطفال الثلاثة في الطابق الثاني من البرج، بين الطابق الذي يوجد فيه شريط الكبريت المتصل بالقطران والطابق المملوء بالقس، ثم يغلق الباب الحديدي عليهم.

فإذا هاجمتمونا من ناحية البرج أضرمتم النار بأيديكم في البناء. وإذا هاجمتمونا من ناحية الفتحة أشعلنا نحن النار. وإذا هجمتم من الناحيتين ستشعل النار بأيدينا معا. وفي جميع هذه الحالات هلاك الأطفال المحقق. والآن، لكم أن تقبلوا أو ترفضوا. فإذا قبلتم خرجنا وإذا رفضتم هلك الأطفال.. وهذا كل ما عندي.

انقطع صوت المتكلم من من أعلا الحصن، فارتفع صوت خشن صارم من الأسفل صائحا:

– إننا نرفض !

ثم تلاه صوت آخر قائلا:

– إننا نمهلكم أربعا وعشرين ساعة للتسليم ! فإذا لم تسلموا غدا في مثل هذه الساعة بدأنا الهجوم !

وعلى أثر ذلك قال صاحب الصوت الصارم:

– وعند ذلك لن تروا منا أقل رحمة !

وما كاد المتكلم يسكت حتى أطل من أعلا الحصن وجه عرف الجميع فيه الماركيز دي لانتناك. وصاح قائلا:

– عرفتك أيها القسيس !

فأجاب صاحب الصوت الصارم: نعم. هو أنا أيها الخائن !

كان صاحب الصوت الصارم هو سيموردان حقا.

أنا الآخر فكان جوفان.والواقع أنه لم تمض سوى بضعة أسابيع على وجود سيموردان في هذه المناطق حتى كانت قسوته مضرب الأمثال، وجرى اسمه مقرونا بالرعب على كل لسان، حتى كان يقال أن مارا في باريس وسيموردان في (فنديه).

عقدت هدنة موقوتة بين الفريقين بفضل تدخل جوفان. وكان ايمانوس لم يتنكب الصواب. فبفضل الامدادات التي طلبها سيموردان استطاع جوفان أن يقف على رأس جيش مكون من أربعة آلاف وخمسمائة من الجنود، وأن يحاصر لانتناك في حصن (لاتورج) وكانت ترافقه مدفعية نصب جانبا منها عند حافة الغابة في مواجهة الحصن، والجانب الآخر فوق الهضبة أمام البرج. كما نجح في نسف جزء من قاعدة الصخرة وإحداث فتحة في أسفل الحصن..

كان رجل من أسرة جوفان يهاجم رجلا من أسرة جوفان. وإذا كان جوفان الشاب قد تباطأ في الهجوم بسبب تقديره لتاريخ الحصن فإن لانتناك لم يهتم بهذه الحقيقة، فقد أقام شطرا كبيرا من حياته في فرساي وهو لم يلجأ إليه إلا اضطرارا. أما جوفان فكان يعرف أن أضعف نقطة في الحصن هي البرج. لكن في هذا البرج غرفة المكتبة التي تضم تاريخ الأسرة ومخلفاتها المجيدة. فإذا هاجم الحصن من هذه الناحية عرض هذه المخلفات للحريق والتلف. وهي جريمة كان يستنكرها، ولذلك انصرف عن مهاجمة الحصن من ناحية البرج، واكتفى بوضع بطارية من المدافع فوق الهضبة المجاورة له تلافيا لفرار أحد من المحصورين. ووجه همه إلى مهاجمة الحصن رأسا من ناحية الغابة. ومن هنا أحدث تلك الفتحة المشار إليها في أسفل الجدار.

أما سيموردان فقد استاء أولا من هذا التسامح الذي أبداه جوفان. وعد إبقاءه على البرج لونا من الضعف الذي كان يستنكره ويحذر جوفان من الاستسلام له. لكنه لم يلبث أن تذكر أنه تربطه كذلك بهذا المكان روابط تاريخية. فقد قضى شطرا من حياته في تربية جوفان والإشراف على تهذيبه، وكان قسا في قرية باريجيه المجاورة. وفي غرفة المكتبة لقن جوفان دروسه الأولى وولاه بالتثقيف حتى استوى شابا مكتمل العقل ناضج الذهن. ولذلك شارك جوفان في الإبقاء على البرج ومهاجمة الحصن من ناحية الفتحة.. وإن شعر مع ذلك بوخز الضمير لاستسلامه لهذا الضعف.

الفصل الحادي عشر

مضى الليل كله في استعداد الجانبين لخوض معركة الغد وما كادت تنتهي تلك المحادثة التي رأيناها في الفصل السابق حتى استدعى جوفان نائبه جيشام وقال له بلا مقدمات:

– جيشام.. أريد سلما.

– لا نملك سلما أيها القائد.

– لابد من إيجاد واحد.

– للصعود بواسطته

– لا.. بل للنجاة عن طريقه.

فكر جيشام قليلا ثم قال:

– فهمت.. لكن لابد أن يكون هذا السلم طويلا لتحقيق الغرض الذي تريده.

– يكون مساويا في الطول على الأقل ثلاث طبقات.

– نعم أيها القائد. هذا هو الارتفاع في الواقع.

– بل لابد أن يرتفع أكثر من هذا القدر.. فيجب أن نضمن النجاح..

– بلا ريب.

– كيف لا يوجد عندكم سلم؟

– إنك لم تهتم كثيرا بمحاصرة (لاتورج) عن طريق الهضبة يا سيدي القائد.. بل اكتفيت بمحاصرته من هذا الجانب المجاور للغابة.. وانصرفت رغبتك إلى مهاجمته

من هذه الناحية، لا من ناحية البرج، ولذلك وجهنا جهودنا لنسف جزء من قاعدة الحصن وأحداث الفتحة المعروفة، وطرحنا كل فكرة ترمي إلى التسلق.. وهذا هو سبب عدم وجود سلم معنا.

– ليصنع سلم حالا.

– لا يمكن صنع سلم يبلغ ارتفاع ثلاث طبقات..

– أجمع بضعة سلالم قصيرة وصل بعضها ببعض.

– لابد أولا من إيجاد السلالم القصيرة لتحقيق هذا الغرض..

– أوجدها بأي طريقة.

– لا يمكن إيجاد سلالم بتاتا. إن الفلاحين يحطمون السلالم في كافة أنحاء الإقليم، كما يتلفون المركبات ويقطعون الجسور.

– هذا صحيح. فهم يحاولون أن يشلوا الجمهورية، لكن لابد من إيجاد سلم برغم ذلك.

– تذكرت أيها القائد.. يوجد مصنع نجارة في بلدة (جافنيه) قرب (فوجير) وقد يمكن أن يكون به السلم المطلوب.

– لا أريد أن تضيع دقيقة واحدة.

– متى تريد السلم؟

– غدا في مثل هذه الساعة على الأكثر.

– سأوفد رسولا في الحال إلى (جافنيه) وفي هذه البلدة توجد فرقة من الفرسان التابعين لنا يمكن أن يتولوا الحراسة اللازمة، ويمكن أن يكون السلم هنا غدا قبل الغروب.

– لا بأس.. اذهب الآن لتنفيذ المطلوب.

ذهب جيشام.. وبعد عشر دقائق عاد إلى جوفان وأبلغه أن الرسول قام إلى (جافنيه) وارتقى جوفان الهضبة ووقف طويلا يدرس موقع البرج القائم فوق الأخدود.. كانت جدران البرج تواجه جدران الأخدود المنحدر، وليس هناك منفذ يؤدي إليها إلا عن طريق القنطرة المتحركة المرفوعة ولكي يتسنى الوصول إلى قوائم البرج المعقودة عن طريق الهضبة لابد من هبوط جدار الأخدود المنحدر. وهي مهمة يمكن إتمامها عن طريق الأشجار القصيرة النامية فوقه.. لكن لا يكاد الإنسان يصل إلى قاع الأخدود حتى يتعرض لكافة ألوان القذائف تنصب عليه من طبقات البرج الثلاث، ولذلك اقتنع جوفان أكثر من قبل بأن الهجوم المثمر على الحصن إنما يكون عن طريق الفتحة المجاورة للغابة..

اتخذ جوفان كل احتياط رآه لازما لمنع إفلات أحد من الحصن فضيق نطاق الحصار وبث رجاله في كل مكان.. وقسم جوفان العمل بينه وبين سيموردان.. فاحتفظ لنفسه بمنطقة الغابة، وترك لسيموردان الإشراف على الهضبة والأخدود ومنع الإفلات عن طريقهما، وأخذ على عاتقه مهمة الهجوم بمساعدة جيشام.

الفصل الثاني عشر

بينما كان الاستعداد للهجوم يجري على قدم وساق خارج الحصن، كان نشاط يماثله يحدث في الداخل لإعداد معدات الدفاع.نسف المهاجمون جانبا من جدار الحصن السفلى بواسطة البارود فحدثت فتحة ملتوية في الجدار الذي يبلغ سمكه أربعة أمتار، كانت تنتهي إلى الطابق الأرضي في الحصن.. وهو قاعة رحبة تشمل كل الطابق، يبلغ قطرها عشرة أمتار، ويتوسطها عمود يرتكز عليه سقفها المعقود.. وكانت بعكس باقي طبقات الحصن مجردة من الأثاث، لا نوافذ لها، خالية من الهواء ولا يقوى الإنسان على البقاء فيها وقتا طويلا وإلا تعرض للاختناق. وكان لها بابان، أحدهما يؤدي إلى سرداب الحصن، والآخر يفضي إلى السلم المحفور في داخل الجدار الموصل بين كافة طبقات الحصن.

كان على المهاجمين أن يدخلوا إلى هذه القاعة عن طريق الفتحة، لكي يستولوا منها على باقي الحصن..وكان البقاء في تلك القاعة مستحيلا لانعدام الهواء الصالح كما تقدم ولكن بفضل الفتحة التي أحدثها المهاجمون أصبح البقاء فيها ميسورا ولذلك لم يحاول الماركيز سد الفتحة، بل أمر بوضع مشعل ثبت فوق أحد الجدران، وأخذ يفكر في أصلح الطرق للدفاع. رأى أن سد الفتحة محاولة عقيمة، فسيسهل على المهاجمين ضربها بمدافعهم واستقر رأيه أخيرا على إنشاء خندق في أرضها أمام الفتحة لينتهي عند الجدار في الجانبين، وأقامة استحكامات قوية تكفل له ولرجاله البقاء خلفها، واصلاء المهاجمين نارا حامية دون أن يتعرضوا هم للهلاك. وسرعان ما أخذ في تنفيذ هذه الخطة. ووقف بين رجاله يرشدهم ويوجههم ويأمرهم ويشاركهم في كل شئ، وكانت حماسته لا تفتر ونشاطه لا يخمد. وكان يقول لهم:

– تشجعوا أيها الأصدقاء. إن الملك شارل السابع تمكن في عام ١٧١٣ من الاعتصام مع ثلثمائة رجل في بيت في " بنديه " وصد هجوم عشرين ألف مقاتل من الأتراك.

حصن الماركيز ورجاله الطابقين الأرضي والأول، ووضعوا كافة الاستحكامات اللازمة خلف الأبواب وفي الأركان. ولم يتركوا ثغرة ضعيفة إلا دعموها وعززوها بوسائل الدفاع القوي، لكنهم تركوا السلم الموصل بين طبقات الحصن ولم يقفلوه في وجه العدو حتى يسهل عليهم التنقل من مكان إلى مكان. وقال الماركيز لرجاله وهو يستحثهم ويبث فيهم روح النضال:

– لو أن نصفكم تمرد علي لأمرت النصف الباقي بإعدامه ثم توليت الدفاع عن الحصن بمن يبقون.

الفصل الثالث عشر

بينما كان الماركيز مهتما بالدفاع عن الحصن أخذ أيمانوس يشرف على البرج، كان للبرج سلم مدلى فوق الجدار من الطابق الثاني إلى قاع الأخدود، وهو احتياط رأى أصحاب الحصن اتخاذه لإمكان الإفلات من البرج في حالة شبوب النار فيه، ولما عرف الماركيز بحصار الحصن أمر برفع هذا السلم ووضعه أيمانوس في غرفة المكتبة. كان هذا هو سبب رغبة جوفان في الاستعاضة عن هذا السلم بالسلم الذي طلب إلى جيشام أن يعمل على إيجاده.

وكانت نوافذ الطابق الأول في البرج، وهو المعروف بغرفة الحراسة، مشبكة بالقضبان الحديدية الغليظة المشادة في الجدار أما نوافذ غرفة المكتبة في الطابق الثاني فلم يكن بها قضبان، غير أنها كانت شديدة الارتفاع صحب ايمانوس ثلاثة رجال معه هم (اواسنار) والإخوان (بيكبوا) وهم رجال ذوو جلد وقوة، وحمل مصباحا وفتح الباب الحديدي الموصل بين الحصن والبرج، وشرع يتفقد طبقاته الثلاث.

طاف ايمانوس بالطابق العلوي للبرج، وهو غرفة المخزن المملوءة بالقش، ثم هبط إلى الطابق الأول حيث توجد براميل القطران وأعواد الحطب الجاف. فوضعها متلاصقة، واطمأن إلى حالة الشريط الكبريتي الذي كان أحد طرفيه في هذه الغرفة وطرفه الآخر في الحصن. ثم سكب فوق الحطب وأسفل البراميل كمية من القطران وغمس نهاية الشريط فيه وحمل أخيرا إلى الطابق الأوسط المكون من غرفة المكتبة وهي كائنة بين الطابق الأرضي حيث يوجد القطران والطابق العلوي حيث يوجد القش. حمل إلى هذه الغرفة الأسرة الثلاثة الصغيرة وفوقها الأطفال الثلاثة رينيه جان وآلين وجورجيت الذين كانوا مستسلمين للنوم.

وضع الأطفال بهدوء في غرفة المكتبة أمام السلم المرتكز إلى الجدار، وكان بجوار كل مهد إناء به حساء وملعقة خشبية. وفتح جميع نوافذ الغرفة حتى يتجدد هواؤها، ثم أمر زملاءه بفتح نوافذ الغرفتين العليا والسفلى كذلك وكان أيمانوس قد لاحظ وجود عمود من النباتات المتسلقة يمتد على جدار البرج من أسفله إلى أعلاه، قريبا من النوافذ. غير أنه لم ير ضررا منه. ثم ألقى نظرة أخيرة على المكان، ولما اطمأن إلى كل شئ رافق رجاله وعادوا جميعا إلى الحصن. فأغلق أيمانوس الباب الحديدي بالمفتاح، ونظر راضيا إلى الشريط الكبريتي الممتد أسفل الباب في الثغرة التي أحدثها بيده. وكان هذا الشريط هو الصلة الوحيدة بين الحصن والبرج. وهو يتمدد كالأفعى من الغرفة المستديرة في الطابق الثاني بالحصن، ويمر أسفل الباب الحديدي وعلى امتداد النفق القصير المحفور في الجدار السميك، ثم ينحدر في السلم اللولبي المؤدي إلى الطابق الأسفل في البرج، وينتهي أخيرا عند القطران والحطب. وقدر أيمانوس أن الشريط يستغرق ربع ساعة إذا أشعله في الحصن لكي يضرب النار في المواد الملتهبة الكائنة أسفل المكتبة. ولما فرغ من هذه الاستعدادات واطمأن إليها حمل مفتاح الباب الحديدي إلى الماركيز الذي وضعه في جيبه. وأخيرا صعد إلى أعلى الحصن ووقف يراقب الغابة والهضبة بعين ساهرة. وأخذ في نفس الوقت يحشو بندقيته استعدادا للهجوم.

الفصل الرابع عشر

استيقظ الأطفال الثلاثة وفتحت الطفلة الصغيرة عينيها أولا.كانت جورجيت تناهز عشرين شهرا. وهي صغرى أخويها. وما لبثت أن رفعت رأسها، وجلست في مهدها، ونظرت إلى قدميها، ثم أخذت تلغط في شدو كتغريد الطيور.وكان أخواها نائمين. كل في مهده وكان رينيه جان يبدو قوى البنية. وتمدد على وجهه ووضع يديه تحت عينيه. أما آلين فإنه أدلى ساقيه من فوق حافة المهد.

كان الأطفال الثلاثة يرتدون ملابس ممزقة بالية خلعها عليهم جنود (الفرقة الحمراء) لكنها أصبحت بفعل الأيام خيوطا لا تكاد تستر أجسامهم. ولم يكن هناك من يعني بهم ويحنو عليهم. فقد كان الفلاحون القساة يجرونهم معهم من قرية إلى قرية ومن غابة إلى غابة. وكل ما كانوا يجودون به عليهم هو قليل من الحساء على أنه برغم هذه الأسمال البالية التي تعلو الأطفال، كانت تحوطهم هالة من النور، ومظهرهم يثير الحب والإعجاب. استيقظ رينيه جان بعد جورجيت. وكان يجاوز الرابعة من عمره. وجلس في سريره الصغير، ثم وثب من فوقه وثبة الرجال. ولما رأى إناء الحساء بجانبه، جلس فوق الأرض، وأخذ يتناول طعامه ثم استيقظ آلين على صوت الملعقة التي كان رينيه جان يدسها في الإناء.. كان يناهز الثالثة من عمره. ولما رأى الإناء الخاص به بجانبه لم يكلف نفسه عناء النزول إلى الأرض بل مد يده الصغيرة وتناوله ووضعه في حجره، وأخذ يأكل بدوره. ولما رأت جورجيت شقيقيها يأكلان. كفت عن تغريدها الملائكي وتناولت الإناء الموضوع قرب مهدها. وأخذت تأكل. وكانت أحيانا تدني الملعقة من أذنها، لا من فمها. وأحيانا تنبذ وسائل المدنية، وتأكل بأصابعها الصغيرة.

وفجأة، دوى من ناحية الغابة صوت طبل عال، فأجابه صوت نفير من أعلا الحصن.ثم ارتفع من ناحية الغابة صوت بعيد وصاح صاحبه:

– يا قطاع الطرق هذا إنذار لكم إذا لم تسلموا عند غروب الشمس، بدأنا الهجوم سنطلق مدفعا قبل الهجوم بنصف ساعة، وهو آخر إنذار لكم. فردد صاحب الصوت العلوي كلمته: اهجموا !.

لم تصل أصوات هذا الحديث إلى آذان الأطفال. ولكنهم سمعوا صوت النفير والطبل بجلاء. فكفت جورجيت عن الأكل. وأخذت تنصت باهتمام. وراحت ترفع وتخفض يدها الصغيرة وفقا لتموجات صوت النفير أما الطفلان الآخران فلم يكترثا بهذا الصوت. بل نهضا وراحا يتنقلان في أرجاء الغرفة مستطلعين في فضول الأطفال المعروف.

فرغت جورجيت من طعامها. وألقت الإناء والملعقة جانبا. ولما رأت شقيقيها منهمكين في اللعب والعبث، هبطت من فوق المهد الصغير. وأخذت تحبو على أربع. وانضمت إليهما وفجأة بينما كان رينيه جان يلعب قرب إحدى النوافذ رفع رأسه، ثم أسرع إلى أحد الأركان واختبأ فقد رأى رجلا ينظر إليه.

كان أحد جنود الزرق المرابطين فوق الهضبة. وقد انتهز فرصة الهدنة الموقوتة وتسلل إلى حافة المنحدر الذي يشرف على داخل غرفة المكتبة. وأرسل نظره وما كاد آلين يرى شقيقه يختبئ، حتى أسرع إلى الإختباء بجواره. ثم أسرعت جورجيت بدورها إلى الاختباء خلف الاثنين. وبقي الثلاثة في مكانهم صامتين، ووضعت جورجيت أصبعها على فمها تشجع رينيه جان بعد قليل ورفع رأسه ونظر أمامه. فوجد الجندي باقيا في مكانه. فتراجع بسرعة. وتلاصق الإخوة الثلاثة وقد حبسوا أنفاسهم.

مضت بضع دقائق وسئمت جورجيت هذا الموقف فاستجمعت شجاعتها وأطلت برأسها إلى ناحية النافذة.. لكن الجندي اختفى وسرعان ما خرج الثلاثة من مخبئهم، وعادوا إلى سابق مرحهم وأخذوا يعبثون ويلعبون.

ثم جاء المساء، واشتدت الحرارة، وتثاقل جفنا جورجيت... وذهب رينيه جان إلى سريره الصغير، وحمل كيس القش الذي فوقه وجره إلى النافذة، وتمدد فوقه قائلا:

– جاء وقت النوم.

أسند آلين رأسه إلى رينيه جان وتمدد بجواره، ووضعت جورجيت رأسها فوق آلين.. واستسلم الثلاثة للنوم انحدرت الشمس فوق الأفق ولامست حافته.. وساد سكون عذب يملأ النفوس راحة وطمأنينة.. وتجمع هؤلاء الأطفال الثلاثة كتلة واحدة نصف عارية كأنهم صور من (كيوبيد).

كانوا صورة مجسمة للنقاء والطهارة.. ولم تتجاوز أعمارهم متجمعة تسعة أعوام.. وكانت الابتسامات العذبة المنطبعة على شفاههم صدى للأحلام السماوية التي يسبحون فيها.. وربما كانت الملائكة في هذا الوقت تهمس في آذانهم. وفجأة عكر السكون دوي هائل صدر من ناحية الغابة.. هو قصف مدفع.. وتجاوبت أصداؤه في تموجات جهنمية تبعث الرهبة في النفوس. استيقظت جورجيت على هذا الصوت، ورفعت رأسها قليلا ثم غمغمت.

تلاشى الصوت، وساد السكون.. ثم توسدت جورجيت صدر أخيها آلين، واستأنفت رقادها الهنئ.

القسم الثاني

الأم

الفصل الأول

في فجر هذا اليوم كانت الأم التي شاهدناها هائمة على وجهها سعيا وراء أطفالها، كانت تسير متجهة إلى الغرب، كما أوصاها الفلاح، تردد بين حين وآخر كلمة " لاتورج " وكانت هذه الكلمة هي كل ما تعرفه، فيما عدا أسماء أولادها..كانت تسير ذاهلة حالمة.. لا تحفل بشئ حولها.. ولا تفكر إلا في أطفالها..

وصلت إلى قرية في طريقها.. وكان الفجر قد بزغ. وأخذت خيوطه تبدد غياهب الظلام.. ورأت بعض الحوانيت مفتوحة في طرقات القرية الرئيسية.. والناس يطلون من نوافذهم مستطلعين.. لقد سمعوا دوي عجلات مركبة. وصليل سلاسل..وفي ميدان الكنيسة وقف جمع من أهل القرية تعلوهم مظاهر الخوف ورفعوا رءوسهم وجعلوا يراقبون شيئا ينحدر فوق سفح التل القريب، ويدنو من القرية.

كانت مركبة ذات أربع عجلات تجرها خمسة جياد تتدلى منها السلاسل وكان الناظر إلى هذه المركبة يرى فوقها جسما مستطيلا يتوسطه جسم آخر غير محدد الشكل، ويعلوه غطاء من القماش السميك كأنه غطاء نعش وكان يتقدم المركبة عشرة فرسان ويسير مثلهم في أثرها.. تغطي رءوسهم قبعات تعلوها شارات مثلثة الألوان وتبدو من فوق رءوسهم أطراف سيوف مجردة.. كان هذا الموكب يتقدم ببطء، وهو يبدو للعين مجللا بالسواد في ضوء الفجر الباهت.

انتشر ضوء الصباح بينما كان الموكب ينحدر فوق التل.. فكان الفرسان فرقة من الجنود شاهرة سيوفها، وكانت المركبة سوداء اللون..وصلت الأم البائسة إلى

القرية من الناحية المقابلة.. وانضمت إلى جمع الفلاحين عند مرور المركبة والجنود في الميدان.. وراح الفلاحون يتبادلون الأسئلة والأجوبة، قال أحدهم:

– ما هذا؟

– المقصلة.

– من أين جاءت؟

– من فوجير

– وإلى أين تذهب؟

– لا أعرف. يقال أنها ذاهبة إلى حصن بجوار (باريجية)

– لتذهب إلى حيث تشاء بشرط ألا تقف هنا.

اخترق هذا الموكب الرهيب ميدان القرية وجاوزها. كانت القرية كائنة في سهل منخفض بين تلين. وبعد ربع ساعة شاهد الفلاحون المروعون ذلك الموكب يظهر ثانية فوق سفح التل المقابل. ثم انعطف الطريق واختفى شبح الموت عن أنظارهم.وفي نفس هذا الوقت كانت جورجيت قد استيقظت مع شقيقيها كما مر في الفصل السابق، وأخذوا يتناولون طعامهم.

الفصل الثاني

راقبت الأم هذا المشهد دون أن تفقه منه شيئا فقد كان تفكيرها منحصرا في أولادها، ولم تلبث أن غادرت القرية وسارت في أثر الموكب المتجه إلى الغرب، مبتعدة عنه بمسافة وفجأت عادت إلى ذاكرتها كلمة (المقصلة) التي سمعتها. فرددتها على لسانها وهي ترتعد.

كانت هذه الفلاحة البائسة لا تفهم معنى هذه الكلمة لكن الغريزة أوحت إليها أنها شئ مخوف مرهوب. فسرت في كيانها قشعريرة دون أن تفهم السبب وارتاعت من السير خلفها وانحرفت إلى اليسار مبتعدة عن طريقها، ودخلت في غابة (فوجير) ولما قطعت مرحلة كبيرة لمحت عن بعد سقوفا وقبة عالية بها ناقوس، كانت إحدى القرى المتناثرة على حدود الغابه المترامية الأطراف، ولما أحست بالجوع اتجهت إليها، قصدت الأم إلى ميدان القرية وشاهدت أمام دار العمدة جمعا من الناس وقفوا أسفل درجات المدخل، بينما وقف في أعلى الدرج رجل يحمل بيده إعلانا كبيرا منشورا، وقد انتصب عن يمينه جندي يحمل طبلا، وعن يساره رجل بيده دلو وفرشاة، وفي الشرفة المطلة على الباب وقف العمدة حاملا وشاحا مثلث الألوان.

كان حامل الإعلان أحد المنادين الذين يطوفون بالقرى، وكان يحمل فوق كتفه حزاما تتدلى منه حقيبة صغيرة، دنت ميشيل فليشار من هذا الجمع وقت أن بسط المنادي الإعلان وراح يتلوه مرتفع:

ـ "الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ "

رن الطبل.. فحدث لغط بين الجمهور.. ورفع بعضهم قلانسه.. وأرخى آخرون

قبعاتهم فوق رءوسهم.. كان هؤلاء من الملكيين.. وأولئك من الجمهوريين.. ثم سكنت الأصوات.. وأصغى الجميع وتلا المنادي:

"بناء على ما تلقيناه من الأوامر، واستنادا إلى السلطة المخولة لنا من (لجنة الأمن العام) وتطبيقا لقانون (مجلس الأمة الذي يعتبر جميع العصاة الذي يقبض عليهم مسلحين، خارجين على القانون، والذي ينص على إنزال العقاب الصارم بكل من يؤويهم أو يساعدهم على الفرار واستنادا إلى المادة السابعة عشرة من القانون الصادر في الثلاثين من إبريل الذي يفوض المندوبين ووكلاءهم تفويضا تاما ضد الثائرين، يعد خارجا على القانون كل من الأشخاص الواردة أسماؤهم وألقابهم فيما يلي:

لانتناك ماركيز سابقا قاطع طريق حاليا، ايمانوس قاطع طريق، فرانكير قاطع طريق، بوانوفو قاطع طريق، الأخوان بيكبوا قاطعا طريق، أوزار قاطع طريق، بانيير قاطع طريق، بلاسنيت قاطع طريق، جينوازو قاطع طريق، شاتنيه المشهور باسم روبي قاطع طريق، أواسنار قاطع طريق، بلفيج قاطع طريق، لاميزيت قاطع طريق، سابرتو قاطع طريق، برنمور قاطع طريق، شانتيفيه قاطع طريق، لوشا قاطع، طريق تابور قاطع طريق.. وكل من يقبض عليه من المذكورين أعلاه سيعدم في الحال، وكل من يؤويهم أو يسهل لهم الفرار سيقدم أمام المحكمة العسكرية ويحكم عليه بالإعدام.. الإمضاء: مندوب لجنة الأمن العام. سيموردان".

ورفع العمدة قبعته وهو واقف في الشرفة، وهتف: لتحيا الجمهورية أشار المنادي بيده، ودق الطبل،

وقال:

– انتبهوا اسمعوا أمر القائد جوفان قائد جيوش السواحل الشمالية " ممنوع منعا

باتا تطبيقا للأمر الصادر أعلاه تقديم أية مساعدة إلى الثائرين التسعة عشر المذكورين، وهم محاصرون في الوقت الحالي في حصن (لاتورج).. وكل من يرتكب هذه المخالفة يعاقب بالإعدام".

هتف صوت حينما سمع هذا الكلام: لاتورج.

الفصل الثالث

كان المتكلم ميشيل فليشار.. الأم. تطلعت الأنظار إليها.. كانت تبدو في أسمال بالية وكأنها مجنونة. غمغم بعضهم: تبدو كأنها من قطاع الطرق !

دنت منها فلاحة حاملة سل بها بعض الخبز الأسمر، وقالت: امسكي لسانك !

حدقت فيها ميشيل فليشار ببلادة، ولم تفهم موجبا لهذه النظرات التي صوبت إليها، ورن الطبل للمرة الأخيرة والصق حامل الدلو الإعلان وانسحب العمدة إلى داخل بيته وانصرف المنادي إلى قرية أخرى وتفرق الجمهور.

تلكأ بعض الأفراد قرب الإعلان.. وراحوا يعلقون بمختلف الأحاديث على الأسماء الواردة في الإعلان. وكان منهم البيض والزرق.

قال فلاح: مهما يكن فهم لم يقبضوا على الجميع. وهناك زعماء آخرون يقودون الجيوش.

فاعترضه كهل أبيض الشعر صارم النظرات قائلا:

– يا لك من أبله. إذا أخذوا لانتناك أخذوا الكل.

فغمغم أحد الشبان: لكنهم لم يأخذوه بعد.

واستطرد الكهل: إذا أخذ لانتناك نزعت الروح. إذا مات لانتناك ذبحت (فنديه).

وقال أحد الزرق: من هو لانتناك هذا؟.

– هو نبيل سابق..

– وهو أحد الذين يعدمون النساء.

سمعت ميشيل فليشار هذه الكلمات، فقالت: هذا صحيح. التفتوا إليها، فاستطردت: لأنه أطلق الرصاص علي، وكاد يعدمني نظر إليها المتكلمون بارتياب.. وقال أحد الفلاحين:

– قد تكون جاسوسة.

همست الفلاحة التي خاطبتها من قبل:

– إمسكي لسانك وابتعدي من هنا.

فأجابت فليشار: لا أفعل شرا.. إني أبحث عن أطفالي.

نظرت الفلاحة الطيبة القلب إلى الوجوه التي كانت تحدق في الأم البائسة، وقالت وهي تغمز بإحدى عينيها:

– هي بلهاء..

ثم انتحت بها جانبا وقدمت لها لقمة.. فراحت ميشيل فليشار تلتهمها بشراهة دون أن تشكر الفلاحة. وقال أحدهم:

– نعم.. هي تأكل كالحيوان.. هي بلهاء..

ثم تفرق الباقون وانصرفوا واحدا في أثر الآخر وما كادت ميشيل فليشار تلتهم لقمتها حتى التفتت إلى الفلاحة وقالت لها: أكلت.. أين حصن (لاتورج)؟ فهتفت الفلاحة: إن النوبة تعاودها من جديد !

– لابد من ذهابي إلى لاتورج..! اريني الطريق إلى (لاتورج)

فقالت الفلاحة: أبدا. هل تريدين أن تقتلي؟ على أني لا أعرف المكان والآن اصغي إلي يا مسكينة أنت منهوكة القوى.. هل تأتين إلى بيتي وتستريحين قليلا.. إن قدميك تشققتا.

استطردت ميشيل فليشار: ألم أقل لك أنهم سرقوا أطفالي.؟ هم طفلة صغيرة وولدان.. إني جئت من تجويف الشجرة في الغابة.. سلي تلمارش المتسول عن ذلك.. إن تلمارش شفاني.. كان بجسمي كسر. هذا كل حدث لي.. وهناك الجاويش رادوب.. يمكنك سؤاله. ثلاثة ! نعم ثلاثة أطفال !. إن زوجي توفى. قتلوه ! كان مزارعا في (سيسوانيار) يظهر أنك امرأة طيبة. أريني الطريق. لست مجنونة. أنا أم !. فقدت أطفالي. وأنا أبحث عنهم. أريد أن أذهب إلى (لاتورج) لست لصة. إني أقول الحقيقة أرجو أن تساعديني في إيجاد أطفالي. إني لا أنتمي إلى هذه الجهات. إني أعدمت. لكن لا أعرف أين...

هزت الفلاحة رأسها وقالت: في أوقات الثورة يجب ألا تتكلمي كلاما غير مفهوم قد يقبض عليك لهذا السبب فهتفت الأم: لكن (لاتورج) أتوسل إليك يا سيدتي أن ترشدني إلى الطريق الموصل إلى (لاتورج).

قالت الفلاحة منفعلة: لا أعرف. ولو عرفت لما قلت هو مكان شرير والناس يتحاشونه.

فقالت الأم: لكني سأذهب إليه.

ثم واصلت سيرها. فراقبتها الفلاحة وغمغمت: لابد لها من شئ تأكله وركضت خلف ميشيل فليشار ودست بين يديها رغيفا وقالت:هذا لعشائك. تناولت ميشيل فليشار الرغيف الأسمر دون أن تجيب أو تلتفت. بل استمرت في سيرها حتى خرجت من القرية وفيما هي تمر بالبيوت القائمة في أطرافها صادفت ثلاثة أطفال حفاة الأقدام ممزقي الثياب. فدنت منهم ولما تبينتهم قالت: هم بنتان وولد.ولما رأتهم ينظرون إلى الرغيف أعطته لهم.

تناول الأطفال الرغيف. ثم فزعوا منها. أما هي فاندست في الغابة.

الفصل الرابع

في صباح هذا اليوم، وقبل وصول ميشيل فليشار بساعة إلى القرية الأولى حيث شاهدت المركبة المروعة التي كان يحرسها عشرون من الفرسان، كمن في الغابة جمع من الرجال في طريق (جافنيه) عند اتصاله بالقنطرة القائمة فوق نهر كوميسون.

كان الطريق غائرا متعرجا، وحجبت أغصان الأشجار هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يرتدون سترات من الجلد شأن فلاحي هذه النواحي. كان بعضهم مسلحا بالبنادق، وبعضهم الآخر بالفئوس. وقد جمع هؤلاء في شبه حفرة كوما من الأعواد الجافة والأوراق اليابسة التي لم يكن ينقصها إلا أن تضرم فيها النار أما حاملو البنادق فقد كمنو على جانبي الطريق، ووضع كل منهم أصبعه على زناد البندقية، وانتظر.

كانت طلائع النهار قد بدت. ودرات المناقشة التالية بين هؤلاء الرجال:

– يقولون أنها موجودة في هذه النواحي.

– يجب ألا تفلت من أيدينا.

– يجب إحراقها.

– نحن رجال ثلاث قرى، وقد جئنا لهذا الغرض

– نعم. لكن رجال الحرس

– سنقتلهم.

– لكن هل أنت واثق أنها ستمر من هذا الطريق؟

– هي آتية من فوجير.

– بل آتية من جهنم.

– ويجب أن تعود إليها.

– وهل هي ذاهبة إلى (باريجيه)؟

– هذا هو الظاهر

– لن تذهب إليها

وفجأة كتموا أنفاسهم.. فقد سمعوا صوت عجلات وحوافر جياد. ولما نظروا من خلال الأغصان رأوا مركبة مستطيلة وحرسا من الفرسان وجسما فوق المركبة، وكان هذا الموكب آتيا إلى ناحيتهم قال واحد منهم يظهر أنه زعيمهم: ها هي !

– نعم. ومعها حرس.

– كم عددهم؟.

– اثنا عشر.

– قيل لنا أنهم عشرون.

– اثنا عشر أو عشرون. لابد من قتلهم.

– صبرا حتى يصلوا إلى الهدف المطلوب.

وصلت المركبة مع حراسها بعد قليل إلى منعطف الطريق. وفجأة صاح زعيم الفلاحين: يحيا الملك !.وأطلقت بنادق يقرب عددها من المائة مرة واحدة.. ولما انقشع الدخان تبين أن سبعة من الفرسان سقطوا صرعى، وتمكن الخمسة الباقون من الهرب اندفع الفلاحون إلى المركبة. وصاح زعيمهم:

ـ ليست هي المقصلة هذا سلم !

كان سلم مستطيل هو كل ما تحمله المركبة في الواقع وقد سقط الجوادان مجروحين كما قتل سائق المركبة.

قال الزعيم: مهما يكن. فإن وجود سلم في حراسة فرسان أمر بوجب الارتياب. وكانوا ذاهبين به إلى ناحية (باريجيه) ومن المؤكد أنهم أرادوا أن يصعدوا إلى الحصن (لاتورج) بوساطته.

هتف الفلاحون: لنحرق السلم !

وسرعان ما أضرموا النار في السلم أما المركبة حاملة المقصلة فكانت في هذا الوقت تجتاز طريقا آخر في القرية التي صادفتها فيها ميشيل فليشار عند مطلع الفجر.

الفصل الخامس

حينما تخلت ميشيل فليشار للأطفال عن رغيفها راحت تهيم على وجهها في الغابة في غير وجهة معينة، سارت طول النهار دون أن تصادف في طريقها قرية أخرى أو بيتا واحدا. فاستولى عليها تعب قاتل وإعياء مضمن وأحست بأنها لا تكاد تقوى على رفع قدميها والتقدم خطوة أخرى وخيل إليها أنها توشك أن تسقط صريعة. كانت الشمس تنحدر إلى المغيب وخيم الظلام على الغابة. ولم تعد تهتدي إلى طريق تسلكه، تطلعت حولها يائسة فرأت فرجة بين الأغصان ولما تحاملت على نفسها واتجهت إلى ناحية الفتحة ألفت نفسها عند نهاية الغابة رأت أمامها واديا ضيقا يجري فيه جدول صغير.. ولما أحست بالظمأ يلهب حلقها هبطت إلى الجدول وركعت بقربه وشربت منه حتى إذا ارتوت رفعت رأسها إلى السماء وأخذت تصلي.

أحست بقواها تتجدد.. وخيل إليها أنها واجدة في هذا الصوت من تكلمه.. فاستجمعت قواها المكدودة، وأخذت ترتقي الهضبة متجهة إلى ناحية الصوت.وفجأة لمحت حصنا شاهقا يبرز عند نهاية الأفق.. وقد ضرجته أشعة الشمس الغاربة بلون أرجواني.. أما خلف الحصن فقد امتدت أرض تتناثر فيها الخضرة.. هي غابة فوجير.ولم تملك ميشيل فليشار إلا أن تسير إلى ناحية الحصن الذي خيل إليها أن الصوت الذي سمعته وأنست فيه الجواب عن سؤالها قد صدر منه.

الفصل السادس

تحقق أمل سيموردان ووقع لانتناك في قبضة يده واعتزم سيموردان أن يطيح برأس الماركيز ويفصلها عن جسده في نفس المكان الذي نشأ فيه وشهد مجده وسطوته، ولهذا السبب أرسل إلى (فوجير) في طلب المقصلة التي شاهدناها في طريقها إلى الحصن. إن القضاء على لانتناك هو القضاء على ثورة (فنديه).. وفي إخماد هذه الثورة إنقاذ فرنسا، ولذلك لم يتردد سيموردان، وأحس براحة في ضميره.. كان يغريه بالقسوة والصرامة إحساسه بالواجب، على أن هناك شيئا واحدا كان يكدر سيموردان ويقلقه.. فقد توقع أن يكون الصراع رهيبا.. سوف يساهم فيه جوفان الباسل بأوفر نصيب.. وقد لا يبعد أن يلقي في هذا السبيل حتفه.. وهو المخلوق الوحيد الذي يحبه سيموردان في هذه الدنيا وينزله من قلبه منزلة الابن..ارتعد سيموردان إزاء هذا الخاطر..كانت الأقدار قد وضعته في موقف غريب بين سليلي أسرة جوفان.. فهو يتمنى لأحدهما الموت.. ويريد للثاني الحياة !

كان المدفع الذي أيقظ جورجيت في مهدها، واستدرج الأم إلى ناحية الحصن قد أريد به الإنذار باقتراب الهجوم، على أنه تجاوز هذه الغاية، سواء عفوا أو عمدا، وأصاب الحاجز الحديدي الذي يحمي نافذة الحصن في الطابق الأول، وحطمه، وبقيت أجزاؤه مدلاة، لكن المحاصرين لم يجدوا وقتا لإصلاحه، كانوا معتزين بموقفهم لكنه كان موقفا عصيبا فذخيرتهم محدودة ولم يتوافر لهم من الرصاص ما يستطيعون به أن يديروا دفة المعركة زمنا طويلا.. وانحصر أملهم الوحيد في الاشتباك مع أعدائهم بالسيوف والخناجر.

كان داخل الحصن يبدو قويا منيعا. ففي الطابق الأرضي أمام الفتحة التي

أحدثها المهاجمون أقيمت الاستحكامات التي تقدم ذكرها. وخلف هذه الاستحكامات طاولة مستطيلة وضعت فوقها البنادق المحشوة والسيوف والخناجر والفئوس وأغلق الماركيز الباب المؤدي إلى سرداب الحصن لعدم الحاجة إليه. الطابق الأول يقوم فوق الأرضي ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق سلم ضيق لولبي.

ووضعت في هذه القاعة التي يتكون منها الطابق طاولة ثانية عليها أسلحة أخرى على تمام الاستعداد. وكانت تضيئها نافذة كبيرة هي التي حطم المدفع حاجزها الحديدي. والسلم اللولبي يمتد من هذه القاعدة ويؤدي إلى القاعدة المستديرة في الطابق الثاني، حيث يوجد الباب الحديدي الموصل إلى البرج. وكانت هذه القاعة تسمى قاعة الباب الحديدي أو قاعة المرايا، بسبب المرايا الصغيرة المنتشرة فوق جدرانها.

ولما كان الدفاع عن باقي طبقات الحصن العليا غير ميسور بعد قاعة المرايا، فقد كان الواجب منع المهاجمين من بلوغ هذه القاعة بأي ثمن..وكانت هناك نافذة تضئ قاعة المرايا. غير أنه وضح بها مشعل في قائم حديدي. وقد أوقده إيمانوس ووضع طرف الشريط الكبريتي بجانبه كما وضع في الطابق الأرضي فوق لوحة خشبية مرفوعة على قوائم، طعاما وشرابا لمن يجوع أو يعطش أثناء الملحمة.

ولم يبق أمامهم سوى نصف ساعة يدور القتال بعده ووقف إيمانوس فوق قمة الحصن يرقب زحف المحاصرين وأمر لانتناك رجاله ألا يطلقوا النار عليهم حالما يهجمون وقال لهم:

– هم أربعة آلاف وخمسمائة ومن العبث أن نحاول قتلهم في الخارج. أما إذا شرعوا في الدخول، فنحن وإياهم متساوون في القوة.

ثم ضحك وأردف: مساواة.. واخاء !

واتفقوا أن ينذرهم إيمانوس من فوق قمة الحصن عند زحف المحاصرين بالنفخ في بوقه.ووقف المدافعون خلف الاستحكامات وفوق درجات السلم، حاملين بنادقهم في يد ومسابحهم في اليد الأخرى..

كان الموقف يلخص في هذه الكلمات:

أمام المهاجمين فتحة يرتقونها، واستحكامات يجتازونها وثلاث قاعات قائمة بعضها فوق بعض يقتحمونها. وسلم لولبي يرتقون درجاته واحدة واحدة تحت وابل من الرصاص أما المحاصرون فلم يكن أمامهم غير الموت.

الفصل السابع

نظم جوفان من ناحيته وسائل الهجوم فأعطى تعليماته الأخيرة إلى سيموردان الذي قرر أن يتولى حراسة الهضبة وإلى جيشام الذي يبقى مع أغلب الجيش في معسكر الغابة. كما تقرر ألا تطلق المدافع من ناحية الغابة أو من ناحية الهضبة إلا إذا بدأ المحصورون بالهجوم أو حاولوا الإفلات. واستبقى جوفان لنفسه فرقة الهجوم التي اعتزم أن يقتحم الحصن على رأسها وهذا ما كان يزعج سيموردان ويثير قلقه.

أدرك جوفان أن من العبث محاولة اقتحام الحصن بالمدافع ولم يكن أمامه إلا أن يزحف عليه برجاله ويلتحموا مع المحصورين وجها لوجه بالسيوف والخناجر والأيدي والأسنان، ويزحزحوهم خطوة خطوة. وشبرا شبرا. صحيح إن هذا قتال مروع. واشتباك مخيف، لكنه الطريق الوحيد.

أخذ جوفان يقدح زناد الفكر.. وكان مساعده جيشام واقفا على مقربة منه يفحص الأفق في اتجاه قرية (باريجيه) بواسطة منظاره المكبر.. وفجأة هتف جيشام:

– آه.. إن السلم أوشك أن يصل أخيرا.

– كيف ذلك؟ ألم يكن وصل من قبل؟

– لا.. وهذا ما كان يقلقني.. فإن الرسول الخاص الذي أوفدته إلى (جافنيه) عاد وأبلغني أنه وجد في مصنع النجارة في تلك البلدة سلما طويلا.. فأخذه ووضعه على مركبة وعهد بحراسته إلى اثنى عشر جنديا من الفرسان، ثم شاهد الموكب جميعه يسير قاصدا إلى (باريجيه) وعاد مسرعا لإبلاغي هذه النتيجة.. وقد قرر لي أنه لابد من وصول المركبة والحرس قبل غروب الشمس حيث أن الجياد قوية والرحيل تم في

الساعة الثانية صباحا..

– إني أعرف كل هذا.. وبعد؟

– لكن الشمس غربت ولم يكن السلم وصل بعد.

– مهما يكن فلابد من البدء في الهجوم.. حان وقته وإذا أبطأنا حسب المحصورون أننا نتردد..

– يمكن البدء بالهجوم أيها القائد.

– لكننا لم نحصل عليه بعد..

– بل هو في أيدينا في الواقع..

– كيف ذلك؟

– إني كنت أفحص الطريق من (باريجيه) إلى (لاتورج) بمنظاري فرأيت المركبة والحراس قادمين من بعيد.. وهم الآن يهبطون التل.. انظر يا سيدي

تناول جوفان المنظار وتطلع من خلاله. ثم قال:

– نعم.. هم قادمون.. ليس الضوء كافيا.. لكني أرى الفرسان.. وهم الذين يحرسون المركبة بلا ريب.. على أنه يخيل إلي يا جيشام أن عدد الحراس أكثر مما ذكرت.

– إن السلم سيكون هنا في ظرف ربع ساعة أيها القائد.

– يمكننا إذن أن نبدأ في الهجوم.

كانت مركبة قادمة إلى ناحيتهم في الواقع.. لكنها لم تكن المركبة التي يظنونها..وعلى حين كان جوفان يلتفت حوله رأى الجاويش رادوب واقفا خلفه خافض البصر، فقال جوفان:

– ماذا تريد يا رادوب؟

– أيها المواطن القائد.. إن للفرقة الحمراء التماسا تريد أن تتقدم به

– ما هو؟

– نريد أن نموت..

فقال جوفان: سيكون هذا مرهونا بالظروف

– اصغ إلي يا سيدي القائد.. أنت تحافظ علينا منذ موقعة (دول) ولا يزال عددنا اثنى عشر كما كان..

– إني أبقيكم في صفوف الاحتياطي.

– بل نفضل أن نكون في الطليعة.

– لكن أبقيكم للإستعانة بكم عند توجيه الضربة القاضية في ختام المعركة..

– سنسير في المؤخرة.. لكن لباريس الحق في أن تسير في الطليعة.

– سأفكر في هذا يا رادوب..

– فكر اليوم أيها القائد.. هذه فرصة سانحة.. سيدور القتال رائعا عنيفا.. إن (لاتورج) ستكوى بنارها من يدنون منها.. نريد أن يكون لنا في هذا الشأن سهم وافر..

توقف الجاويش عن الكلام وراح يفتل شاربه ثم استطرد في صوت مختلف: ثم هناك مسألة أخرى يا سيدي القائد فإن أطفالنا موجودون في الحصن أي أبناء الفرقة الحمراء الثلاثة وقد توعدنا أيمانوس المتوحش بإيذائهم.. ولا يمكن أن نصبر على أي مكروه يحل بهم حتى لو زلزلت الدنيا وخرب العالم.. ومنذ قليل انتهز فرصة الهدنة وارتقيت الهضبة وألقيت نظرة عليهم من النافذة.. هم هناك ويمكنك

رؤيتهم من فوق سفح الأخدود.. وقد رأيتهم بعيني رأسي وخافوا مني..أقسم لك يا سيدي القائد أنه إذا سقطت شعرة واحدة من رءوسهم فسيكون ثأرنا هائلا مخيفا.. وجميع أفراد الفرقة يرددون هذا القول معي.. أما أن ينقذ الأطفال أو نموت..

ثم حيا رادوب تحية عسكرية، فمد جوفان يده وقال له:

– أنت رجل باسل.. سيكون لكم نصيب في فرقة الهجوم.. سأجعلكم قسمين.. ستة رجال في الطليعة للتأكيد من التقدم، وستة في المؤخرة لضمان عدم التقهقر

– هل أقود زملائي الاثنى عشر كالمعتاد؟

– بلا ريب..

– شكرا لك يا سيدي القائد، لأني سأكون من جنود المقدمة.

حيا رادوب قائده مرة ثانية تحية عسكرية، وذهب إلى رجال فرقته أما جوفان فقد نظر إلى ساعته وهمس بضع كلمات في أذن جيشام وعلى أثر ذلك أخذت فرقة الهجوم في الانتظام..

الفصل الثامن

لم يكن سيموردان قد ذهب بعد إلى مقره فوق الهضبة.. فقصد إلى أحد جنود الطبول وقال له: اتصل بالحصن.. رن الطبل.. فأجابه البوق من أعلى..ولما سمع جوفان ذلك قال لجيشام:

– ما معنى هذا؟ وماذا يريد سيموردان؟

تقدم سيموردان إلى ناحية الحصن حاملا بيده منديلا أبيض.. وصاح في صوت مرتفع:

– يا من في الحصن هل تعرفوني؟

فأجاب أيمانوس من أعلا:

– نعم .

– أنا رسول الجمهورية .

– أنت الواعظ السابق في قرية (باريجيه)

– أنا مندوب لجنة الأمن العام..

– أنت قس..

– أنا سيموردان..

– أنت الشيطان.

– هل تعرفوني ؟

– نحن نمقتك.

– هل يرضيكم أن أقع في أيديكم.؟

– نحن هنا ثمانية عشر رجلا.. ونحن ننزل عن رءوسنا مختارين لأخذ رأسك.

– إني جئت لتسليم نفسي اليكم..

دوت ضحكة وحشية من أعلى الحصن، وتلتها صرخة تمثلت في كلمة: تعال ! كتم المعسكر أنفاسه، واستطرد سيموردان: بشرط واحد.

– ما هو ؟

– إني جئتكم حاملا راية السلام فأنتم أخواني، أليس لنا جميعا أم واحدة هي فرنسا وطننا.. اصغوا إلي إن ما يحدث الآن إنما يجري بإرادة الله، وإن الثورة كانت أمرا مقدورا وحتى يحين الوقت الذي تفهمون فيه هذه الحقيقة. وحتى يتلاشى التعصب وفساد الرأي من رءوسكم ورءوس غيركم حتى يحين هذا كله ويتحقق.. هذه لحظة رهيبة أني أعرض عليكم عرضا أخيرا إن الذي يكلمكم هو مواطن، وهو قس معا.. إن المواطن يتحداكم.. لكن القس يبتهل إليكم أن أصغوا إلي أن بينكم كثيرين لهم زوجات وأبناء إني أدافع عن زوجاتكم وأبنائكم أدافع عنهم ضدكم يا أخواني.

فقال أيمانوس ساخرا: استمر.. اخطب !

– يا إخواني.. لا تدعوا بوق الحرب يدوي دويه المروع. ستذبح رقاب وتراق دماء. إن كثيرين منا سيلقون حتفهم.. وأنتم.. أنتم هالكون.. ارحموا أنفسكم. لم تريقون كل هذه الدماء في غير نفع ولا طائل.؟ لم تقضون على كل هذا العدد الكبير مادام يكفي أن تقضوا فقط على اثنين ؟

فقال أيمانوس: اثنين..؟

– نعم.. اثنين

– من هما ؟

– لانتناك وأنا.

ثم استطرد سيموردان بصوت أكثر ارتفاعا:

– إن اثنين بآلاف. لانتناك لنا. وأنا لكم. هذا هو اقتراحي الذي أعرضه عليكم. وبه تنقذون حياتكم جميعا. أعطونا لانتناك وخذوني. وسيعدم لانتناك بالمقصلة. وتفعلون بي ما تشاءون.

فصرخ أيمانوس: أيها القسيس.. لو وضعنا أيدينا عليك لشويناك على نار بطيئة.

فقال سيموردان: موافق أيها المحكوم عليكم بالفناء ! يمكنكم جميعا في ظرف ساعة أن تعيشوا وأن تتحرروا.. إني أهبكم الحرية والسلامة. فهل تقبلون؟

انفجر أيمانوس صائحا: أنت شقي.أنت مجنون. هل تريد أن نعطيك سيدنا ومولانا؟ ماذا تريد منه؟

– إني أريد رأسه. وأقدم إليكم..

– جلدك. كم نود أن نسلخك كالكلب أيها القس سيموردان لا. إن جلدك لا يساوي رأسه. اذهب عنا.

– ستكون مجزرة بشعة رهيبة. فكروا في الأمر لآخر مرة كان الليل قد أرخى سدوله أثناء هذا الحوار الغريب الذي كان يسمع في خارج الحصن وفي داخله. ولم يخاطب أيمانوس سيموردان بعد بل صاح بأعلا صوته:

– أيها المهاجمون ! إننا عرضنا عليكم شروطنا. فاقبلوها. وإلا فالويل لنا جميعا. هل تقبلون؟ سنسلمكم الأطفال الثلاثة. وتمنحوننا جميعا الحرية والحياة.

فأجاب سيموردان: لكم جميعا. ما عدا لانتناك لا نفاوضكم إلا تحت هذا الشرط.

– إذن ابدأوا هجومكم.

ساد السكون. ونفخ أيمانوس في البوق. ثم هبط إلى أسفل الحصن أشهر الماركيز لانتناك سيفه وركع المحصورون التسعة عشر فوق أرض الطابق السفلي خلف الاستحكامات ووصل إلى سمعهم صوت المهاجمين وهم ينقدمون إلى الحصن في سكون رهيب.زاد الصوت وضوحا. ثم سمعوه عن كثب منهم، عند فوهة الفتحة وفي اللحظة التالية سدد الجميع بنادقهم من خلال الاستحكامات ونهض واحد منهم هو فرانكير القس رافعا سيفه في يمينه وصليبا في يساره، وقال في صوت رهيب: باسم الأب، والابن والروح القدس..

وأطلق الجميع بنادقهم مرة واحدة. وبدأت المعركة.

الفصل التاسع

دار القتال رائعا رهيبا ولم يكن يشبه في عنفه ووحشيته سوى معارك القرون الوسطى. حينما كان المتقاتلون يلتحمون وجها لوجه، فتتمزق أجسامهم وتجري دماؤهم أنهارا، كان سمك الجدار أربعة أمتار. وكان على المهاجمين لكي يصلوا إلى دخل القاعة الأرضية أن يشقوا طريقهم في فتحة مظلمة طولها أربعة أمتار ذات التواءات وتعاريج، تبرز صخورها كأنياب الحيتان، وتتكدس فوق أرضها بقايا الأتربة والأحجار.

كان القتال في هذا المحيط كالقتال في داخل القبر وما كادت طلائع المهاجمين. تصل إلى نهاية الفتحة حتى دوى صوت يصم الآذان كأنه قصف المدافع. وأطلقت النار من الجانبين في وقت واحد.

وصرخ جوفان في رجاله: اهجموا عليهم، فأجابه لانتناك صائحا: اصمدوا أمام العدو !

ثم قرعت السيوف وتطاير الرصاص. وسقط الرجال صرعى يمينا ويسارا. وانعقد الدخان في جو القاعة، فكساها حجابا مظلما تعمى فيه العيون، وتختنق الأنفاس. ووطئ المتقاتلون بأقدامهم جثث الجرحى ومن يلفظون النفس الأخير. فانبعثت أنات الألم من الصدور واشتد الكرب، أما في الخارج فكان السكون سائدا. ولم تتجاوز أصوات هذه الملحمة المروعة جدران الحصن السميكة. فكان جهنم في الداخل. والقبر في الخارج. ونام الأطفال الصغار في مراقدهم هادئين.

أشتدت المعركة. وصمد المدافعون خلف الاستحكامات. وفقد المهاجمون عددا من رجالهم. إذ كانوا يتقدمون صفا واحدا من الفتحة.

وقف جوفان إبان هذه المعركة غير هياب ولا وجل، وكان الرصاص يتطاير حوله من كل مكان.

وفيما هو يدير رأسه لإعطاء بعض الأوامر، لمح وجها بجانبه فهتف:سيموردان.. ماذا تفعل هنا؟.

– جئت حتى أكون قريبا منك.

– لكنك ستقتل !

– ما دمت أنت هنا. فلابد من وجودي هنا كذلك.

– كلا يا أستاذي.

– بل نعم يا ولدي.

وبقي سيموردان إلى جانب جوفان لا يفارقه.

سقط الرجال جماعات فوق أرض القاعة. ومع أن الاستحكامات لم تقع بعد في أيد المهاجمين إلا أن الغلبة دائما في جانب الكثرة وكان يقتل واحد من المحصورين إلى جانب عشرة من المحاصرين لكن الامدادات لم تنقطع عن هؤلاء. بينما كان عدد المدافعين يقل ويتضاءل.

وقف المدافعون التسعة عشر جميعا خلف الاستحكامات وسقط بينهم قتلى وجرحى وبقي منهم خمسة عشر قادرين على القتال والدفاع. وكان بينهم رجل يسمى شانتيفيه أصيب بجراح خطيرة، وفقد إحدى عينيه وتحطم فكه. على أنه كان يستطيع أن يتحامل على قدميه. فأخذ يجر نفسه جرا في السلم اللولبي حتى وصل إلى الطابق الأول، حيث كان يأمل أن يرتل صلاته الأخيرة وأن يلفظ النفس الأخير. واستند بظهره إلى الجدار قرب النافذة، وراح يستنشق الهواء.

ازدادت المجزرة وحشية وفظاعة. ورفع سيموردان صوته فوق صوت الرصاص وصاح:

_ أيها المحصورون !. لم تتركون دماءكم تجري أنهارا.. أنتم مهزومون ! سلموا أنفسكم ! فكروا في الموقف ! نحن أربعة آلاف وخمسمائة. وأنتم تسعة عشر ! أي أكثر من مائتين في مقابل واحد ! سلموا !

فرد عليه الماركيز لانتناك قائلا: لنضع حدا لهذا النفاق !

وأطلقت عشرون رصاصة مرة واحدة جوابا على سيموردان.

لم تكن جدران الاستحكامات ترتفع إلى السقف. وفي هذا فرصة للتسلق. ولذلك صاح جوفان: اهجموا على الاستحكامات. هل منكم يتطوع للتسلق فوقها؟ فأجاب الجاويش رادوب: أنا.

الفصل العاشر

كان رادوب قد دخل من الفتحة في الطليعة وسقط أربعة من زملائه الباريسيين الذين كانوا ستة في المقدمة. وما كاد يجيب بتلك الكلمة السابقة عن سؤال جوفان، حتى استولت الدهشة على نفوس زملائه، فقد شاهدوه ينحني ويمر من بين أقدامهم حتى وصل إلى الفتحة، ولم يصدقوا أن مثل هذا الرجل يهرب ولما وصل رادوب إلى الخارج راح يفحص جدار الحصن بنظره، ثم هز رأسه راضيا كأنه يقول: لم أكن مخطئا.

كان رادوب قد لاحظ أن نسف الفتحة في أسفل الحصن قد أحدث صدعا في الجدار امتد من الأرض إلى نافذة الطابق الأول حيث تحطم حاجزها الحديدي البارز بفعل المدفع الذي أطلق انذارا للمحصورين. وبرزت أحجار الجدار كانها درجات سلم معدة للتسلق.

تخلى رادوب عن بندقيته وخلع سترته. ثم دس طبنجتيه في حزامه وأمسك سيفه بين أسنانه. وراح يتسلق أحجار الجدار البارزة بيديه وقدميه العاريتين كأنه قرد، بينما كان الجنود الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى الفتحة ينظرون إليه في دهشة وذهول. كان الصعود شاقا. لكن رادوب لم يحفل بشئ. وقال لنفسه:

– من حسن الحظ أنه لا يوجد أحد في الطابق الأول. وإلا لما تركوني أصعد هكذا.

على أن الصدع في الجدار كان يضيق كلما استمر في الصعود. وكانت قاعدتا الطبنجتين المعلقتين حول وسطه تضايقانه. حتى كان يوشك أن يسقط في الهاوية التي تحت قدميه. وصل أخيرا إلى النافذة. وأمسك بإحدى يديه قضيبا من قضبانها

المعلقة، وباليد الأخرى قضيبا ثانيا، وارتكز بركبتيه فوق حافة النافذة، وأصبح في هذا الوضع معلقا فوق الهاوية.لم يكن أمامه إلا أن يثب وثبة واحدة، فيصبح داخل القاعة.

لكن وجها برز فجأة من داخل النافذة ورأى رادوب فيه عينا مثقوبة وفكا مهشما. كانت سحنة دامية وقف صاحب هذه السحنة يراقبه وسرعان ما مد يديه نحو رادوب وجذب الطبنجتين بإحداها والسيف باليد الثانية أصبح رادوب أعزل من السلاح. وانزلقت إحدى ركبتيه فوق حافة النافذة. وأحس بأنه كاد يهوي من ارتفاع يبلغ عشرة أمتار.

كان صاحب السحنة المروعة هو شانتيفيه. وقد تسلل إلى تجويف النافذة وأخذ يستنشق الهواء. فتجددت قواه إلى حد ما. وفجأة رأى رادوب يظهر أمامه خارج النافذة فتقدم إلى ناحيته وجرده من سلاحه بهدوء عجيب. ولم يكن أمام رادوب إلا أن يترك سلاحه يؤخذ منه أو يهوي إلى الأرض ثم بدأ صراع رهيب بين الجريح والأعزل. وكانت طلقة واحدة يصوبها شانتيفيه كافية لإلقاء رادوب صريعا على أنه لحسن حظ رادوب كان شانتيفيه قد انتزع الطبنجتين بيد واحدة، والسيف باليد الثانية. ولذلك لم يكن بوسعه أن يطلق إحداهما، واضطر لاستخدام السيف. فصوب إلى رادوب طعنة إصابته في كتفه، لكنها أنقذت حياته.

لكن الجرح كان يسيرا. كما كان رادوب متمالكا قواه. وسرعان ما قذف بنفسه إلى الأمام ووثب إلى داخل القاعة، ووقف وجها بوجه أمام غريمه الذي ألقى السيف على الأرض، وأمسك بالطبنجتين في يديه، صوب شانتيفيه الطبنجة، لكن ساعده ارتجف، ولم تنطلق.. فانتهز رادوب هذه الفرصة وضحك قائلا:

– هل تحسب أيها المشوه أنك تخيفني بوجهك القبيح؟ أطلق النار يا مسكين.

سدد شانتيفيه الطبنجة وأطلق رصاصة فمرت قرب رأس راوب ومزقت جزءا من أذنه.. ثم رفع غريمه الطبنجة الثانية في يده.. لكن رادوب لم يمهله، وقال له:

– إذن واحدة تكفي. أنت جرحتني مرتين وجاء دوري الآن

هجم رادوب على شانتيفيه ولطم ذراعه بعنف حتى سقطت الطبنجة على الأرض واستقرت الرصاصة في السقف.. ثم أمسك بفك غريمه المهشم ولواه بين يديه بشدة، فعوى شانتيفيه ألما وسقط فوق الأرض مغمى عليه.. فخطا رادوب من فوقه وتركه ملقى في فراغ النافذة.. وأسرع إلى وسط الغرفة ووقف رادوب يحك رأسه، وناجى نفسه قائلا:

– ما العمل؟ إني أصبحت أعزل من السلاح.. كان معي طبنجتان، فأفرغهما ذلك الحيوان من رصاصتيهما.. والدخان هنا يعمى العيون.

كان صوت القتال المستمر في الطابق الأرضي يدوي في سمعه مروعا هائلا.. ولما ارتطمت قدماه بسيفه فوق الأرض انحنى وتناوله بيده ثم تقدم في الغرفة محاولا أن يهتدي إلى طريقه في الظلام وفجأة لمح خلف العمود طاولة مستطيلة رأى أجساما تلمع.. فدنا منها وجعل يتحسسها بيده.. فوجد فيها كمية من البنادق القصيرة والطبنجات مصفوفة بنظام كأنما أعدها المحصورون لاستخدامها عند الطوارئ.

هتف رادوب فرحا.. وأدرك أنه بهذا السلاح أصبح قوة هائلة ورأى أمامه باب القاعة مفتوحا مطلا على السلم المؤدي إلى أعلا وإلى أسفل.. وسرعان ما تناول بندقية قصيرة متعددة الطلقات وسدد فتحتها إلى ناحية السلم، وأطلق رصاصاتها الخمس عشرة، وهو يصيح بملء فيه: تحيا باريس، ثم تناول بندقية مماثلة، وصوبها إلى السلم وانتظر.

أذهل هذا الهجوم الخلفي المفاجئ المدافعين، وأحدث الإضطراب الشديد

بينهم.. وأصابت رصاص رادوب اثنين، فقتل أحد الأخوين بيكوا، ولوزار وهتف الماركيز: هم في الطابق الأول !

وما كاد الماركيز يتم جملته حتى ارتد المدافعون إلى الخلف وابتعدوا عن الاستحكامات بسرعة واندفعوا بجنون إلى السلم.. وصاح الماركيز يستحثهم:

– أسرعوا الشجاعة الآن في الهرب لنسرع جميعا إلى الطابق الثاني سنصمد هناك ونبدأ القتال من جديد..

وانسحب الماركيز آخرهم.. والواقع أن هذه البسالة أنقذت حياته فإن رادوب ما كاد يلمح أول الصاعدين حتى أطلق الرصاص، فسقطوا صرعى.. ولو كان الماركيز في الطليعة لهلك معهم..وقبل أن يجد رادوب وقتا لحمل سلاح ثان كان الباقون قد جاوزوا الطابق الأول وفي آخرهم الماركيز دائما.. ولم يقفوا عند هذا الطابق لاعتقادهم بأنه حافل بالرجال، وأسرعوا إلى الطابق الثاني حيث يوجد قاعة المرايا، والباب الحديدي..

ذهل جوفان بدوره من هذه المفاجأة، ولم يفهم كيف وصلت هذه النجدة إلى الطابق الأول.. على أنه لم يضع وقته بل تسلق الاستحكامات على رأس رجاله وطاردوا المنسحبين إلى الطابق الأول حيث وجدوا رادوب.

حيا رادوب قائده قائلا: لحظة واحدة أيها القائد.. أنا الذي فعلت هذا.. إني تذكرت ما حدث في (دول) وحذوت حذوك.. وحصرت العدو بين نارين.

فقال جوفان باسما: أنت تلميذ نجيب لكنك مجروح أيها الزميل !

– لا بأس أيها القائد. إن الأذن مجرد حلية. ولايهم نقصت أو زادت، إني مصاب بضربة سيف كذلك. لكنها لا شئ، وهذه الدماء يسيرة..

وقف المحاصرون في الطابق الأول الذي استولى عليه رادوب ببسالة وجئ

بمصباح.. وانضم سيموردان إلى جوفان وأخذ الاثنان يتشاوران، ولم يكن المهاجمون يعرفون مدى قوة أعدائهم. وخشوا أن يكونوا أعدوا لهم كمينا في السلم. كما أنهم فقدوا عددا كبيرا من رجالهم. وكانوا واثقين من التغلب على من بقي من المحصورين في النهاية.

ولهذه الأسباب مجتمعة، فضلوا أن يتشاوروا في الموقف، وألا يعرضوا الرجال للموت إلا عند الضرورة القصوى. وأخذوا يرسمون خطة الهجوم.

وقف المهاجمون الذين استولوا على الطابقين الأرضي والأول ينتظرون نتيجة المشاورة بين جوفان وسيموردان. وأخيرا قال رادوب وبعد أن حيا تحية عسكرية: سيدي القائد.

– ماذا تريد يا رادوب؟

– هل لي الحق في أن التمس مكافأة يسيرة؟

– نعم سل ما تشاء.

– إني ألتمس أن أكون أول الصاعدين.

الفصل الحادي عشر

بينما كانت المشاورة تدور في الطابق الأول، أخذ المدافعون يحصنون الطابق الثاني.كان المشعل الذي أوقده ايمانوس يضئ القاعة.. ورأى المدافعون أن من العبث أن يغلقوا الباب. وآثروا أن يقيموا عقبة في وجه المهاجمين تعوقهم عن الوصول إليهم.كان بالغرفة صندوق ضخم ثقيل من خشب البلوط يستخدم في حفظ الملابس.. وسرعان ما عمدوا إلى هذا الصندوق ونصبوه على جانبه في مدخل الباب، فطابقه، ولم يترك ألا فتحة في أعلاه لو حاول أحد من المهاجمين أن ينفذ منها كان نصيبه موتا محققا.

وقفوا يحصون خسائرهم.. لم يبق منهم إلا تسعة في جملتهم الماركيز وايمانوس.. على أن خمسة من الباقين كانوا مثخنين بالجراح.. وهم شاتيناي، وجينوازو، وأوسنار، وبراندوم، والقس فرانكير.. أما الباقون فقد لقوا حتفهم.ولما أحصوا الرصاصات الباقية لديهم كان نصيب كل واحد أربع رصاصات..لم يبق أمامهم أمل.. وقفوا على باب الهاوية.. وكان هلاكهم محققا.. ثم سمعوا أصوات البنادق وهي ترتطم بدرجات السلم أثناء صعود المهاجمين.. فأيقنوا أنهم سينقضون عليهم بعد قليل.

لم يكن أمامهم منفذ للفرار.. فأمام غرفة المكتبة نصبت المدافع فوق الهضبة على استعداد لحصدهم.. وليس لهم إذا صعدوا إلى أعلا الحصن إلا أن يقذفوا بأنفسهم من حالق؟

قال الماركيز أخيرا: انتهى كل شئ أيها الأب فرانكير.. قم بواجبك.

ركع الجميع على الأرض، وأمسك كل منهم بمسبحته.. بينا اقترب

المهاجمون..كان القس فرانكير مخضبا بالدم من جرح أصابه في جمجمته. وما لبث أن رفع الصليب في يمينه قائلا: –

ليعترف كل منكم بخطاياه بصوت مسموع. تكلم يا مولاي.

فأجاب الماركيز: إني قتلت.

وقال أواسنار: إني قتلت.

وقال جينوازو: إني قتلت.

وقال براندو: إني قتلت.

وقال شاتيناي: إني قتلت.

وقال ايمانوس: إني قتلت.

فقال القس: إني أغفر لكم خطاياكم باسم الثالوث الأقدس، ولتصعد أرواحكم في سلام.

وأخذت ضربات بنادق المحاصرين ترن فوق الصندوق القائم في مدخل القاعة.

فقال القس: فكروا في الله لم تعودوا من أبناء هذه الدنيا.

فقال الماركيز: أصبت.. نحن في القبر.

أطرق الجميع وراحوا يصلون. ووقف الماركيز والقس وحدهما. وكان القس يصلي وهو مطرق. أما الماركيز فكان يفكر. وتوالت اللطمات فوق الصندوق وفجأة رن صوت سريع قوي صدر من خلفهم، قال صاحبه:

– ألم أقل لك يا مولاي؟

التفت الجميع مشدوهين. فإذا هم يرون مخرجا يفتح في الجدار شاهدوا حجرا في الجدار يدور على محور، وتخلفت عنه فتحة مزدوجة عن جانبيه وجدوا أمامهم

منفذين ضيقين، لكنهما كانا يسمحان بمرور الإنسان من كل منهما. ورأوا خلف هذا الباب الغريب درجات سلم حلزوني كان وجه يطل من هذه الفتحة. عرف فيه الماركيز وجه هالمالو.

الفصل الثاني عشر

قال الماركيز: هذا أنت يا هالمالو؟

– نعم يا مولاي يمكنكم الخروج من هنا إني جئت في الوقت المناسب لكن تعالوا بسرعة. ستكونون في قلب الغابة في خلال عشر دقائق.

قال القس: تبارك الله الرحيم.

هتف الرجال معا: انج بنفسك يا مولانا.

فقال الماركيز: أنتم أولا.

فأجاب القس: لابد من خروجك أولا يا مولاي.. سأخرج آخرا

فاستطرد الماركيز في صرامة: لا نريد خلافا في الإيثار لا وقت لهذا أنتم مجروحون. إني آمركم أن تعيشوا وأن تهربوا.. اسرعوا.. انتهزوا وجود هذا المنفذ.. شكرا يا هالمالو.

فقال القس: هل يجب أن ننفصل يا سيدي الماركيز؟

– نعم. ننفصل تحت بلا ريب. لا يمكن أن نفلت إلا فرادى.

– هل يحدد مولاي مكانا للقاء؟

– نعم. في المكان المعروف في الغابة باسم (بيير جوفان) هل تعرفونه؟

– نعرفه كلنا.

– سأكون هناك غدا ظهرا. ليقابلني في هذا المكان كل من يستطيع السير.

_ سنكون جميعا هناك.

فقال الماركيز: وسنبدأ الحرب من جديد.

حاول هالمالو أن يزيح الحجر المتحرك قليلا لكنه لم يتحرك، ولم يعد بالإمكان إغلاق المنفذ ثانية. فقال: –لابد أن نسرع يا مولاي. لن يتحرك. لقد تيسر لي فتح المنفذ. لكن لا يمكن إقفاله.

كانت مفصلات الحجر قد صدئت لقلة الاستعمال واستحال إدارة الحجر وإعادته إلى مكانه.استطرد هالمالو: – كنت أرجو يا مولاي أن أقفل المنفذ حتى إذا جاء الزرق ولم يجدوا أحد حسبوكم استحلتم إلى دخان. لكن الحجر لا يتحرك. سيرى الأعداء المنفذ مفتوحا، ويتبعوننا. لا تضيعوا ثانية واحدة. اسرعوا أمامكم السلم.

وضع ايمانوس يده على كتف هالمالو وقال له:

–كم يستغرق الوصول من هنا إلى الغابة أيها الزميل؟

فقال هالمالو: هل يوجد بينكم أحد جراحه خطيرة؟

فأجابوا: لا أحد.

– في هذه الحالة يكفي ربع ساعة.

فقال ايمانوس: اذهبوا. إذا أمكن منع الأعداء من الوصول إلى هنا ربع ساعة..

– قد يتبعوننا. لكن لن يدركونا.

فقال الماركيز: لكنهم سيصلون إلى هنا في خمس دقائق.. ولن يعوقهم الصندوق الكبير أكثر من هذه المدة. سيحطمونه بضربات حرابهم.. ربع ساعة. من يستطيع أن يؤخرهم ربع ساعة؟

فأجاب ايمانوس: أنا..

– أنت يا ايمانوس؟

– نعم يا مولاي.. اصغ إلي.. إن خمسة منكم مجروحون.. أما أنا فلم يصبني خدش واحد

فقال الماركيز: ولا أنا.

– أنت القائد يا مولاي.. أما أنا فجندي.. والاثنان يختلفان.

– أعرف أن لكلينا واجبا مختلفا.

– لا يا مولاي.. إن لكلينا واجبا واحدا.. هو إنقاذك

ثم التفت ايمانوس إلى زملائه قائلا:

– أيها الإخوان.. لابد من احتجاز العدو ومنع تقدمه بقدر الإمكان. اصغوا إلي.. أنا متمالك كل قوتي.. ولم أفقد قطرة واحدة من دمي.. وما دمت غير مجروح فبوسعي أن أصمد أكثر من غيري انجوا بأنفسكم جميعا.. اتركوا لي أسلحتكم.. سأستخدمها على خير وجه.. ما عدد الطبنجات المحشوة هنا؟

– أربعة.

– ضعوها على الأرض.

أطاع الجميع أمره، فاستطرد:

– حسنا.. سأبقى هنا. سيجدون من يؤنسهم.. والآن.. أسرعوا.. أخرجوا.

كان الموت معلقا فوق الرقاب.. ولم يبق وقت لتبادل عبارات الشكر..

وقال له الماركيز: سنلتقي قريبا.

– لا يا مولاي.. أرجو أنا نلتقي.. قريبا. فإني أوشك أن أموت

خرج الجميع من المنفذ واحدا بعد الآخر، يتقدمهم الجرحى، وراحوا يهبطون السلم.. وبينما كانوا ينجون بأنفسهم أخرج الماركيز من جيبه قلما وخط به بضع كلمات فوق الحجر الذي بقي جامدا في مكانه

قال هالمالو: هيا يا مولاي. ذهب الجميع إلا أنت

وراح البحار يهبط السلم، فتبعه الماركيز.. وبقي ايمانوس وحده..

الفصل الثالث عشر

كانت الطبنجات الأربع موضوعة فوق الأرض فانحنى ايمانوس وتناول اثنتين بيديه، ودنا من مدخل القاعة الذي كان يحجبه الصندوق الضخم. تردد المهاجمون ولم يحاولوا إزاحة الصندوق مرة واحدة فقد خشوا كمينا.. ولكنهم حطموا قاعه بقواعد بنادقهم وأحدثوا في أعلاه ثقوبا بحرابهم.. وحاولوا أن ينظروا من خلال هذه الثقوب إلى داخل القاعة قبل الدخول.. وكان ضوء المصابيح التي أناروا بها السلم يبدو من خلال الثقوب. لمح ايمانوس عينا تتطلع إليه من خلال أحد الثقوب. فسدد الطبنجة بسرعة إلى الثقب وضغط على الزناد.. وكم كان فرحه حينما سمع صرخة مروعة.. فقد نفذت الرصاصة من عين الجندي واخترقت مخه.. وهوى إلى الخلف فوق السلم.

كان المهاجمون قد أحدثوا فتحتين كبيرتين في الصندوق.. فدفع ايمانوس الطبنجة في إحداهما وأطلق النار عفوا على المحاصرين.سمع ايمانوس صرخات متعددة.. فعلم أن الرصاصة أصابت أكثر من واحد... وتقهقر الرجال في السلم. ألقى ايمانوس الطبنجتين الفارغتين، وتناول المحشوتين.. ونظر من خلال الثقوب فرأى مبلغ ما حدثته طلقاته في المهاجمين. كانوا قد هبطوا السلم.. ولم يستطع أن ينظر سوى أربع درجات لتعرج السلم.. ورأى الجرحى الذين أصابتهم رصاصاته يتلوون على الأرض ألما.. فأخذ ينتظر وناجى نفسه بهذه الكلمات: كسبنا وقتا لا بأس به وأخيرا رأى رجلا يرتقي السلم زحفا على بطنه.. وفي نفس الوقت ظهر له رأس رجل آخر من خلف العمود الذي يدور السلم حوله..

صوب ايمانوس إلى الرأس وأطلق النار. فسمع صرخة.. وسقط رأس الجندي..

وأسرع ايمانوس بإلقاء الطبنجة الفارغة وتناول المحشوة بيمناه..وفيما هو يفعل أحس بألم قاتل، وصرخ بدوره صرخة شديدة فقد طعنه سيف في بطنه..كان الجندي الزاحف على بطنه قد وصل إلى الصندوق، ومد يده من خلال الفتحة الكبيرة السفلى، وأغمد سيفا في بطن ايمانوس فنفذ إلى إمعائه وأحدث بها جرحا مروعا..

لم يسقط ايمانوس بل تحامل على نفسه وانسحب وهو يترنح إلى ناحية الباب الحديدي حيث كان المشعل موقدا.. ألقى ايمانوس الطبنجة على الأرض وتناول بيمينه المشعل المعلق بينما كان ممسكا بيسراه أمعاءه لمدلاة، وخفض الملك الصغير الأسير في سجن (التامبل) اشتعلت النار في الشريط على الفور.. وألقى ايمانوس المشعل من يده على الأرض.. وتناول الطبنجة من جديد.. وارتمى على الأرض.. بينما انتشر اللهب على امتداد الشريط، ومر أسفل الباب الحديدي.. ووصل إلى البرج.. ولما اطمأن الرجل إلى نجاح مغامرته ابتسم وهو يتمدد على الأرض استعدادا للموت وغمغم:

– سيذكرون ايمانوس.. إني أثأر في شخص أولئك الأطفال الثلاثة، لذلك الطفل الذي ينتمي إلينا جميعا.. الملك الصغير الأسير في سجن (التامبل).

الفصل الرابع عشر

في هذه اللحظة حدثت ضجة عالية ودفع الصندوق بعنف إلى داخل القاعة، ودخل رجل شاهرا بيده سيفا، وصاح قائلا: هذا أنا.. رادوب ! أروني ما تفعلون.. إني سئمت الانتظار إني جازفت بالدخول.. ومهما يكن فإني مزقت أمعاء أحدكم.. وأنا الآن أهاجمكم جميعا.. ها أنذا جئت إليكم، سواء تبعني الباقون أو لم يتبعوني.. كم أنتم هنا؟

كان الداخل هو رادوب حقا.. وقد جاء وحده.. والواقع أن جوفان خاف على رجاله من كمين مجهول بعد المجزرة التي أحدثها ايمانوس من خلف الصندوق ولذلك تراجع معهم، وراح يتشاور في الموقف مع سيموردان.. وقف رادوب شاهرا سيفه في مدخل القاعة التي كان يسودها الظلام إلا من ضوء يسير منبعث من المشعل الذي كاد ينطفئ. وردد سؤاله: أنا وحدي كم أنتم هنا؟

لم يجبه صوت.. فتقدم إلى الأمام.. وفي هذه اللحظة ارتفع من المشعل ضوء أخير كالذي يحدث عادة قبل الانطفاء، فأضاء القاعة وشد ما دهش رادوب حينما رأى القاعة خالية.. فهتف: لا يوجد أحد !.

ثم وقع نظره على الحجر والمنفذ والسلم.. فصاح قائلا:

– تعالوا كلكم. أيها الزملاء أسرعوا، إنهم هربوا بهذا الحصن العتيق منفذ سري. وهذه هي الفتحة التي أفلتوا منها. إن الشيطان أنقذهم بنفسه.. لا يوجد أحد هنا..

لم يتم رادوب جملته فقد انطلقت رصاصة مست كتفه وأصطدمت بالجدار

فقال:

– إذن يوجد أحد هنا. من هو الذي تفضل وحياني بهذه التحية؟. فأجابه صوت قائلا: أنا..

التفت رادوب حول.. فرأى ايمانوس في الظلام، فهتف:

– لقد وجدت واحدا على كل حال، إن الجميع أفلتوا. لكني أعدك ألا تلحق بهم.

فأجابه ايمانوس: هل هذا رأيك؟

تقدم رادوب خطوة إلى الأمام، ثم وقف، وقال:

– أنت راقد على الأرض.. من أنت؟

– أنا شخص يستهزئ بك.

– ماذا في يدك اليمنى؟

– طبنجة.

– وفي اليسرى؟

– أمعائي.

– أنت أسيري.

– إني أتحداك.

وما كاد ايمانوس يتم هذه الجملة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

وصل جوفان وسيموردان بعد قليل مع باقي الجنود. فرأوا المنفذ وتبعوا السلم المتفرع عنه. فوجدوه متصلا عند نهايته بسرداب يفضي إلى الأخدود. وأيقنوا أن

المحصورين قد أفلتوا من أيديهم، تناول جوفان مصباحا وأخذ يفحص الحجر الذي كان يحجب المنفذ. كان قد سمع عن أمثال هذه الأحجار المتحركة لكنه لم يصدق هذه الخرافة وفيما هو يفحص الحجر رأى هذه العبارة مكتوبة فوقه: " إلى اللقاء يا فيكونت لانتناك ".

كانت متابعة الهاربين عقيمة. فإن أمامهم الغابات والأخاديد يختفون فيها. والسكان يقدمون إليهم جميع المساعدات اللازمة. ولا ريب أنهم ابتعدوا الآن بعدا كافيا. بل إن غابة (فوجير) بمخابئها التي لا تحصى هي خير ستار يحجبهم عن العيان. فما العمل؟. لابد أن يبدأ الصراع من جديد.

وقف جيشام بجوار جوفان وتبادلا حديثا يشف عن القنوط والخيبة وأصغى سيموردان إليهما صامتا وقد علت وجهه دلائل الرزانة والهدوء

قال جوفان: ماذا جرى للسلم يا جيشام؟

– لم يصل أيها القائد.

– لكنا رأينا مركبة يحرسها جنود.

فلم يزد جيشام عن قوله: إنها لم تحمل السلم.

– وماذا حملت إذن؟

فأجاب سيموردان: المقصلة.

الفصل الخامس عشر

تبع الماركيز لانتناك هالمالو. وأفضى بهما السلم الذي هبطا منه في أثر الهاربين السابقين إلى سرداب مجاور للأخدود ولقواعد البرج كان هذا السرداب يؤدي إلى شق طبيعي غائر ينتهي عند الأخدود من ناحية وعند الغابة من ناحية أخرى. وكانت الأشجار الكثيفة تحجب نهاية السرداب حتى ليتعذر على أي إنسان أن يرتاب في اختباء أحد به. وإذا وصل الهارب إلى هذه النقطة لم يبق أمامه إلا أن ينسل دون أن يشعر به أحد. حينما وصل الماركيز مع هالمالو إلى الشق العميق لم يجد أثرا للهاربين الخمسة. فقال هالمالو:

– إنهم أسرعوا بالابتعاد.

فقال الماركيز: اقتد بهم.

– هل يجب أن أترك مولاي؟

– لا ريب. إني أخبرتك بذلك من قبل. أسلم للإنسان أن يهرب وحده. ولو بقينا معا للفتنا الانظار إلينا

– هل يعرف مولاي هذه المنطقة؟

– نعم.

– وهل لا يزال مولاي يحدد مكان الاجتماع عند (بيير جوفان)؟

– غدا عند الظهر سنكون جميعا هناك.

ثم قال هالمالو بانفعال:

– آه يا مولاي ! لا أكاد أملك صوابي كلما فكرت في أننا كنا معا في عرض البحر وحدنا وإني حاولت أن أقتلك، وأنك كنت سيدي، وأنه كان يمكنك أن تخبرني بهذه الحقيقة. ولكنك مع ذلك لم تتكلم !

قال الماركيز: انجلترا.. لم يعد هناك ملجأ غيرها. يجب أن ينزل الانجليز إلى فرنسا في خلال خمسة عشر يوما.

– إلى اللقاء غدا يا مولاي.

– هل أنت جائع؟

– ربما يا مولاي.. إني أسرعت بالمجئ إلى هنا دون أن أدري إذا كنت أكلت اليوم أو لم آكل..

تناول الماركيز قرصا من (الشيكولاتة) من جيبه وشطره شطرين أعطي أحدهما إلى هالمالو، وأخذ يأكل الشطر الثاني.. وقال هالمالو:

– مولاي.. الأخدود عن يمينك.. والغابة عن يسارك..

– حسنا.. اتركني واذهب الآن..

أطاع هالمالو.. وابتعد في الظلام، وسمع الماركيز حفيف الأغصان بضع لحظات.. ثم ساد السكون.. وكان يتعذر على أي إنسان في هذا الوقت أن يتعقب هالمالو أو يعرف الاتجاه الذي سلكه وقف الماركيز جامدا في مكانه.. كان بحكم الحياة التي عاشها والتجارب التي مرت به، جامد العواطف لا يستجيب لأسباب الانفعال والتأثر. غير أنه لم يستطع في هذه اللحظة أن يكتم انفعاله حينما ألفى نفسه يستنشق الهواء النقي بعد أن بقي وقتا طويلا مختنق الأنفاس بين مشاهد الدم وآثار الهلاك.. وبعد أن استرد حريته وعاد إلى الحياة، وقد أيقن منذ لحظات أنه وقف على حافة القبر...كان هذا الإحساس أقرب إلى الفرح والابتهاج منه إلى أي

شئ آخر.. غير أنه تغلب على شعوره وأقصى عنه هذا الانفعال بسرعة، وأخرج ساعته من جيبه ونظر فيها وشد ما دهش حينما ألفاها لم تتجاوز العاشرة.. شأن الإنسان دائما حينما يقضي لحظات عصيبة بين الرجاء والأمل وبين الموت والحياة، حتى إذا انجلت عنه غمرتها لم يجدها أطول من المألوف.

كان مدفع الإنذار قد أطلق قبيل الغروب.. وهاجم الزرق الحصن بعد ذلك بنصف ساعة، بين السابعة والثامنة وقت هبوط الظلام وهكذا بدأ الصراع الهائل في الساعة الثامنة، وانتهى في الساعة العاشرة، ولم تستغرق تلك الملحمة المروعة سوى ساعتين. أعاد الماركيز ساعته إلى جيبه. لكنه لم يضعها في نفس الجيب الذي أخرجها منه. فقد وجد في هذا الجيب مفتاح الباب الحديدي الذي أعطاه ايمانوس إياه. وخشي أن يتحطم زجاج الساعة إذا وضعها بجواره ثم اتجه نحو الغابة بدوره. وفيما هو ينعطف إلى اليسار خيل إليه أنه رأى ضوءا ضعيفا يخترق الظلام، عاد الماركيز أدراجه. وفجأة دنا من بقعة رأى عندها ضوءا عظيما في الأخدود. ولم يكن يفصله عنها سوى بضع خطوات أسرع إلى هذه البقعة. ولما رأى أنه سيعرض نفسه للأنظار في هذا الضوء، وأنه يوشك أن يرتكب حماقة لا مبرر لها، أمسك عن التقدم..لم يكن يعنيه ما يحدث.

ولم يلبث أن سار في الاتجاه الذي أرشده إليه هالمالو، واتجه إلى الغابة وفيما هو محجوب خلف الأغصان. سمع فجأة صرخة مروعة يتردد صداها فوق رأسه. وخيل إليه أن هذه الصرخة صدرت من فوق حافة الهضبة المشرفة على الأخدود، فرفع الماركيز عينيه. ووقف في مكانه جامدا.

القسم الثالث

تحت رحمة النيران

الفصل الأول

كانت ميشيل فليشار تبعد عن الحصن بنحو ثلاثة أميال حينما وقع نظرها عليه. على أن تلك المخلوقة التي لم تكن تقوى على رفع قدميها لم تتردد في اجتياز هذه المسافة.كانت المرأة ضعيفة منهوكة أما الأم فقد استمدت من ضعفها قوة وسارت إلى الأمام.

غربت الشمس. وانتشر الشفق. ثم ساد الظلام. وفيما هي تواصل السير سمعت من بعيد ناقوسا محجوبا في طوايا الظلام يدق مؤذنا بالساعة الثامنة. ثم التاسعة وكانت تقف بين حين وآخر وتصغي إلى أصوات غريبة كأنها صدى ضربات مكتومة. على أنها عزتها إلى هبوب الرياح.

استمرت في السير غير حافلة بالأشواك والنباتات البرية التي كانت تدمي قدميها. وكان يحدوها ضوء يسير ينبعث من الحصن المتباعد، فيحدد هيكله في الظلام. وزاد هذا الضوء وضوحا حينما تعالت الأصوات التي سمعتها، ثم تلاشى كل شئ فجأة.وكانت الهضبة التي سارت ميشيل فليشار فوقها مغطاة بالحشائش والنباتات البرية. ولم يكن بها منزل واحد ولا شجرة نامية. وكانت تتدرج في الارتفاع حتى تتصل بالأفق عند نهايتها. على أن الأم جعلت الحصن نصب عينيها وغايتها المنشودة، وهو ما كان يدفع عنها الانحلال والتهدم.

كانت الأصوات المكتومة والأضواء اليسيرة المنبعثة من الحصن تصدر متقطعة. كانت تعلو ثم تخفت فجأة فتحير قلب الأم المنكودة وتملؤه عذابا وضيقا وفجأة تلاشت الأصوات والأضواء جميعا مرة واحدة وساد سكون مطبق كسكون القبور. وفي هذه اللحظة وصلت ميشيل فليشار إلى نهاية الهضبة.

رأت عند قدميها اخدودا يختفي قاعه في الظلام. وعلى مسافة قليلة منها فوق قمة الهضبة، مشهدا غريبا هو خليط من العجلات والهياكل المعدنية، هو بطارية مدفعية. وأمامها بناء ضخم يشمله الظلام، مكون من قاعدة تقوم كالقنطرة فوق الأخدود، ومن مبنى يشبه البرج. وهذا البناء جميعه قائم في ظل هيكل شاهق مستدير هو الحصن الذي قطعت في سبيل الوصول إليه كل هذه المسافة.

دنت ميشيل فليشار من حافة الهضبة قريبا من البرج حتى خيل إليها أنها تكاد تلمسه، لولا أن فراغ الأخدود كان يفصله عنها. ورأت طبقات البرج الثلاث أمام عينيها وقفت أمام هذا البناء الغريب زمنا لم تدر تحديده. وراحت تسائل نفسها عن كنهه وعما يدور فيه. وعما إذا كان هو (لاتورج) الذي سعت إليه. وأحست بدوار غريب يستولي عليها.

وفجأة انتشرت سحابة من دخان كثيف أمامها، فحجبت عن نظرها هذا البناء الذي كانت تنظر إليه مشتتة الفكر، وسمعت صوتا عنيفا جعلها تغمض عينيها، وما كادت تفعل حتى أحست بضوء باهر يغمر بصرها. ففتحت عينيها..تبدد الليل. وساد النهار. لكنه نهار مروع. نهار نوره نار. رأت أمامها ألسنة من نار تتلظى، صادرة من نافذة مشبكة بالقضبان الحديدية في الطابق الأول بالبرج، وكان فراغ النافذة شعلة مضطرمة كأنها فوهة أتون مستعر.

حدقت ميشيل فليشار أمامها وقد عقد الذهول لسانها. خيل إليها أنها تحت تأثير حلم ثقيل وكابوس مروع. ولم تدري أهي في اليقظة أم في المنام، ولم تعرف إن كان يسوغ لها البقاء أو الابتعاد ثم هبت الريح فجأة وبددت الدخان فرأت ميشيل فليشار في ضوء اللهب كافة طبقات البرج والحصن معا واضحة المعالم محددة الأجزاء. كان الطابق الأسفل من البرج يحترق. أما الطابقان الباقيان، فلم تمسهما النار بعد. لكنهما ارتكزا فوق قاعدة من نار وكان الدخان ينقشع بين وقت وآخر.

فتسنى لميشيل فليشار أن ترى نوافذ الطابق الثاني جميعا مفتوحة، ورأت دواليب الكتب مصفوفة بجلاء فوق الجدران، ولمحت قرب إحدى النوافذ جسما غامضا راقدا في الظلام يشبه مجموعة من الطيور في عشها وكان يخيل إليها أن هذا الجسم يتحرك أحيانا. فركزت عينيها في هذه الناحية. راحت ميشيل فليشار تسائل نفسها عن كنه هذه المجموعة الراقدة في الظلام. وكان يخيل لها أحيانا أنها مكونة من أجسام حية. لكنها كانت في شبه حمى. فهي لم تذق شيئا منذ الصباح. وسارت سيرا شاقا متواصلا. وأضناها الإعياء والإجهاد. وأحست بأنها تكاد تقع فريسة للهذيان، لولا أن مسكة من الصواب كانت تقويها على التشدد والجلد، على أنها مع ذلك لم تستطع أن تحول عينيها عن تلك المجموعة الراقدة قرب نافذة الطابق الثاني في البرج.

وفجأة امتدت ألسنة النيران من النافذة واتصلت بعمود النباتات الجافة المتسلقة الممتدة على طول جدار البرج وسرعان ما اشتعلت النار فيه كأنما غذته قوة جهنمية. وامتدت في طرفة عين إلى الطابق الثاني. وسطع وهج النار فكشف عن الأطفال الثلاثة راقدين فوق الأرض. كانوا مجموعة من الأيدي والسيقان الغضة متشابكة متلاصقة. والوجوه الملائكية الباسمة..عرفت الأم أطفالها.صرخت صرخة مخيفة.. صرخة مفعمة بالألم القاتل لا تصدر إلا عن الأم وحدها. صرخة وحشية مؤثرة معا.

كانت هذه الصرخة هي التي نفذت إلى سمع الماركيز دي لانتناك.. وما كاد يسمعها حتى وقف جامدا. ورأى في مكانه من خلال الأغصان مبنى البرج شعلة من نيران انعكس وهجها الأرجواني فوق طبقات الحصن. ولما رفع رأسه إلى أعلا من خلال فرجة الأغصان فوق رأسه. رأى عند حافة الهضبة فوق جانب الأخدود الثاني، وأمام البرج المشتعل. رأى امرأة منحنية فوق حافة الهاوية. وقد انعكس ضوء

اللهب على وجهها الممتقع المتقلص ألما وفزعا وأدرك أن الصرخة التي سمعها صدرت من تلك المرأة.

كانت المسكينة تعوي كالوحش الجريح. وكانت صرخاتها الأليمة تفطر القلوب وتفتت الجماد. وكانت تنبعث من عينيها الباكيتين سهام كأنها ومض البرق.أصغى الماركيز إلى الكلمات المختلطة المؤثرة التي كانت تصدر منها وتصل إلى سمعه جلية: آه يا ربي.. أولادي.. هؤلاء أولادي.. النجدة.. النار.

النار النار أيها اللصوص القتلة. لا أحد هنا؟ أولادي يحترقون جورجيت آلين رينيه جان. ما معنى هذا؟ النجدة.. النجدة.. !

في هذه اللحظة تعالت الحركات وساد الهرج في الحصن وفوق الهضبة، وخف جنود المعسكر إلى النار التي امتد لهبها، وانهمك جوفان وسيموردان وجيشام في إصدار الأوامر على أنهم لم يستطيعوا أن يعملوا شيئا، ولم يتيسر لهم أن يحملوا من قاع الأخدود سوى بضع دلاء قليلة من الماء، فاشتد الفزع، وامتلأت حافة الهضبة بكتلة متلاصقة من الرجال الذين وقفوا جزعين مضطرين يراقبون امتداد ألسنة اللهيب وهم عاجزون عن إخمادها. كانت النار المشتعلة في عمود النباتات المتسلقة قد وصلت إلى الطابق العلوي في البرج، أي إلى المخزن المملوء بالغش، وسرعان ما اضطرمت فيه وغدا شعلة مروعة، وكانت ألسنتها تتراقص رقصا شيطانيا كأنما كانت روح ايمانوس الخبيثة تنفث فيها من شرها وتؤججها..

لم تصل النار بعد إلى قاعة المكتبة لسمك الجدران وارتفاع سقفها، لكن اللحظة الرهيبة كانت آتية لا ريب فيها، وإن هي إلا لحظات حتى تطبق ألسنة النار من أعلا ومن أسفل على الغرفة، فتحترق، ويشوي الأطفال شيا كان الأطفال الثلاثة مستغرقين في نوم هنئ.. كانوا يظهرون بجلاء في فترات متقطعة في تلك الفجوة النارية التي تضطرم فوقهم وتحتهم يعلوهم الهدوء والسكينة ويشع حولهم نور

ملائكي.كانوا ملائكة راقدين في جهنم، كان القبر يوشك أن يطبق عليهم بلا رحمة، ولو رآهم نمر لبكي.كانت الأم تصرخ كالمجنونة: النار . النار. هل أنتم صم؟. هم يحرقون أولادي تقدموا أيها الرجال الذين أراهم هناك. أواه كم من الأيام سرت إليهم. وهذه هي نهاية السير. النار .. النجدة... ثلاثة ملائكة يحرقون ! ماذا فعلوا وهم أبرياء؟ أعدموني. النجدة.. انقذوا اولادي ألا تسمعونني؟ لو كان كلبا لأشفقتم عليه ما أفظع هذا..أيها القتلة سرقوا مني أطفالي لكي يحرقوهم. الرحمة يا ربي. أنقذ أولادي النجدة .

وفيما كانت الأم تردد كلماتها المؤثرة الأليمة..كانت أصوات أخرى تتردد فوق الهضبة، وفي الأخدود:

–سلم !

– لا يوجد سلم !

– ماء !

– لا يوجد ماء !

– هناك باب.. في الحصن.. في الطابق الثاني.

وفي أثناء ذلك كانت الأم توالي نداءاتها المحزنة: أسرعوا. النار.. أنقذوهم.. أو أقذفوني معهم.

وضع الماركيز يده في جيبه ولمس مفتاح الباب الحديدي.. وأخيرا.. أحنى قامته ودخل إلى السرداب الذي نجا منه منذ قليل.. وعاد أدراجه.

الفصل الثاني

كان الموقف عجيبا، جيش كامل مؤلف من أربعة آلاف رجل يعجز عن إنقاذ ثلاثة أطفال !.

استحال إيجاد سلم. ولم يصل السلم الذي طلب من (جافنيه).وازدادت النار انتشارا. وكانت محاولة إطفائها بالمياه القليلة الباقية في قاع الأخدود كمحاولة إخماد بركان بكوب ماء.

هبط سيموردان وجوفان وجيشام ورادوب إلى قاع الأخدود. ثم صعد جوفان إلى الطابق الثاني في الحصن، حيث يوجد الباب الحجري الصغير والمنفذ السري والباب الحديدي المؤدي إلى غرفة المكتبة في البرج. وفي هذه الغرفة أشعل ايمانوس الشريط الكبريتي، وبدأت النار من هذا المكان.

كان أمام جوفان أمل واحد. هو تحطيم الباب. فأمر بإحضار عشرين فأسا ومعولا. جربوا الفئوس. فتحطمت واحدة بعد الأخرى. ثم المعاول. فلم يكن حظها بأحسن من حظ غيرها.

كان الباب مصنوعا من طبقتين من الفولاذ المتين ملتحمتين معا. سمك الطبقة الواحدة ثلاثة قراريط، ثم استعانوا بقضبان حديدية وحاولوا تحطيم الباب بها. لكنها تحطمت كسابقتها.

غمغم جوفان في كآبة: لا يمكن فتح هذا الباب إلا بمدفع. ليته كان يمكن إحضار مدفع إلى هذا المكان.

وقف الرجال مغلوبين على أمرهم. حيارى. مضطربين. محزونين. لا يدرون ماذا

يفعلون.

فقدوا كل أمل. وما هي إلا دقائق حتى تلتهم النار البرج وتقوض أركانه.

دار جوفان برأسه حوله. ولما وقع نظره على الباب الحجري والمنفذ السري لم يتمالك أن هتف غاضبا:

– من هذا المكان هرب الماركيز دي لانتناك.

فأجابه صوت قائلا: ومنه يعود !

ظهر وجه يجلله المشيب في فتحة المنفذ السري.كان القادم هو الماركيز دي لانتناك.

لم ير جوفان هذا الوجه منذ أعوام طويلة. فلم يتمالك أن تراجع خطوات. ووقف الباقون مشدوهين.

أمسك الماركيز مفتاحا كبير في يده. ونظر بأنفه إلى حاملي المعاول الذين وقفوا أمامه. ثم تقدم رأسا إلى الباب الحديدي. ودس المفتاح في قفله.. صر الحديد. وفتح الباب فانكشف خلفه أتون ملتهب. ودخل الماركيز إليه رافع الرأس ثابت الخطى.. وتبعه الواقفون بنظراتهم.

ما كاد الماركيز يخطو بضع خطوات في الرواق الملتهب الموصل إلى غرفة المكتبة. حتى تصدع السقف الذي أكلته النيران. وهوى تحت قدميه. وجعل بينه وبين الباب الحديدي هوة عميقة.على أنه لم يلتفت حوله بل واصل سيره إلى الأمام في ثبات عجيب واختفى في لفائف الدخان. ولم يعد يراه أحد.

هل تسنى له أن يتقدم؟ هل انفتحت تحت قدميه هوة جديدة؟ هل قضى على نفسه بيديه؟.

لم يجد أحد من الواقفين جوابا على هذه الأسئلة. كان حجاب من نار ودخان يقوم أمامهم.. وكان الماركيز خلف هذا الحجاب.. حيا أو ميتا.

الفصل الثالث

فتح الصغار أعينهم أخيرا، لم تدخل النار بعد إلى المكتبة لكن كان ضوؤها الأرجواني ينعكس فوق السقف. وكانت ألسنتها القانية تتراقص في الظلام كأنها نجوم تتلاحق في صفحة السماء. وحدثت صدوع في جدار الطابق الأعلى، وأخذت أعواد القش الملتهبة والفئران المذعورة المحترقة تنهال تباعا من النوافذ العليا إلى الأرض كأنها مطر من ذهب وفحم. لم ير الأطفال مثل هذا المشهد فاستولى على عقولهم الصغيرة ونهضوا جميعا. صاحت الأم: آه !. استيقظوا !.

مد رينيه جان ذراعيه نحو النافذة وقال: حر !.

فرددت جورجيت كلمته. وصرخت الأم:

– أولادي. رينيه. آلين. جورجيت !.

تطلع الصغار حولهم. وحاولوا أن يفهموا. ورددت الأم نداءها: رينيه جان آلين جورجيت .

حول رينيه جان رأسه. وأيقظه هذا الصوت من حلمه. للطفل ذاكرة قصيرة. لكنها سريعة التحفز. والماضي في عينيه هو الأمس المنصرم. رأى رينيه جان أمه. ووجد هذا أمرا طبيعيا. وأحس بحاجة غامضة إلى ما يسفك في هذا المحيط الغامض. فقال: ماما !

وردد كل من آلين وجورجيت هذه الكلمة وبسطت الطفلة ذراعيها الصغيرتين، صرخت الأم: أولادي !.

دنا الأطفال الثلاثة من حافة النافذة ولحسن الحظ أن النار لم تصل إليها بعد إذ

كانت في الجانب الآخر. والتمس رينيه جان أمه بعينيه، وهتف: ماما !

كانت الأم جامدة في مكانها مهدلة الشعر ممزقة الملابس دامية اليدين والقدمين.. وما كادت تسمع هذا النداء حتى فارقها تجلدها وهوت إلى الأخدود وهي تتخبط من شجرة إلى شجرة. حيث وقف سيموردان وجيشام مع الجنود، وهم حائرون مضطربون. عاجزون عن أي شئ أما جوفان فكان في مثل حالتهم فوق حافة الأخدود. هرع رادوب إلى حيث سقطت ميشيل فليشار. وما كاد يراها حتى هتف:

– المرأة التي أعدمت ! إذن عدت إلى الحياة من جديد !

قالت الأم وهي تنتحب: أولادي. !

فأجاب رادوب: لك حق.. لا وقت للبحث في الأشباح.

حاول رادوب أن يتسلق البرج. فجعل يغرس أظفاره بين الأحجار لكنها كانت متراصة متماسكة. وأرتد رادوب إلى مكانه يائسا أما النار فكانت تتزايد انتشارا. ورأى الجميع أيدي الأطفال الثلاثة تمتد من النافذة. وما لبثت ألواح الزجاج في دواليب الكتب أن سقطت وتحطمت. فأيقن الجميع أن الكارثة ستحل بعد لحظات.. وكان صوت الأطفال يصل إلى آذانهم جليا وهم يرددون:ماما... ماما..

جمدوا في أماكنهم رعبا وفجأة.. ظهر هيكل طويل القامة في فراغ النافذة حيث وقف الأطفال، تطلعت العيون وأحتبست الأنفاس في الصدور ظهر رجل في هذا الأتون الملتهب. كان وجهه محتجبا في الظلام. غير أنهم لحوا شعره الأبيض. فعرفوا فيه الماركيز دي لانتناك.اختفى عن نظرهم. ثم ظهر ثانية. ووقف في فتحة النافذة ممسكا بيده سلما كبيرا.كان سلم النجاة الذي وضعه ايمانوس في غرفة المكتبة. فحمله الماركيز وأمسكه من إحدى نهايتيه. وأدلاه بخفة ونشاط من النافذة إلى الأخدود.

أطبق رادوب على السلم حينما صار في متناول يده، وهتف:

– تحيا الجمهورية..

فصاح الماركيز: يحيا الملك.

– اهتف ما شئت.. لكنك ملاك رحمة ورسول من السماء

استقر السلم على الأرض. وأسرع عشرون جنديا بتقدمهم رادوب وارتقوا درجاته حتى تكون منهم سلم بشري. ولمس رادوب بيده حافة النافذة. وتدافع الجنود المنتشرون فوق الهضبة وفي الأخدود وعلى قمة الحصن. وقد جاشت في صدورهم عواطف مضطربة وإحساسات مؤثرة..اختفى الماركيز.

ثم عاد حاملا طفلا بين ذراعيه. فالتهبت الأكف بتصفيق حاد.كان الماركيز قد حمل أقرب طفل إليه. وهو آلين، الذي هتف:

– أنا خائف !

ناول الماركيز الطفل إلى رادوب. فأسلمه رادوب إلى الجندي الواقف تحته.. وأسلمه هذا إلى الذي يليه.. وراح آلين ينتقل من يد إلى يد وقد اشتد خوفه وأخذ يبكي..وفي هذه الأثناء غاب الماركيز ثم عاد حاملا رينيه جان الذي كان يتملص بين يديه ويبكي، وفيما هو يسلمه إلى رادوب لطمه بيديه الصغيرتين ثم حمل إلى الأرض كأخيه، عاد الماركيز إلى داخل الغرفة التي انتشرت فيها النار في هذه اللحظة كانت جورجيت وحدها.. فتقدم منها.. فابتسمت.. فلم يتمالك هذا الرجل الصخري أن ترقرقت الدموع في عينيه.. وسألها:

– ما اسمك؟

ـ جورجيت !

حملها بين ساعديه.. ولم تفارق الإبتسامة شفتيها.. وفيما هو يهم بتقديمها إلى

رادوب بهرته طهارتها ونقاوتها وبراءتها.. فقبلها.قال الجنود: هي الطفلة الصغيرة.

هبطت جورجيت من يد إلى يد حتى وصلت إلى الأرض بين صيحات الفرح والابتهاج.. ومن الجنود من راح يصفق.. ومنهم من كان يبكي وينتحب.. أما الطفلة فكانت تبتسم لهم.

وقفت الأم عند نهاية السلم محبوسة الأنفاس، زائغة الحواس، مذهولة من هذا التحول الذي ألقى بها من الجحيم إلى الجنة بسطت ذراعيها.. واستقبلت أولا آلين، ثم رينيه جان، ثم جورجيت.. فغمرتهم بقبلات جنونية.. وضحكت ضحكة وحشية ثم هوت مغمى عليها. ارتفعت صيحة:

_ نجا الجميع. نجا الجميع حقا.. إلا الكهل.

لكن أحدا لم يفكر فيه في هذه اللحظة.. بل ربما لم يفكر هو في نفسه.. فقد وقف عند حافة النافذة غارقا في حلم.. كأنما يريد أن يترك للنار أن تواصل مهمتها. وأخيرا خطا فوق حافة النافذة بتؤدة وكبرياء، رافع الرأس منتصب القامة، موليا ظهره إلى الحريق وإلى درجات السلم.. وراح يهبط درجات السلم في عظمة وشموخ كأنه طيف.. وثب الرجال الباقون فوق السلم.. وسرت رعدة في الجميع.. لكن الرجل أخذ يهبط في الظلام بهدوء ابتعدوا عنه.. أما هو فكان يدنو منهم.. ولم يبد في صفحة وجهه الشاحب أقل انفعال.. وكان وهو يهبط إليهم يبدو في أعينهم أكثر شموخا وارتفاعا. وما كاد الماركيز يستقر على الأرض، حتى وضعت يد على كتفه.التفت حوله.. فقال له سيموردان:

– إني أقبض عليك.

فقال الماركيز: وأنا موافق.

القسم الرابع

النضال بعد الفوز

الفصل الأول

أخذ لانتناك أسيرا.. وانحدر بيده إلى القبر.

كان في الحصن قبو له باب في الطابق الأرضي، مؤلف من غرفتين، العليا وهي على امتداد قاعة الطابق الأرضي في الحصن، ولها باب يفتح في هذه القاعة، وكانت مظلمة رطبة الهواء في جداريها المتقابلين حفرتان غائرتان لهما تاريخ مروع، فقد كانت أمام كل جدار عجلة ضخمة كان يربط فيها السجين في العصور الوسطى، في كل عجلة ذراع وساق، ثم تدار العجلتان في وجهتين متضادتين، فتتمزق أعضاء السجين المنكود أما الآن فقد ذهب هذا النظام المروع ولم يبق منه إلا أثره في الجدران، وفي أرض هذه الغرفة فتحة تشرف على القسم الأرضي من القبو، وهي مقبرة فلم يكن بها منفذ آخر غير الفتحة العليا. وكان هواؤها زمهريرا. وفي قاعها ماء راكد. فإذا أدلى السجين إليها من الغرفة العليا زهقت روحه بعد دقائق معدودات أما الآن فقد سدت الفتحة المشار إليها. وجئ بالماركيز دي لانتناك إلى غرفة القبو العليا. ففتحت تحت إشراف سيموردان الصارم ووضع بها مصباح وإناء ماء ورغيف من الخبز الجاف وحزمة من القش وما كاد يمضي ربع ساعة منذ وضع سيموردان يده على كتف الماركيز حتى كان لانتناك أسيرا في هذه الغرفة، وأغلق بابها عليه.

ولما فرغ سيموردان من هذه المهمة ذهب للبحث عن جوفان، حيث كانت الساعة في هذا الوقت قد بلغت الحادية عشرة وقال سيموردان لتلميذه السابق:

– سأعقد محكمه عسكرية لن تكون من أعضائها. فأنت ولانتناك من أفراد أسرة جوفان، وقرابتك إليه تحول دون جعلك قاضيا له.. وستؤلف المحكمة

العسكرية المذكورة من ثلاثة قضاة: ضابط هو الكابتن جيشام، وصف ضابط هو الجاويش رادوب، وأنا وسأتولى الرياسة وسنلتزم تطبيق قانون (مجلس الأمة). وستقتصر مهمتنا على إثبات شخصية الماركيز السابق دي لانتناك. ولن يعنيك شئ من كل هذا ستعقد المحكمة العسكرية غدا.. وبعد غد تنصب المقصلة ويقضي على ثورة (فانديه) إلى الأبد..

لم يجب جوفان بكلمة واحدة. وتركه سيموردان وذهب لإتمام الإجراءات التي أشار إليها. لقد كان عليه أن يحدد الوقت ويختار المكان وكان يحب أن يشرف بنفسه على تنفيذ إجراءات الإعدام. وهذه العادة الغريبة، أي حضور القاضي بنفسه لرؤية الجلاد وهو يؤدي مهمته، مقتبسة من محاكم التفتيش الأسبانية، ومن عهد الإرهاب الذي ساد فرنسا في عام ٩٣.

كان جوفان كذلك منهمكا في التفكير. وفي هذا الوقت هبت على المعسكر من الغابة ريح قاسية. فعهد جوفان إلى جيشام بإعطاء الأوامر اللازمة، وذهب إلى خيمته القائمة على حدود الغابة عند قاعدة الحصن وتناول عباءته الخاصة والتف بها.

كانت هذه العباءة ذات غطاء يوضع على الرأس، ولم يكن بها من الزخارف سوى شارة القائد العام، أخذ جوفان يتنقل في هذا الميدان الذي كان مسرحا لمعركة دامية ولم يكن به أحد في ذلك الوقت. كانت النار لم تخمد بعد لكن لم يعد أحد يهتم بها. وذهب رادوب إلى جانب الأم وأولادها وأخذ يواليهم برعايته. وأتت النار على بناء البرج وما بقي منه أعمل فيه الجنود معاولهم.

وانهمك الجنود في حفر الخنادق ودفن القتلى فيها، ومعالجة الجرحى وهدم الاستحكامات وإزالة آثار المعركة المروعة التي درات بين جدران الحصن التاريخي، لكن جوفان لم يحفل بهذا كله ولم ينظر إليه. فقد كان منهمكا في أفكاره ولم يلتفت

إلى شئ. وفيما هو كذلك رنت في أذنه هذه الكلمات التي سمعها من سيموردان: " ستعقد المحكمة العسكرية غدا. وبعد غد تنصب المقصلة ".

أخذ جوفان يسير بتؤدة ذهابا وإيابا في الظلام غير بعيد عن فتحة الحصن. حيث يوجد الماركيز سجينا في القبو المجاور للطابق الأرضي وكان من وقت لآخر يمسك رأسه بين راحتيه، شأن من ينهمك في تفكير عميق..

الفصل الثاني

وقع تطور عظيم في خلق الماركيز دي لانتناك.. وشهد جوفان بعينيه مظاهر هذا التطور. ولم يكن يصدق أن الحوادث مهما تتابعت وتضاربت يمكن أن تؤدي إلى مثل هذا التحول. شهد جوفان معجزة بعينيه وكان سلاح هذه المعركة هو.. المهد، رأى ثلاثة أطفال بؤساء يتامى منبوذين معدومي النصير، ينتصرون على طغيان الحروب وكوامن الأحقاد. وقد انهزمت كل هذه القوى أمام ابتسامتهم البريئة الطاهرة. وكان لهذه المعركة الرهيبة مسرح واحد هو ضمير لانتناك.

لكن المعركة بدأت من جديد. بدأت أشد عنفا واضطراما وكان مسرحها هذه المرة.. ضمير جوفان. كان الماركيز محصورا في الحصن. واعتقد الجميع أنه هالك لا محالة ومقضي عليه بالموت، فإذا هو في غمضة عين ينجو بمعجزة، ويفلت من أيدي أعدائه المتعطشين لدمه. ويحتمي في ظلام الغابة حيث يجند القوى الخفية التي تشد أزره، ويستأنف الحرب من جديد وهو أشد قوة وأقدر على النضال.

نال الماركيز حريته وأصبح طليقا يروح ويغدو حيث يشاء. لكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه الحرية وعاد إلى الموت بمحض إرادته فعل الماركيز هذا لكي ينقذ ثلاثة أطفال فإذا هم يجازونه بالموت وينصبون له المقصلة !

هل كان هؤلاء الأطفال أولاده؟. هل كانوا من أسرته؟.هل كانوا من طبقته؟.

لا. كانوا أطفالا مجهولين من عرض الطريق ممزقي الثياب حفاة الأقدام متسولين لكن هذا النبيل، هذا الكهل الذي استرد حريته وانتصر على أعدائه بإفلاته من قبضتهم. هذا الرجل قد ضحى بكل شئ وفقد كل شئ. وفي نفس الوقت الذي أعاد فيه الحياة إلى الأطفال، قدم رأسه فخورا شامخا كان للماركيز أن يختار بين

حياته وحياة غيره. فاختار الموت في نبله وسموه. وسوف يقتلونه. فيا له من جزاء للبطولة !

سوف تهوي سكين المقصلة فوق عنق هذا الجندي العظيم والشيخ القوي والمحارب الأعزل. وسيحدث هذا بحضور جوفان القائد وتحت سمعه وبصره، دون أو يتدخل أو يبدي أدنى اعتراض لكن.. ألم يكن جوفان ينشد موت هذا الرجل ويسعى إلى تسليم رأسه إلى سيموردان؟. صحيح أن جوفان كان يتوق إلى هذا ويعمل جاهدا لتحقيقه حينما كان لانتناك رجلا سفاحا يقتل الأسرى ويجري الدماء أنهارا ويحصد الأرواح حصدا بلا تردد ولا رحمة. لكن لانتناك القاتل اختفى وتلاشى. وظهر على المسرح لانتناك آخر. واستحال الوحش إلى إنسان رحيم منقذ. يشع منه نور سماوي يبهر الأنظار.

وفي الوقت الذي يتطور فيه لانتناك هذا التطور يبقى جوفان جامدا كما كان ! فهل يقبل هذا؟ وهل يقف مكتوف اليدين أمام البطولة النادرة التي أبداها لانتناك؟.لكن فرنسا؟. هل يعوضها بإنقاذ الماركيز للخطر الرابض في المحيط، الذي ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليها؟. إن لانتناك لا يكاد ينجو من سجنه حتى يمد يده إلى انجلترا، ويقول لها: " تعالي.. خذي فرنسا ".

فهل يقدم جوفان على هذه الخطوة؟ هل يرتكب هذه الجريمة؟ هل يطلق سراح لانتناك حتى يفتح أرض الوطن للغزاة المتربصين؟ هل يتركه حتى ينفخ من جديد روح الثورة في ميادين (فنديه) ويؤلب جيوشها؟ هل يقدم جوفان على هذا بعد أن بات لانتناك أسيرا ينتظر الموت بين ساعات؟

لا ريب أن لانتناك لا يكاد يسترد حريته حتى يعود كما كان، قاسيا لا يرحم، يحرق البيوت، ويذبح الأسرى، ويقضي على الجرحى، ويعدم النساء... وفوق هذا كله.. أليس جوفان مبالغا في تقديره لهذه البطولة التي أبداها لانتناك؟. أنقذ لانتناك

ثلاثة أطفال كانوا هالكين. لكن من ذا الذي قذف بهم إلى الهلاك؟ أليس هو لانتناك؟ من وضع أسرة الأطفال الثلاثة في البرج الملتهب؟ ألم يكن ايمانوس مساعد الماركيز؟. إن المسئولية في هذا الفعل تقع على عاتق القائد. وإذن فالجاني هو لانتناك. فما الذي فعله حتى يستحق التقدير والإعجاب؟. كل ما فعله أنه لم يندفع إلى النهاية في إتمام الجريمة. ولما سمع صرخات الأم أفاق لنفسه وقدر هول الجريمة وبشاعتها. فوقف في منتصف الطريق. ولم ينسق في الإجرام إلى الغاية.

هذا كل ما فعله. فمن أجل هذا القليل، يمنحه جوفان حريته وحياته، حيث يستأنف الحرب من جديد، ويعود إلى القتل والتخريب؟! على أنه إذا سعى جوفان لإقناع لانتناك بالعدول عن خطته ونفض يديه نهائيا من الحرب إذا أطلق سراحه، فلن يكون نصيبه غير الفشل فهو يعرف لانتناك. ولن يكون جوابه له إلا هذه الكلمات: " ألبس أنت هذا العار. اقتلني ! ".

لم يكن هناك ما يفعله جوفان نحو هذا الرجل إلا أن يقتله أو يحرره ففي الأولى عذاب وألم لنفسه. وفي الثانية مسئوليه. وعبء جسيم ثم عاد جوفان ثانية إلى النقطة الأولى التي كانت مدار تفكيره. هل لا يزال لانتناك حقا ذلك النمر المفترس الذي يتصوره؟. هل هو كذلك بعد هذه التضحية النبيلة التي قام بها.؟ وبعد أن برهن على نكران الذات والإنسانية والتسامي على أحقاد الحروب، وبعد أن أدى واجبه السامي الذي تمثل في اعتراف القوى بحق الضعيف في حمايته؟ هل لا يزال كذلك بعد أن ضرب أروع الأمثال وقدم حياته ونزل عنها طائعا مختارا؟. هل يمكن أن يبقى نمرا من قام بهذه الأفعال وقدم هذه الأمثال؟ هل يجب أن يعامل بعد هذا كله معاملة الوحوش؟.

لا. لا. إن الرجل الذي بدد ظلمات الحروب الأهلية ووحشيتها بهذا النور السماوي ليس نمرا ولا وحشا. إن لانتناك قد كفر عن كل مساوئه الماضية بهذه

التضحية التي أقدم عليها. إن تسليم نفسه لإعدائه قد طهر روحه فاستحق العفو والصفح ضرب لانتناك بتضحيته مثلا أعلى فعلى جوفان أن يقتدي به فماذا يفعل؟. هل يتخاذل عن أداء هذا الواجب الذي ألقته الأقدار على عاتقه؟ لا.

غمغم جوفان لنفسه: " لننقذ لانتناك ".فأجابه صوت آخر: " حسنا. انقذ لانتناك. ساعد انجلترا. سلم فرنسا للأعداء ".ارتعد جوفان.. ولم يدر أي السبيلين يسلك. وبأي الرأيين يأخذ. هل يترك الماركيز يهلك؟ هل ينقذه؟ أين الواجب في هذين الطريقين المتنافرين؟

الفصل الثالث

انتصف الليل ثم أذنت الساعة بالواحدة وأخذ جوفان يدنو من فتحة الحصن شيئا فشيئا دون أن يفطن لذلك، كانت ألسنة النار لا تزال تخبو وترتفع. وفجأة اندلع لسان من اللهيب أضاء قمة الهضبة، وكشف عن هيكل مركبة..حدق جوفان إلى المركبة. فرآها محوطة بفرسان. وخيل إليه أنها نفس المركبة التي شاهدها عند غروب الشمس من خلال منظار جيشام.

كان بعض الرجال فوق المركبة ينزلون حملها. كان ثقيلا، يصدر منه بين لحظة وأخرى رنين كرنين الحديد. وتعاون رجلان على حمل صندوق وضعاه على الأرض، كان يبدو من شكله أنه يحتوي جسما مثلث الشكل. تلاشى لسان اللهب. وغمر الظلام كل شئ كما كان. ووقف جوفان شارد الذهن يحدق إلى ما يخبئه الظلام في طياته، أضيئت المصابيح.. وأخذ الرجال يروحون ويجيئون فوق الهضبة لكن أشباحهم كانت مختلطة. كما أن جوفان في ناحية الأخدود المنخفضة، ولذلك لم يستطع أن ينظر ما يجري.. وكان يسمع بين وقت وآخر صوت ارتطام أخشاب توصل بعضها ببعض. كما سمع صوتا غريبا كأنه شحذ سلاح معدني.

دقت الساعة الثانية وتقدم جوفان إلى فتحة الحصن كأنما تدفعه قوة قاهرة لا يقوى على مغالبتها. ولما دنا عرفه الحارس من عباءته، فرفع سلاحه في تحية عسكرية.

دلف جوفان إلى قاعة الطابق الأرضي التي تحولت إلى غرفة للحرس. كان مصباح يتدلى من سقفها. واستطاع جوفان في ضوئه أن يجتاز القاعة دون أن يدوس على الجنود الذين تمددوا فوق القش وقد نام أكثرهم لشدة التعب بعد المعركة

الطاحنة نهض بعض الجنود عند دخول جوفان، وبينهم الضابط المنوب.

فأشار جوفان بيده إلى باب القبو، وقال للضابط: افتح الباب.

أزيل المزلاج. وفتح الباب. ودخل جوفان. ثم أغلق الباب خلفه.

الفصل الرابع

كان الماركيز الأسير يروح ويجئ في سجنه كالأسد في قفصه، حينما فتح الباب، رفع رأسه عند سماعه صوت فتح الباب وإغلاقه، فسطع ضوء المصباح الموضوع فوق الأرض على وجهه وعلى وجه جوفان معا تبادلا النظر ورأى كلاهما في عيني صاحبه ما أوقفه في مكانه جامدا، ثم ضحك الماركيز أخيرا ضحكة قوية وهتف:

– عم مساء يا سيدي.. لم أتشرف بمقابلتك منذ زمن طويل.. إن هذه الزيارة فضل منك.. شكرا لك.. لا أطمع إلا أن أتحدث قليلا.. كدت أمل هذه الوحدة.. إن أصدقاؤك يضيعون وقتا طويلا في إجراءات المحكمة العسكرية التي يتشبثون بها. ويمكن أن تختصر هذه الإجراءات وأن انتهى بسرعة. هأنذا في بيتي وبين جدران حصني لا بأس.. ما رأيك في كل ما يحدث؟ ستقول أنه طبيعي.. أليس كذلك؟ سأتشرف بمعرفة المقصلة صباح غد.. فهل جئت لهذا السبب؟ هل ارتفعت مرتبتك؟. هل ستقوم بمهمة الجلاد؟.. أما إذا كانت هذه زيارة عادية. فإنك تملأ قلبي تأثرا.. ربما لم تعد تعرف يا فيكونت من هو النبيل !.. لا بأس.. أمامك واحد.. هو أنا.. أنظر إلي. هو يؤمن بالله.. ويقدس التقاليد، والأسرة، والسلف. هو يدين بالطاعة والولاء لمليكه، ويحترم القوانين الوراثية، والفضيلة، والعدالة، ويجد لذة في إعدامك. أرجو أن تتفضل بالجلوس. لا حيلة في جلوسك على الأرض، فليس بغرفتي مقعد وتير يليق بك هذه غرفة قديمة تاريخية في قصرى.. كان النبلاء قديما يحبسون الدهماء بين جدرانها. فإذا الدهماء الآن يحبسون النبلاء فيها.. وهذا التهريج هو ما تنعتونه بالثورة. يلوح أن رأسي سيقطع في ظرف ست وثلاثين ساعة.. ليكن.. لا أرى غضاضة في هذا.. لكن لو كان آسرى أكثر أدبا ومجاملة

لارسلوا إلى علبة سعوطي.. هي موجودة في قاعة المرايا حيث كنت تلهو وتلعب في طفولتك. حيث كنت أدللك وأحملك على ركبتي.سيدي.. اسمح لي أن أقول لك شيئا واحدا. إنك تنسب نفسك إلى أسرة جوفان. ومن عجب أن الدم النبيل يجري في عروقي نعم.. وهو نفس الدم الذي يجري في عروقك !. لكن هذا الدم الذي جعل مني رجلا شريفا قد خلق منك وغدا شريرا.

كان الماركيز يتكلم بهدوء واضعا يديه في جيوبه ثم أمسك عن الكلام واستنشق الهواء واستطرد:

– لا أخفي عليك أني بذلت جهدي لقتلك. بل لعلك رأيت بعينيك أني سددت إليك مدفعا بيدي ثلاث مرات.. صحيح إن هذا عمل خلو من المجاملة.. ولكن العدو في أوقات الحروب يضرب أسوأ الأمثال لو تمسك بتقاليد المجاملة فنحن نتحارب، يا سيدي، وابن أخي والكلمة في هذه الأيام للنار والسيف.. هذا زمن عجيب علم الله ما كان يحدث شئ من هذا لو أن فولتير شنق، وأعدم روسو بالمقصله، في الوقت المناسب.. آه من أولئك المفكرين !.. فهم أس هذا البلاء !. وما دام في الدنيا كتاب، فهناك التحريض وأعمال العنف ! إن الكتب أسباب الجرائم.. وكم يدفع الإنسان غاليا بسبب هذا اللغو !.. ما هي الحقوق التي تتشدقون بها؟ هي القتل والتدمير ! أليس هذا من البشاعة بمكان؟. إني أرثي لك يا سيدي.. لكنك تنتمي إلى أسرة جوفان النبيلة. ولأجدادك تاريخ حافل بالمحاسن. وفي وسعي أن أسهب لك في بيان تفاصيله. لكن ما الفائدة؟ إنك تتشرف بأن تكون أحمق مأفونا. وتضع نفسك في مرتبة حوذي مركبتي. لست أدري على أي صورة تنتهي هذه المحنة. وقد دمرتم كل شئ ولم تبقوا على شئ.. ليكن أيها المواطنون ! أنتم سادة الموقف ! احكموا ! تمتعوا. افعلوا ما يحلو لكم؟ لا تتورعوا عن شئ ! ولكن هذا كله لن يغير حرفا من الحقيقة الراسخة.. وهي أن الدين هو

الدين.. وإن تاريخ الملكية يحتل خمسة عشر قرنا في تاريخ بلادنا وان نبلاء فرنسا أسمى وأرفع منكم، حتى بغير رءوس ! استمروا في أفعالكم ! كونوا رجال العهد الجديد !. انحطوا ! إني تكلمت.. فمر بإعدامي يا سيدي الفيكونت. إني أتشرف بأن أكون خادمك المطيع.. إني لم أتردد في بسط الحقيقة أمام نظرك. ماذا يهمني؟ أنا ميت..

تكلم جوفان لأول مرة، فقال:

– أنت حر.

خلع جوفان عباءة القيادة، ودنا من الماركيز وطرحها فوق كتفيه، ثم وضع الغطاء فوق رأسه وأسدله حتى عينيه.. وكان كلاهما متشابه القوام..

قال الماركيز: ماذا أنت فاعل؟

رفع جوفان صوته ونادى: افتح الباب أيها الملازم !

فتح الباب. وقال جوفان: أغلق الباب بإحكام خلفي.

ودفع الماركيز بيده إلى باب الغرفة، وقد أخذ الذهول من نفسه كل مأخذ، كانت قاعة الطابق الأرضي قد تحولت إلى غرفة للحرس، وكان بها مصباح ضعيف يرسل نورا ضئيلا. ورأى من لم يكن نائما من الجنود في هذا الضوء الكليل شبح رجل طويل القامة، ملتف بعباءة القيادة وعلى رأسه غطاؤها، يمر في وسطهم ويتجه إلى المدخل. فأدوا التحية العسكرية وسار بينهم.اجتاز الماركيز غرفة الحرس بتؤدة.. ثم الفتحة. حيث اصطدم رأسه بأحجارها الناتئة أكثر من مرة.. ووصل إلى الخارج. اعتقد الحارس الواقف خارج الفتحة أنه يرى القائد جوفان، فأدى التحية العسكرية..

وصل الماركيز إلى الخارج، حيث كانت الغابة على بعد أمتار منه، وأمامه الحرية

والحياة والجو الطليق، لكنه وقف، وبقي في مكانه جامدا كإنسان ترك نفسه يدفع دفعا واستسلم لهذه المفاجأة، حتى إذا خرج ووقف عند الباب المفتوح، راح يسائل نفسه: هل أحسن أو أساء؟ وتردد في التقدم وموالة السير، وأخذ يصغي للهاتف الأخير في أعماق نفسه..رفع الماركيز رأسه بعد تفكير عميق.. وغمغم:

"الواجب"..

ثم واصل السير..أما باب القبو فقد أغلق على جوفان.

الفصل الخامس

كان رئيس المحكمة العسكرية في عام ١٧٩٣ في فرنسا هو كل شئ في المحكمة، فهو يختار الأعضاء ويشرف على إجراءات المحاكمة، وهو الرئيس والقاضي معا، اختار سيموردان مكان المحكمة في قاعة الطابق الأرضي في الحصن التي تحولت إلى غرفة الحرس، فقد أراد أن يختصر الطريق من السجن إلى المحكمة ثم إلى المقصلة.

انعقدت المحكمة بأمر سيموردان عند الظهر.. ولم يكن بالقاعة سوى ثلاثة مقاعد من القش، وطاولة من خشب الصنوبر، وثلاث شمعات، ومقعد بغير ظهر أمام الطاولة.

كانت المقاعد الثلاثة للقضاة، والمقعد الأخير للمتهم.. وضع كذلك عند طرفي الطاولة مقعدان مشابهان لمقعد المتهم، أحدهما للمثل الاتهام، وهو برتبة ضابط، والثاني لكاتب الجلسة، وهو جاويش ووضع فوق الطاولة قضيب من الجمع الأحمر، وختم نحاسي من أختام الجمهورية، ومحبرتان وبضع أوراق بيضاء، ونشر فوقها إعلانات، يتضمن أولهما الأمر القاضي بإهدار حقوق لانتناك وأصحابه، والثاني (قانون مجلس الأمة).وزين المقعد الأوسط بطائفة من إعلام مثلثة الألوان.. وكان معدا لجلوس الرئيس، ووضع مواجها لباب السجن وتألف جمهور النظارة من الجنود.. ووقف

حارسان على جانبي مقعد المتهم..

جلس سيموردان في المقعد الأوسط.. وعن يمينه الكابتن جيشام القاضي الأول، وعن يساره الجاويش رادوب القاضي الثاني.كان سيموردان يضع على رأسه قبعة

ذات شارة مثلثة الألوان، وقد تمنطق بسيفه وتدلت طبنجتاه حول وسطه، واكتسبت سحنته طابعا وحشيا بسبب الجرح الذي أصابه في وجهه في معركة (دول) أما جرح رادوب فلم يكن التأم بعد.. ولف حول رأسه منديلا كانت تعلوه بقعة دموية وقبيل افتتاح إجراءات المحاكمة كتب سيموردان رسالة إلى (لجنة الأمن العام) في باريس بعث بها مع رسول خاص، وكان نصها كما يلي:" أيها المواطنون أعضاء لجنة الأمن العام وقع لانتناك أسيرا. وسيعدم غدا ".

وحالما فرغ سيموردان من هذه الرسالة قال بصوت مرتفع: افتحوا باب السجن..

رفع حارسان المزلاج، وفتحا الباب، ودخلا إلى السجن، رفع سيموردان رأسه، وشبك ذرعايه، وركز نظره في باب السجن، وهتف:

– احضروا السجين..

ظهر رجل بين حارسين عند الباب، ووقف كان جوفان، انتفض سيموردان.. وهتف:

– جوفان!

ثم استطرد:

– إني طلبت السجين !

فقال جوفان:

– هو أنا..

– أنت..؟!

– نعم..

– ولانتناك؟

– أفلت..

– أفلت.. الحقيقة أن الحصن ملك له.. وهو يعرف كافة منافذه ولا يبعد أن يكون القبو متصلا بمنفذ سري. وكان يجب أن أفطن إلى أنه قد يجد وسيلة للإفلات. دون أن يحتاج إلى مساعدة من أحد.

فقال جوفان: هناك من ساعده.

– على الإفلات.

– نعم..

– من ساعده؟

– إني دخلت إلى القبو. وبقيت وحدي مع السجين. وخلعت عباءتي ووضعتها فوق كتفيه وحجبت رأسه بالغطاء. فذهب في مكاني وبقيت في مكانه. وهأنذا.

– أنت لم تفعل هذا !

– بل فعلته.

– احضر إلي لانتناك..

– لم يعد هنا.. حسبه الجنود أنا حينما رأوا عباءة القائد. وتركوه يمر.. وكان الوقت ليلا.

– أنت مجنون !

ساد الصمت.. وقال سيموردان في تلعثم: إذن فقد استحققت..

فقال جوفان:

– الموت.

امتقع وجه سيموردان حتى غدا كوجوه الموتى، وجلس في مكانه كالمصعوق. وسأل العرق فوق جبينه. ولم يعد يتنفس.حاول أن يكسب صوته رنة الجمود والتماسك، فقال:

– أيها الجنود.. اجلسوا المتهم.

جلس جوفان فوق المقعد.

فاستطرد سيموردان:

– أيها الجنود.. ارفعوا السيوف.

ثم قال وقد استعاد صوته رنته المألوفة: قف أيها المتهم.

الفصل السادس

نهض جوفان.. فسأله سيموردان:

– ما اسمك؟

_ جوفان.

– من أنت؟

– أنا قائد جيش السواحل الشمالية.

– هل تقرب أو تتصل بالرجل الذي أفلت؟

– أنا ابن أخيه.

– هل تعرف قانون (مجلس الأمة)؟

– إني أراه مكتوبا في الإعلان الموضوع على الطاولة.

– هل عندك ما تقوله بصدد هذا القانون؟

– إني عززته بتوقيعي.. وأمرت بتنفيذ منطوقه.

– اختر لك محاميا..

– سأدافع عن نفسي.

– تكلم..

عاد سيموردان إلى سابق صلابته وجموده.. وبقي جوفان صامتا لحظة كأنما يستجمع أفكاره.

فقال سيموردان:

–ما هو دفاعك؟

رفع جوفان رأسه متمهلا، وقال:

– ليس لدي ما أقوله غير هذا.. هناك شئ واحد حجب عن عيني كل ما عداه.. هناك عمل نبيل واحد حجب عن نظري مئات الأعمال الآثمة. في أحد الجانبين رجل كهل.. وفي الجانب الثاني ثلاثة أطفال.وكلاهما وقف بيني وبين واجبي. نسيت القرى المحترقة.. والحقول التالفة.. والأسرى المذبوحين والجرحى المقضي عليهم.. والنساء المقتولات.. نسيت التواطؤ مع انجلترا على فرنسا.. وأطلقت سراح قاتل الوطن أنا مذنب.. ويخيل إليكم وأنا أقرر هذا أني أتكلم ضد مصلحتي لكن هذا خطأ.. أنا أتكلم في مصلحتي إذا أقر المذنب بجريرته.. فهو ينقذ شيئا واحدا جديرا بالإنقاذ. ينقذ شرفه.

قال سيموردان:

– هل هذا كل دفاعك؟

– سأضيف كلمة أخرى.. لما كنت القائد، فلكم علي حق.. ولما كنتم القضاة، فلي عليكم حق.

– وما هو الحق الذي تطلبه؟

– موتي.

– هل ترى هذا عدلا؟

– ولازما.

– اجلس.

نهض الضابط ممثل الإتهام وتلا أولا قانون إهدار حقوق الماركيز دي لانتناك السابق، وثانيا قانون (مجلس الأمة) الذي ينص على إنزال العقاب الصارم بكل من يعمل على تسهيل الهرب لأحد من الأسرى الثائرين.. واختتم تلاوته بتلك الأسطر المذيلة في أسفل الإعلان التي تحظر " تقديم المساعدة إلى العصاة " وإلا تعرض المخالفون للإعدام وهي التي وقعها جوفان " قائد جيش السواحل ".

جلس ممثل الإتهام على إثر ذلك. فشبك سيموردان ذراعيه وقال:

– اصغ أيها المتهم. صمتا أيها الجمهور. سمعتم نص القانون. ستؤخذ الأصوات وسيصدر الحكم بأغلبية الآراء. وسيعلن كل قاض قراره بصوت مسموع في حضور المتهم، فليس للعدالة ما تخفيه.

ثم استطرد سيموردان:

– سيعطي القاضي الأول صوته.. كابتن جيشام. تكلم

لم ينظر جيشام إلى سيموردان أو جوفان. بل خفض بصره وركز عينيه في الإعلان المتضمن القانون، وقال:

– القانون ثابت لا يتغير. والقاضي أكثر وأقل من إنسان. أقل من إنسان لأنه لا قلب له.. وأكثر من إنسان لأنه يشهر سيف العدالة، في عام ٤١٤ قبل الميلاد أعدم مانليوس الروماني ابنه لارتكابه (جريمة) قهر أعدائه بغير أمره. هذا مثل ضرب في انتهاك النظام وهنا قانون انتهكت حرمته. وما يزال القانون أرفع شأنا من النظام. تعض الوطن للخطر من جديد بسبب عاطفة شفقة.. وقد تبلغ الشفقة مبلغ الجريمة. إن القائد جوفان أعان الثائر لانتناك على الهرب. فهو مذنب.. وأرى له الموت.

فقال سيموردان: سجل أيها الكاتب.

سطر الكاتب هذه الجملة: " الكابتن جيشام: الموت "

رن صوت سيموردان واضحا ساكنا: أحسنت يا جيشام أشكرك.

ثم استطرد سيموردان:

– دور القاضي الثاني.. تكلم أيها الجاويش رادوب.

نهض رادوب، والتفت إلى جوفان، وأدى له التحية العسكرية، ثم قال:

– إذا كان هذا ما تفعلون، فاعدموني إذن، لأني أقرر لكم أمام الله، وأقسم بشرفي، أني ما كنت أتردد في أن أفعل أولا ما فعله الكهل وأن أفعل ثانيا ما فعله قائدي.

حينما رأيت ذلك الكهل الذي بلغ الثمانين يثب بين ألسنة اللهيب لإنقاذ ثلاثة أطفال من براثنها، قلت لنفسي: " أيها الكهل.. أنت رجل باسل " وحينما أسمع الآن أن قائدي قد أنقذ الكهل من سكين مقصلتكم اللعينة، أقول بملء صوتي: " يا قائدي. أنعم بك من رجل ولو كان الأمر بيدي، لمنحتك وسام القديس لويس، لو بقيت أوسمة، أو بقي قديسون ".

أيها الناس ! هل سيدور بنا الزمن؟ ونفقد عقولنا؟ لو كان لأجل هذه النهاية ما كسبناه من المواقع المشهودة، فعلى الدنيا السلام ماذا؟ أمامكم القائد جوفان ذلك الذي قضى أربعة أشهر يدافع عن الجمهورية بحد سيفه، وفعل في (دول) العجائب فهل تتخلصون منه، وتفصلون رأسه، بدلا من تنصيبه قائدا عاما؟! هذه حالة تذهب العقل، وتفقد الصواب، أيها المواطن جوفان. أيها القائد.. لو كنت جنديا تحت إمرتي لا قائدي، لوصفت كلامك الذي صرحت به الآن باللغو والمجون إن الكهل أتي عملا نبيلا بإنقاذ الأطفال. وأنت أتيت عملا نبيلا بإنقاذ الكهل وإذا كنا نعدم الناس جزاء الأعمال النبيلة التي يفعلونها فلتذهبوا إذن إلى جهنم !

ولتخطفكم الشياطين ! فقد انعدم المنطق واختلط الخير والشر. ليس هذا صحيحا ! إني لا أصدق ما أرى !. هل أنا في حلم؟ لست أفهم ! هل كنتم تريدون أن يترك الكهل الأطفال يحترقون أحياء؟.. هل كنتم تريدون أن يترك قائدي رأس الكهل تقطع بالمقصلة؟

_ انظروا إلي ! اعدموني ! إني ما كنت أتردد في أن أفعل ما فعل. ولو أن الأطفال قتلوا لتلوثت الفرقة الحمراء بالعار والفضيحة.. فهل هذا ما كنتم تريدون؟ إذن ليهلك كل منا أخاه !. ولنمت جميعا !. إني أفهم في السياسة ما يفهمه كل منكم.. وقد انضممت إلى أحزاب الثورة..إننا ندنو من نهايتنا. إني أحكم على الموضوع من وجهة نظري إليه لماذا نتقدم للموت ونجود بأرواحنا؟ ألكي يقتل زعيمنا؟ كلام فارغ !. سأدافع عن قائدي !. إني أحبه اليوم أكثر مما أحببته من قبل..ترسلونه إلى المقصلة ! أنتم تضحكونني ! لن نسمح أن يحدث هذا بيننا !

عاد رادوب إلى الجلوس. وانفتح جرح رأسه أثناء دفاعه الحار، وسال الدم فوق عنقه. التفت سيموردان إلى رادوب وسأله:

–هل تعطي صوتك ببراءة المتهم؟

فأجاب رادوب: إني أطلب أن يكون قائدا عاما.

– أسألك إذا كنت تعطي صوتك ببراءته؟

– إني أطلب أن يكون على رأس الجمهورية؟

– أيها الجاويش رادوب. هل تعطي صوتك ببراءة القائد جوفان؟ نعم أو لا؟

– إني أطلب أن تقطع رأسي مكانه.

فقال سيموردان: براءة. سجل أيها الكاتب.

سطر الكاتب هذه الجملة: " الجاويش رادوب. براءة "

ثم قال الكاتب: صوت بالموت وصوت بالبراءة

جاء دور سيموردان. فنهض من مكانه. وخلع قبعته ووضعها فوق الطاولة لم يعد وجهه شاحبا أو متقلصا. بل كان في لون الطمي، ساد سكون رهيب كسكون الموت. وقال سيموردان في صوت رصين متئد ثابت: أيها المتهم. تم سماع القضية. باسم الجمهورية، حكمت المحكمة العسكرية بأغلبية صوتين ضد صوت واحد... توقف سيموردان عن إتمام النطق بالحكم. كأنما يتردد في إصدار حكم الموت أو الحياة.. وجزعت النفوس.. واحتبست الأنفاس في الصدور. ثم استطرد سيموردان: حكمت عليك بالإعدام.

شاعت في وجهه إشراقة يسيرة هي صدى انتصاره المروع على المعركة الطاحنة التي ثارت في نفسه. على أنها لم تستغرق إلا ثوان. وعاد إلى وجهه امتقاعة السابق. وجلس في مقعده. ووضع قبعته على رأسه، ثم قال: جوفان. ستعدم غدا عند شروق الشمس.

نهض جوفان. وحيا. وقال: أشكر المحكمة..

فقال سيموردان: اذهبوا بالمحكوم عليه.

فتح باب القبو. ودخل جوفان. وأغلق الباب. ووقف الحارسان على الجانبين وقد شهر كلاهما سيفه بيده. وهوى الجاويش رادوب على الأرض مغمى عليه. فذهبوا.

الفصل السابع

امتلأت نفوس الجيش المظفر الذي استولى على حصن (لا تورج) بإحساسات متناقضة. وكانت هذه الإحساسات موجهة أول الأمر ضد القائد جوفان. حينما علموا بفرار لانتناك. فما كاد يظهر جوفان من القبو محل الماركيز دي لانتناك حتى انتشر النبأ بسرعة البرق. وذاع بين أفراد الجيش جميعا في طرفة عين. ثم راحوا يتهامسون بهذه الكلمات " سيحاكمون جوفان. لكن هذه لعبة.. هل يمكن الوثوق بالنبلاء والقسس؟ قد رأينا فيكونت ينقذ ماركيزا. وسنرى قسا يصفح عن نبيل؟ " على أنه ما كاد يذاع نبأ الحكم على جوفان بالإعدام حتى علت نغمة جديدة. راحوا يقولون: " هذا فظيع . زعيمنا. زعيمنا الباسل ! قائدنا الشاب بطل (دول) و (لاتورج) ! سيف الجمهورية في (فنديه) ! هل يجرؤ المدعو سيموردان على إعدامه؟! ولأي سبب؟ لأنه أنقذ كهلا أنقذ ثلاثة أطفال قس يقتل جنديا !. "

بهذه الأقوال راح الجيش يتحدث. واستهدف سيموردان لغضب شديد أربعة آلاف جندي ضد رجل واحد. جدير بهذا العدو أن يكون قوة هائلة. لكنه لم يكن. فقد كان هؤلاء الأربعة الآلاف، جمهورا. أما سيموردان فكان يمثل (الإرادة) العاتية الصارمة. وكان المعروف أن سيموردان يغضب بسرعة ! وهذا ما جعل رجال الجيش يهابونه ويخشون بأسه كان يكفي الإنسان في ذلك العهد أن يكون مستندا إلى (لجنة الأمن العام) تؤيده وتشد أزره وتجعل منه رجلا مخيفا. فلا تلبث الصيحات أن تستحيل إلى همس، والهمس إلى سكون. بقي سيموردان قبل هذه الاحتجاجات وبعدها، المسيطر على مصير جوفان، وعلى مصائر الجميع. كانوا يعلمون أنه لا سبيل إلى التماس شئ منه، وأنه لا يخضع إلا لصوت ضميره. كان كل شئ منوطا به

وحده، معلقا عليه.على أن ما أبرمه كقاض يطبق القانون العسكري يمكن أن ينقضه كمندوب أهلي. قد يمكن أن يرحم وأن يترفق، فهو يجمع في يده سلطة مطلقة وفي وسعه بإشارة أن يمنح جوفان الحياة والحرية. فهو في هذه اللحظة العصيبة رجل الساعة.

وأرخى الليل سدوله وهم يعللون أنفسهم بهذه الآمال وليس لهم إلا أن ينتظروا.

الفصل الثامن

بزغ الفجر. وعند بزوغه ظهر جسم غريب جامد غامض فوق هضبه (لاتورج)، وكان يشرف من هذا الارتفاع على غابة (فوجير).وضع في هذا المكان ليلا. ويكاد يخيل للناظر أنه وثب فجأة إلى موضعه وإن الأيدي لم تقم بإنشائه. على أن الناظر إليه لا يكاد يلمحه حتى تسري في جسده قشعريرة.فهو المقصلة.. الدليل الناطق بوحشية الإنسان.

إن الطبيعة صارمة فهي لا تخفي أزهارها وموسيقاها وطربها وشمسها المشرقة ولا تحجبها عن قسوة الإنسان أو آلامه.. بل هي تحير الإنسان بشدة التناقض بين جمالها السماوي وروعتها القدسية، وبين وحشيته وقسوته. يقتل الإنسان ويدمر ويخرب ويحطم. لكن جمال الطبيعة هو هو. ويبقى النجم هو النجم. والزهرة هي الزهرة. أشرقت الطبيعة هذا اليوم في عنفوان بهائها وروعتها. وكان كل شئ في هذا المحيط ينطق بالطهو والبراءة. وهي نصيحة الطبيعة الخالدة إلى الإنسان.في أبان هذا الجمال السماوي انكشف خزي الإنسان وعاره الأبدي وظهرت المقصلة. رمز الجهالة والعقاب.

كانت الخليقة المزهرة الباسمة، والطبيعة الساحرة الرائعة، والسماء الذهبية الصافية. كانت جميعا تشرف على الإله الجهنمية، وكأنها تقول للإنسان: " انظر إلى ما أصنع !. وإلى ما تصنع !. "

كان لهذا المشهد جمهوره. فقد التف جيش الساحل حول المقصلة وانتظم الجنود على جوانبها صفوفا عسكرية متراصة. ووقف رجال المدفعية حول مدافعهم متأهبين. وارتفع حصن (لاتورج) فوق هذا المشهد. ولم يكن يفصل قمته المسطحه

عن المقصلة سوى فراغ الأخدود. ووضعت فوق قمة الحصن طاولة المحكمة العسكرية والمقعد المظلل بالإعدام المثلثة الألوان. ولما ارتفعت الشمس في كبد السماء ظهر فوق القمة هيكل رجل جلس تحت الإعلام جامدا مشبك الذراعين.

كان الجالس سيموردان، .كانت تعلو رأسه القبعة المثلثة الألوان.. ويتدلى حول وسطه سيفه وطبنجتاه.جلس صامتا. ووقف الجنود خافضي الأنظار، شاهري الحراب لا ينبسون بكلمة واحدة كأن على رءوسهم الطير.

كانوا يفكرون تفكيرا مضطربا في أمر هذه الحرب. فكم من معارك دموية خاضوها. وكم من كتل متراصة من الفلاحين اكتسحوها أمامهم. وكم من حصون غنموها. وكم من نصر أحرزوه ثم خيل إليهم الآن كأنما استحال هذا المجد خزيا وعارا. كانوا يرون الجلاد يهبط ويرتقي منصه المقصلة.

وفجأة قطع هذا السكون دقات طبول خافتة وازدادت نغمات الموت في آذانهم ارتفاعا. وفتحت الصفوف. وتقدم موكب في هذا الميدان واتجه إلى المقصلة جاء حاملوا الطبول أولا وتلتهم ثلة من الجنود بحراب منكسة. وفي أثر هؤلاء شرذمة أخرى بسيوف مشهرة. ثم جاء المحكوم عليه جوفان..تقدم إلى الأمام بخطوات ثابتة. ولم تكن حول يديه أو قدميه قيود. وكان يرتدي سترته العسكرية ويحمل سيفه. وسارت خلفه كتيبة أخرى من الجنود. كانت تضئ وجهه ابتسامة مشرقة ولا شئ في الدنيا أسمى ولا أبعث على التأثر من هذه الابتسامة.

ولما وصل إلى المكان الرهيب اتجه بنظره إلى قمة الحصن وازدرى أن ينظر إلى المقصلة. فقد كان يعرف أن سيموردان لن يفرط في واجبه الصارم نحو الإشراف على تنفيذ الإعدام. ورأى سيموردان فوق القمة.كان سيموردان ممتقع الوجه بارد الأطراف. على أنه بقي جامدا في مكانه حينما رأى جوفان، ولم يختلج في كيانه عضو ما.

تقدم جوفان إلى المقصلة وأخذ يرتقي منصتها. ولما استوى فوقها تبعه الضابط الذي كان يقود الجنود. حل جوفان سيفه وأعطاه للضابط. أزال ربطة عنقه وناولها إلى الجلاد.بدا للناظرين كطيف من الأطياف. ولم يروه أصبح وجها ولا أبهى طلعة.. وكانت خصلات شعره الأشقر تتموج في الهواء. وجيده ناصع البياض. ووقف فوق المنصة ساميا حتى في مكان العقاب وقف منتصب القامة شامخا هادئا. وأحاطت الشمس وجهه بهالة من نور.تقدم الجلاد منه بحبل لتقييد يديه..في هذه اللحظة.. حينما رأى الجنود قائدهم الشاب قرب سكين المقصلة.. لم يقووا على كبح عواطفهم. وذابت قلوب هؤلاء المحاربين الصارمين. تعالى صوت مرتفع. هو بكاء الجيش في عبرة واحدة ممتزجة. دوت صيحة مجلجلة: "الرحمة ! الرحمة !"

ركع بعضهم على الأرض.. وألقى آخرون بنادقهم وبسطوا أيديهم نحو القمة التي جلس فوقها سيموردان.. وأشار جندي بيده إلى المقصلة وصرخ: إذا أردتم بديلا فخذوا رأسي !

ردد الجميع نداءه في جنون.. ولو رأتهم أسود لرقت قلوبها أو ارتاعت.. فإن دموع الجنود شئ مروع. تردد الجلاد.. ولم يدر ماذا يفعل..ثم صدر من فوق قمة الحصن صوت سريع خافت لكنه صارم، نفذ إلى أسماع الجميع.. قائلا: لينفذ القانون !.. عرف الجميع هذا الصوت الصارم، فاه سيموردان بالكلمة الفاصلة، وسرت في صفوف الجيش رعدة. طرح الجلاد تردده.. ودنا من جوفان ممسكا الحبل..

فقال جوفان: انتظر..

التفت جوفان إلى ناحية سيموردان.. ولوح له بيده اليمنى الطليقة مودعا، ثم ترك الجلاد يقيده. ولما تم تقييده، قال للجلاد مرة ثانية: لحظة واحدة: ثم هتف بأعلا صوته: تحيا الجمهورية !..

مدده الجلاد فوق المنصة.. ووضع رأسه تحت السكين.. وأزاح برفق شعره جانبا، ثم ضغط على اللولب، فهوت السكين بسرعة، وسمعت ضربة مخيفة مروعة وفي نفس الوقت جاوب ضربة السكين صوت عيار ناري.. فقد تناول سيموردان إحدى الطبنجتين، وفيما كان رأس جوفان ينحدر إلى السلة الموضوعة أسفل المقصلة، أطلق سيموردان رصاصة على قلبه، فتفجر الدم من فمه، وهوى جثة هامدة. ورفرفت هاتان الروحان الشقيقتان متعانقتين.. إحداهما مشرقة ساطعة، والثانية مظلمة قاتمة.

الفهرس

الجزء الثاني

في باريس

الجزء الثالث

في ميادين (فنديه)